

آل سعود ماضيهم ومستقبلهم

جبران شامية


آل سعود
ماضيهم ومستقبلهم



جُبران شاميّة
عضو مشارك ، جمعيّة دراسات
الشرق الأوسط لأميركا الشماليّة



آل سعود

ماضيهم ومستقبلهم



4, Sloane Street, London SW1X 9LA.

AL SAUD
THEIR PAST, THEIR FUTURE
BY
GEBRAN CHAMIEH

First Published in Great Britain in 1986

4 Sloane Street, London SW1X 9LA
ISBN 1 869844 01 7
British Library Cataloguing in Publication Data
Chamieh, Gebran
Al Saud: their past, their future.
1. Saudi Arabia—History
I. Title
953'.804 DS223

Photosetting by: Photosetting Ltd., London
Printed & Bound in Great Britain by: Biddles Ltd., Guildford & King's Lynn

محتويات الكتاب

كتب أخرى للمؤلف

صدرت عن «دار الأبحاث والنشر» :

سجل العالم العربي ١٩٦٦ ـ ١٩٧٧ ، ٢٣ مجلداً ، بالعربية والانكليزية .

«قضايانا العربية» ، ١٩٦٦ .

«يا عقلاء العرب اتحدوا !» سلسة من عشرة كتب ، ١٩٦٧ .

«الاشتراكية المصرية والقضية الفلسطينية» ، ١٩٦٨ .

«الاشتراكية الثورية في التطبيق» ، سلسلة من سبعة كتب ١٩٦٩ .

مزرعة الحيوانات لجورج أورويل ، مترجم .

العالم عام ١٩٨٤ لجورج أورويل ، مترجم .

رجل دين في موسكو ، لجيوفاني غويراشي ، مترجم .

Saudi Arabia Yearbook, 1979-1980.
Saudi Arabia Yearbook, 1980-1981.
Saudi Arabia: Record of Economic Development, 1983.
Saudi Arabia: The Third Five-Year Economic Development Plan, 1980-1985.

المؤلف

ولد المؤلف في دمشق عام ١٩١٤ ، ونال درجة ماستر في العلوم السياسية من الجامعة الاميركية في بيروت ، ثم ليسانس في الحقوق . يتقن العربية والانكليزية والفرنسية .

اشترك بتأسيس «حركة القوميين العرب» في منتصف الثلاثينات ، في الجامعة الاميركية حيث كان منشأها .

انتدبته الحكومة السورية عام ١٩٤٧ ، ليمثلها في وفد ضم السيد نصري المعلوف (نائب ووزير لبناني) ، والسيد اكرم زعيتر من كبار الوطنين الفلسطينيين ، لشرح القضية الفلسطينية في دول اميركا اللاتينية . رأس وفداً فلسطينيا ثانيا عام ١٩٦٢ مندوباً من الهيئة العربية العليا الى الدول الاميركية . ثم حضر الوفد جلسات الأمم المتحدة في نيويورك بشهر نوفمبر ١٩٦٢ .

ترشح للنيابة عن دمشق في انتخابات عام ١٩٤٩ .

على اثر الانقلابات السورية المتكررة ، انتقل الى بيروت سنة ١٩٥٤ ، وانتخب سكرتيراً تنفيذياً لـ «مؤتمر خريجي الجامعة الاميركية» الذي عقد دورته الأولى في بيروت سنة ١٩٥٥ ، وعقد دورته الثانية في القدس سنة ١٩٥٦ ، تحت اسم «مؤتمر الخريجين العرب» .

كان المعلق الرئيسي في صحيفة «الحياة» البيروتية من عام ١٩٥٤ الى حين اغتيال صاحبها المرحوم كامل مروة .

أسس «دار الابحاث والنشر» في بيروت سنة ١٩٦٦ ، واصدر موسوعة «سجل العالم العربي» باللغتين العربية والانكليزية ، بالاضافة الى نحو ثلاثين كتابا مؤلفاً ومترجماً .

أصدر في السنوات القليلة الماضية باللغة الانكليزية ، ثلاثة كتب سنوية عن المملكة العربية السعودية (١٩٧٩ - ١٩٨٣) وكتاباً رابعاً عن الخطة الخمسية الثالثة للمملكة العربية السعودية (١٩٨٠ - ١٩٨٥) .

انتخبته «جمعية دراسات الشرق الأوسط في أميركا الشمالية» عضوا مشاركاً تقديراً لأهمية موسوعة «سجل العالم العربي» .

المقدمة

قد يتساءل البعض ما شأننا بالكتابة عن المملكة العربية السعودية ، والبلاد ليست بلادنا ، وسكانها ليسوا أهلنا ، وما الذي يدفعنا الى ذلك .

وردنا متعدد الوجوه .

فالسعودية تنفرد بين البلاد العربية بظواهر مشوقة للباحث ، اذ ان الدولة وقادة البلاد يدعون للعودة الى «السلف الصالح» (القرن السابع ميلادي) انسجاما مع الدعوة الوهابية ، في حين ان قسما كبيرا من النافذين سياسيا واقتصاديا ، ونسبة متزايدة من السعوديين العاديين ، يتمتعون في الوقت نفسه في حياتهم اليومية ، في منازلهم واعمالهم بأحدث اختراعات المدنية الغربية ، ويمارسون انماطا من المعيشة والعلاقات الاجتماعية ، ضمن محيط سعودي ضيق نسبيا في الوقت الحاضر لكنه يتسع باطراد ، لا تأتلف مع التقاليد السابقة . وسيكون من المشوق والطريف تتبع هذا الصراع الصامت ، بين المعتقد السلفي والحياة المعاشة ، لنرى الوضع الذي سينتج عنه ولمن ستكون الغلبة .

لكن مصير التطور الاجتماعي في السعودية على اهميته ، ما كان ليشكل سببا كافيا لنا للكتابة عنها لولا ان الدور الذي تلعبه في سياسة منطقة الشرق الاوسط تزايدت اهميته كثيرا في العقد الماضي بسبب عوامل متعددة .

فقد ازدادت حاجة العالم الى البترول ما بين ١٩٧٣ و١٩٨٢ وارتفعت اسعاره فتهافتت دول العالم على كسب ود المنتجين والسعودية اكبرهم . كما ان مشاريع الانماء الضخمة التي قامت بها الدولة وبرامج التسلح الكبيرة ، حملت الدول الاجنبية الكبرى على الاهتمام بآراء السعودية ، طمعا بالحصول على عقود الاعمال والانشاءات والمشاريع لشركاتها الوطنية . وهكذا اصبح للسعودية

رأيٍ محترم في الأوساط الدولية .

ترافق ذلك مع خلخلة في الوضع العربي . فقد أقصيت مصر عن المجموعة العربية عام ١٩٧٩ بعد اتفاقية كامب دافيد مع اسرائيل . وانشغل العراق بحربه مع ايران منذ ١٩٨٠ ، عن لعب دور عربي فاعل . واستمرت حاجة سورية الى الدعم المالي لمؤسساتها العسكرية ولجيشها في لبنان .

ثم ان السعودية تدفع مساعدات سخية لعدد من الحكومات والحكام العرب ، بعض هذه المساعدات قررتها مؤتمرات القمة العربية ، وبعضها ترتب باتفاقات ثنائية تحاول السعودية من خلالها تحقيق اهداف سياستها .

نتيجة هذه العوامل مجتمعة ، برزت السعودية كاحدى الدول الاكبر وزنا في سياسة المشرق العربي ، مما جعلها موضع اهتمام العرب والأجانب ، إذ لم يعد بالمستطاع معالجة الصراعات العربية المتفاقمة ، واوضاع منطقة الخليج ، وحرب العراق وايران ، ومسألة لبنان ، ومصير الفلسطينيين ، دون التعرف على السياسة السعودية . كما لا يمكن فهم هذه السياسة دون معرفة خلفيتها التاريخية والمذهبية وتركيبة مجتمعها وطبيعة الحكم فيها .

ولعل هذا الكتاب يلقي ضوءا على هذه النواحي .

جبران شامية

مونتريال ـ يناير ١٩٨٦

١

التعارف

في أحد أيام خريف ١٩٦٦ تلقيت دعوة لزيارة المملكة العربية السعودية ولم يكن لي بها أو بأحد قادتها معرفة او صلة سابقة . ولعل هذه الدعوة كانت بسبب مقالاتي الاسبوعية في جريدة «الحياة» التي توالت اكثر من عشر سنوات الى حين اغتيال صاحبها الاستاذ كامل مروة سنة ١٩٦٦ بسبب مواقفه الوطنية المعارضة للانقلابات العسكرية .

وكانت «الحياة» اكثر الصحف العربية انتشارا وأقواها نفوذاً في ذلك الوقت باستثناء الصحف المصرية ، لأن صاحبها كان صريحا وملتزما وواضحاً في مواقفه السياسية لا يحيد ولا يساير . وقد جمعت بيننا صداقة من أيام الدراسة في الجامعة الاميركية ، وانتماؤنا الى حركة «القوميين العرب» .

وعندما انتقلت من دمشق إلى بيروت في آخر سنة ١٩٥٤ لأصبح سكرتيرا تنفيذياً لـ «مؤتمر خريجي الجامعة الاميركية» الذي اصبح بعدئذ «مؤتمر الخريجين العرب» صرت اكثر تفرغا للكتابة وأزود «الحياة» اغلب الاسابيع بالمقال الاسبوعي الطويل وبمقال آخر بعنوان «احداث الاسبوع في العالم العربي» بالاضافة الى عملي الأساسي في «دار الابحاث والنشر» التي أنشأتها وأصدرت عنها «سجل العالم العربي» .

من الطبيعي ان الصراحة في المواقف السياسية المعلنة تجلب لصاحبها التأييد والحماس ممن يشاركونه بالرأي ومن الذين يعبر عن مشاعرهم التي لا يجرأون على البوح بها ، كما تجلب عليه النقمة والسخط من أرباب الأنظمة التي ينتقدها . وفي الحالتين يكسب الصحفي والكاتب الشهرة التي يسعى اليها الكثيرون .

من آثار النقمة التي تعرضت لها ان حكومة الدكتور نور الدين الأتاسي والسيد يوسف زعين اصدرت قرارا عرفياً من الحاكم العسكري سنة ١٩٦٧ بمصادرة ما تبقى لي من الأراضي بعد استيلاء «الاصلاح الزراعي» على جزء منها في منطقة الجزيرة في شمال شرق سوريا وهي أراضٍ أمضيت جزءاً كبيراً من شبابي لحيازتها واستصلاحها . وبقيت أملاكي مصادرة الى أن استعدتها بموجب حكم قضائي سنة ١٩٨٠ في عهد الرئيس حافظ الأسد . ولعلها ضريبة يدفعها الكتاب السياسيون المخلصون لمبادئهم .

وبالحقيقة ، لم يكن هناك ترابط فكري بيني وبين النظام السعودي . فأنا نشأت في زمن قريب جداً من الثورة العربية الكبرى ، وفي بيت سياسي يميل إليها . وكان والدي ممن تعاونوا مع الملك فيصل الأول في اثناء حكمه القصير في دمشق . وربيت على أمل الوحدة العربية للبلاد الشمالية . وتعزز هذا الشعور أثناء دراستي في الجامعة الاميركية في بيروت في الثلاثينات حيث نشأت حركة «القوميين العرب» وكنت أحد مؤسسيها ، وكانت تطلعاتنا تتجه نحو العراق باعتباره «بروسيا العرب» الذي سيحقق الوحدة الى أن انهارت الآمال بفشل ثورة ١٩٤١ ضد الانكليز التي ساهم بها القوميون العرب .

ولم أجد تفسيراً للدعوة التي تلقيتها الا أني كنت في مقالاتي أعارض باستمرار الانقلابات العسكرية التي تسلطت على بعض الأقطار الشمالية وكنت جمعت مقالاتي وبوبتها حسب مواضيعها وأصدرتها سلسلة في سبعة كتب تحت عنوان «يا عقلاء العرب اتحدوا» ، وأصدرت سلسلة ثانية في عشرة كتب بعنوان «الاشتراكية الثورية في التطبيق» اقتبست فيها من دون تعليق ما كانت تقوله الصحف والمجلات المصرية عن أوضاع مصر الاقتصادية والصحية والاجتماعية المتدهورة تحت الحكم الثوري ، وترجمت كتابين شهيرين لجورج اورويل يعتبران من روائع النقد الطريف للدكتاتورية وعنواناهما «مزرعة الحيوانات» و«العالم عام ١٩٨٤» ، كما ترجمت رواية طريفة عن الفرنسية بنقد المبادىء الشيوعية بعنوان «رجل دين في موسكو» للكاتب الايطالي الشهير جيوفاني غويراشي .

لم تقتصر جهودي على المعارضة والنقد بل ألفت عام ١٩٦٥ كتاباً بعنوان «قضايانا العربية» عرضت فيه نظاماً ديمقراطياً بديلاً للاشتراكية الثورية شاركني في اعداده عدد من رفاق الفكر في حركة القوميين العرب وان تحملت مسؤوليته وحدي .

من المحتمل أن هذا النشاط والاتجاه الفكري تلاقى مرحلياً مع السياسة

السعودية ، بعد ما تولى الملك فيصل الحكم وعزل الملك سعود عام ١٩٦٤ .

وعندما استلمت الدعوة لزيارة السعودية كنت توقفت عن الكتابة في «الحياة» وانصرفت بكليتي الى اصدار موسوعة «سجل العالم العربي» باللغتين العربية والانكليزية ، لأنه بعد اغتيال الاستاذ كامل مروة وقع اضطراب في ادارة الجريدة ولم اعد أجد الجو مريحا . وكان ذلك ختام نشاطي في مجال الكتابة الصحفية باللغة العربية .

في الرياض قابلت الملك فيصل في مكتبه الخاص فأثنى على عملي وشرحت له الهدف من موسوعة «سجل العالم العربي» فأبدى تأييده وتشجيعه . وبعد وقت قصير من عودتي لبيروت ، وردتني من وزارة الاعلام والخارجية طلبات اشتراك بالموسوعة ، كما اشترت وزارة الاعلام عدداً كبيراً من الكتب التي نشرتها . والأرجح أن ذلك جرى بايعاز من الملك فيصل الذي استمرت رعايته الى حين اغتياله عام ١٩٧٥ .

تعرفت في تلك الزيارة على مستشار الملك الدكتور رشاد فرعون الدمشقي الأصل الذي أكن له تقديراً كبيراً ، وعلى الدكتور جميل حجيلان وزير الاعلام وسفير السعودية في باريس حالياً . ووجدت في الرياض أصدقاء سوريين يتعاونون مع الملك فيصل . فكان الدكتور معروف الدواليبي رئيس وزراء سوريا أيام الحكم النيابي مستشاراً في مجلس الوزراء للشؤون الاسلامية ، وكان الدكتور منير العجلاني أحد الوزراء والنواب السوريين السابقين مستشارا في وزارة المعارف ، وكان الاساتذة احمد عسه وشكيب الجابري ونهاد الغادري وفايز أجاز وزهير الشلق يتعاونون مع وزارة الاعلام ومع مديرها العام النشيط الفعال الشيخ فهد السريري (أمير نجران حالياً) . وكان الأستاذ عبد الوهاب الفتال يتعاون مع وزارة المعارف .

تكررت زياراتي بعدئذ للمملكة فتعرفت على عدد من الأمراء النافذين واستمعت الى آرائهم .

وعرفني أصدقائي على عدد كبير من السعوديين المهتمين بالشؤون العامة من مختلف الاتجاهات وأطلعت على أفكارهم ، بالاضافة الى متابعة تطور علاقات المملكة بالدول العربية والأجنبية ، وأحوالها الداخلية يوماً بيوم في «سجل العالم العربي» .

وتعززت معرفتي بأحوال البلاد الاقتصادية ، لما أصدرت ثلاثة كتب سنوية عن المملكة باللغة الانكليزية تشمل أعوام ١٩٧٩ ـ ١٩٨٣ ، وكتاباً رابعاً عن الخطة الخمسية الثالثة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٥ .

وهكذا أكون قد رافقت عن كثب تطور البلاد السعودية طيلة ثمانية عشر عاماً مكتسباً خبرة بأحـوالهـا ومعرفة برجالها قد لا تتيسر للكثيرين مما يؤهلني للكتابة عنها كتابة عارف مطلع .

ما هو سجل العالم العربي ؟

كثرت إشاراتي في ما تقدم الى «سجل العالم العربي» الذي شغل إصداره ثلاثة عشر عاماً من عمري وكان سبب تعرفي على المملكة وأحوالها ، لا رغبة بالدعاية والترويج له فقد نفدت طبعتاه العربية والانكليزية ولم يعد معروضاً في الأسواق ، ولكن لتدارك نقص لا يزال باعتقادي يشوب ملفات معظم وزارات الخارجية العربية وينعكس على مستوى التحليلات والأبحاث السياسية في الصحف والمجلات العربية .

لقد كان «السجل» ، كما يدل اسمه ، يسجل الأحداث ، وينقل الوثائق ويعرض الاتجاهات السياسية العربية المختلفة من دون إنحياز لاحدها . كان كل حدث ووثيقة يحمل بوضوح التاريخ والمصدر . وكان كل اتجاه سياسي عربي يُنقل من بيان او صحيفة مخولة بالنطق باسم تلك الجهة . وبما أن الخلافات العربية حالة مزمنة ودائمة فإننا كنا ننقل آراء كل دولة اوحزب من مصدرها تاركين للقارىء حرية الاستنتاج والتحليل .

ان ضرورة «التوثيق» لم تعد موضع نقاش في البلاد العربية وقد كثر الكلام عنها وقلّ العمل من أجلها . وكانت الجامعة الاميركية في بيروت تصدر «الوثائق العربية» في فترات متفاوتة لكنها لم تكن برأيي كافية الشمول والتغطية لأنها كانت تغفل أي ذكر للاتجاهات السياسية ضمن كل بلد والعلاقات بين البلاد العربية . فجعلت «السجل» شاملاً للأحداث وللوثائق وللاتجاهات .

ربما يستغرب القراء اذا عرفوا أن «السجل» كان يتضمن طيلة صدوره معلومات عن بلاد عربية غير مدونة لدى إدارات الدولة المعنية . ولا أزال أذكر سفارة عربية اتصلت بي في بيروت تطلب مني نصّ بيان صدر عن مؤتمر عقد في بلدها قبل بضعة أشهر فأرسلته لها وكان الأحرى أن تطلبه من وزارة خارجيتها لو وجد لديها . واستطيع أن أؤكد أن وزارات خارجية عربية كثيرة ينقصها في ملفاتها معلومات ذكرها «السجل» عن شؤون عربية معنية هي بها .

لقد نشأت فكرة «السجل» عن حاجة شعرت بها عندما كنت أكتب في صحيفة «الحياة» حيث كنت في تحليلاتي السياسية أحتاج أحياناً الى معرفة نص وتاريخ بيان أومشروع أو اجتماع أو موقف سياسي جرى قبل أشهر أوسنوات .

فكنت أضطر الى صرف ساعات أراجع مجموعات «الحياة» القديمة حتى أعثر على حاجتي . لذلك حرصت في «السجل» على التاريخ والمصدر والخبر والنص الكامل معاً . وعلى سبيل المثال عن الحاجة الى «السجل» ، من يتذكر الآن نص مشروع روجرز ، أو بيان مؤتمر الخرطوم ، أو بيان مؤتمر بغداد ١٩٧٩ أو نص القرارين رقم ٢٤٢ و٣٣٨ اللذين يكثر الكلام عنهما باعتبارهما أساساً لحل القضية الفلسطينية ، أو نص مشروع الرئيس رونالد ريغان عام ١٩٨٢ ، أو بيانات وتواريخ مؤتمرات القمة العربية بالنصوص الدقيقة المطلوبة لكتابة بحث سياسي ذي مستوى رفيع ، الى آخر الوثائق اللازمة للباحث السياسي .

إني أقف كل يوم بإعجاب أمام المعلقين والمحللين السياسيين الذين يعالجون جميع هذه المواضيع الشائكة في الصحف والمجلات العربية معتمدين على ذاكرتهم وحدها . إنهم يستحقون من قرائها التقدير العميق على هذه الذاكرة العجيبة .

لقد أصدرت «السجل» خدمة للباحثين والكتاب العرب فلم تشترك به صحيفة عربية واحدة سوى «الأهرام» المصرية لفترة من الزمن . ولم تهتم جامعة عربية بتقريظه وإعطاء رأيها به .

وأصدرت «السجل» بالانكليزية فكان موضع دراسة ثلاثة أساتذة في جامعة نيويورك هم : روبرت باروز ، دوغلاس مازيو ، وبرت سبيكتور Robert Burrowes, Douglos Muzzio, Bert Specter. قارنوه مع عشرين مصدراً عربياً وأجنبياً للمعلومات عن الشرق الأوسط في مقال بعنوان «مصادر دولية عن أحداث الشرق الأوسط» Sources of Middle East International Event Data

وقالوا عنه ما يلي : (*) (إن سجل العالم العربي هو بجميع المقاييس أكثر مصادر المعلومات عن البلاد العربية واسرائيل طموحاً وفائدة . ان السجل الذي يصدر في بيروت باللغة الانكليزية يتألف من مجلدات فصلية تزيد عن ستمائة صفحة . ويعرض كل مجلد الأحداث التي تشمل جميع نواحي الحياة العربية السياسية والاقتصادية ، الداخلية والخارجية ، حسب تسلسلها التاريخي . ويستمد «السجل» معلوماته من مصادر شرق أوسطية وشمال أفريقية مع التأكيد على الصحافة الاقليمية ، بالاضافة الى وكالات الأخبار العالمية . وينسب «السجل» كل خبر أو وثيقة أو رأي الى تاريخه ومصدره بوضوح .

(*) Middle East Studies Association Bulletin: Vol. 5, no. 2, May, 1971

«ويحتوي كل مجلد على أقسام مستقلة عن كل بلد عربي وعن اسرائيل . وتقسم المعلومات عن كل بلد الى ثلاثة أجزاء تعالج العلاقات مع البلاد العربية الأخرى ، والعلاقات مع الدول ا لأجنبية ، والأحوال الداخلية .

ويحتوي «السجل» أيضاً على أبواب تبحث العلاقات العربية المشتركة ، وجامعة الدول العربية ، والمنظمات الدولية .

إن «سجل العالم العربي» يمثل مجهوداً ضخماً وهو ذو قيمة لا تقدر للذين يريدون متابعة السياسة العربية) . (انتهى)

وكتب لي الأستاذ ستيفان بوسوني Stephan T. Possony من مؤسسة هوفر في جامعة ستانفورد بكاليفورنيا Hoover Institute, Stanford University : (إني معجب جداً بالمادة الواردة . ولا يكفي أن نقول بأن الوثائق ثمينة ، لأنني حسب اطلاعي أجد «السجل» فريداً في نوعه ولا غنى عنه لأي بحث جدي عن العالم العربي) .

وكتب لي الاستاذ مالكولم كير Malcolm Kerr أحد كبار خبراء الشرق الأوسط في الولايات المتحدة ورئيس الجامعة الأميركية في بيروت ، الذي أغتيل مؤخرا : «ان معلومات السجل تبدو لي دقيقة ومفصلة ومرتبة بعناية وخبرة . وستكون ذات فائدة قصوى لمن هم مثلي من الجامعيين الذين يهتمون بمتابعة أحداث الشرق الأوسط» .

وكتبت لي مؤسسة دراسات السياسة الخارجية في بون ، المانيا الغربية : (إن «السجل» ، هو بها لا يقاس ، أفضل توثيق عن الشؤون العربية أطلعنا عليه) .

وانتخبتني «مؤسسة دراسات الشرق الأوسط في اميركا الشمالية» Middle East Studies Association of North America عضواً مشاركاً فيها ، تقديراً لـ «سجل العالم العربي» ، فأين العرب من الغرب في تقدير علمائهم !

لنعد الى البلاد السعودية . فبعد ما تعذر عليّ متابعة اصدار «السجل» بسبب أحوال الحرب في لبنان حاولت أن أثير اهتمام أوساط سعودية لتتابع المهمة فلا يتوقف هذا المشروع العلمي الفريد باعتبار أن الامكانات المالية متوفرة لديهم ويمكن تدريب جهاز سعودي يتابع العمل . فلم تنجح محاولاتي . وهكذا قضي على هذا المشروع العلمي الفريد الذي عاش بفضل الملك فيصل وانتهى بوفاته .

٢

نشوء الدولة

ينتسب آل سعود الى فخذ من قبائل عنزة الضاربة في نجد وبادية الشام . ويقول الأستاذ خير الدين الزركلي في كتابه عن تاريخ الملك عبد العزيز ، وقد عاش فترة طويلة في المملكة وعمل في وزارة الخارجية(١) :

ينتسب السعوديون الى الشيخ سعود إبن محمد إبن مقرن إبن مرخان إبن ابراهيم إبن موسى إبن ربيعة إبن مانع المريدي .

وكان مانع من سكان بلدة قرب القطيف تسمى الدرعية نسبة الى آل درع حكام نواحي قطيف . وانتقل مانع بأهله من جوار القطيف الى وادي حنيفة على بعد نحو عشرين كيلومتراً من الرياض وبنى ومن معه مساكن من اللبن والحجارة المركزة على الطين وسموا القرية «الدرعية» على اسم بلدتهم الأولى .

خلف مانع عند وفاته ، ابنه ربيعة ، لكن حفيده موسى إبن ربيعة ، طمع بالحكم ، فحاول قتل أبيه وأصابه بجراح فهرب الأب واستولى الابن على القرية .

وخلف موسى ابنه ابراهيم ، ثم مرخان إبن ابراهيم ، ثم ربيعة ومقرن ، إبنا مرخان مشتركين (١٦٣٠) .

تنازع على الامارة بعدهما ولداهما وطبان بن ربيعة ومرخان بن مقرن . فتغلب وطبان على مرخان عام ١٦٥٥ وقتله .

ثم حكم الدرعية محمد بن وطبان وقتل سنة ١٦٧٣ ، فخلفه محمد بن مقرن ، الذي توفي عام ١٦٩٤ ، فخلفه ابراهيم بن وطبان ، الذي قتله رئيس بلدية الرياض ، فخلفه أخوه أدريس بن وطبان ، الذي قتل أيضا حوالي سنة ١٦٩٥ .

وذهب حكم القـريـة الى بني خالـد حتى عام ١٧٠٩ ، حين تولى الحكم موسى بن ربيعة بن وطبان ، واستمر حتى خلعه أهل الدرعية .

بعـد خلع موسى ، تولى سعـود بن محمـد بن مقـرن إمـارة الـدرعيـة سنـة ١٧٢٠ ، وهو الذي تنتسب إليه أسرة آل سعود ، وقد توفي عام ١٧٢٥ .

بعـد وفـاته ، تولى الدرعية زيد بن مرخان بن وطبان ، فزاحمه حفيد لأحد أخوته اسمه مقرن ، وهو أخو سعود الأول أبي آل سعود . وتولى مقرن الامارة ودعا عمه وابن أخيه محمد بن سعود ، لزيارته يريد الغدر بهما ، الا أن محمد بن سعـود ومن معـه ، وثبـوا على عمه مقرن فقتلوه وردوا زيداً للامارة . لكنه قتل على يد أمير العيينة محمد بن عمر عام ١٧٢٧ .

تولى الدرعية بعد ذلك ، محمد بن سعود بن محمد بن مقرن ، الذي تحالف مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب . وهكذا بدأ دور الامامة في بيت آل سعود .

يتـابـع الزركلي قائلا : «أصطبغت سياسة محمد بن سعود وحروبه بالصبغة الـدينيـة الخـالصـة . فحروبه «جهاد» وغاراته «غزوات» وانتصاراته «فتوحات» ورعاياه «مسلمون» والخروج عن طاعته «ردة» ومرجع أحكامه الكتاب والسنة . وكـانت وفـاتـه لسنـة ١٧٦٥ عن نحـو سبعـين عاماً ، ودام حكمه أربعين عاماً وخلف ولدين : عبد العزيز الذي قام بالامارة بعده ، وعبد الله أبو الامام تركي جد الملك عبد العزيز(٢) » .

يتضـح مما قالـه الأستـاذ خير الـدين الزركلي أن آل سعود كانوا نصف حضر سواء حين أقامتهم بجوار القطيف أوعند انتقالهم الى الدرعية قرب الرياض .

وقـد كان مجتمـع الجـزيـرة العـربيـة سواء أيام الامام سعود الكبير في القرن الثامن عشر أو أيام عبد العزيز بن عبد الرحمن في القرن العشرين ، مجتمعاً بدوياً تزعمته عائلات تتمتع تقليدياً بولاء عشائر معروفة قوية ومرهوبة الجانب .

واذا راجعنـا بطـون وافخـاذ قبيلة عنـزة التي ينتسب اليها آل سعود ، فاننا لا نجد في العائلات المتقدمة فيها ذكراً لهم . وقد عدد الأستاذ فؤاد حمزة بتفصيل فروع عنـزة وعـائـلاتهـا(٣) . في تسـع صفحـات فذكـر الـرولـة لآل شعلان ، والعمـارات لابن هذال ، والفـدعـان لابن مهيد ، وبطونا وأفخاذا أخرى كثيرة ليس بينهـا آل سعـود . وقـد كان آل سعـود وحدهم بين العائلات التي تصدت للزعـامـة في ذلـك المجتمـع البدوي من دون عزوة عشائرية كبيرة ملتزمة الولاء تنصرهم وتشد أزرهم .

ولعـل هذا من الأسبـاب التي دفعت محمـد بن سعود الامام الأول للتحالف مع محمـد بن عبـد الوهاب ليكتسب بالدعوة الدينية أنصارا ليسوا له في التركيبة

العشائرية القائمة .

طوائف الجزيرة في القرن الثامن عشر

يقول الاستاذ عبد الفتاح أبو علية في كتابه «الاصلاح الاجتماعي في عهد الملك عبد العزيز» ان معظم سكان الجزيرة العربية يتبعون المذاهب السنية الأربعة . وفيهم طوائف اسلامية أخرى أقل عددا . وكان أكثر السكان ، من مختلف الطوائف ، بدو رحل ينتمون الى تجمعات قبلية ويعيش الى جانبهم سكان الواحات والقرى . وكانت الشريعة الاسلامية تطبق في ذلك الوقت على سكان الحواضر فقط . اما البدو فكانت لديهم قوانين وأحكام مستمدة من التقاليد والأعراف يقوم عليها القضاء ، ولم يكونوا يطبقون الشريعة . وكان لكل قبيلة قاض يدعى باسم «عارف»(٤) .

اما الطوائف الدينية ، فلم نقع على تقدير لعددها في ذلك الزمن ، ولعل ما كتبه الأستاذ فؤاد حمزة سنة ١٩٣٣ يلقي ضوءاً على الزمن الأبعد فيقول : يوجد من الشيعة في الوقت الحاضر أتباع للامام محمد بن الحنفية يقيمون في جبل رضوي قرب ينبع ويقارب عددهم عشرين الفاً . وأتباع هذا المذهب أكثرهم من قبائل حرب وجهنية(٥) .

وفي الاحساء يتناصف السكان في التوزيع بين أهل السنة وطائفة الشيعة حيث يوجد عدد كبير من الشيعة الامامية أتباع جعفر الصادق يقيمون في القرى المنتشرة في الواحة وأكثرهم خليط من الأثني عشرية والقرامطة وبينهم قسم من بني خالد المتشيعين ويتجاوز عددهم خمسة وعشرين الفاً . وتكاد واحة القطيف أن تكون كلها من الشيعة القرمطية وهم بقايا القرامطة الذين هددوا العالم الاسلامي في القرن الثالث عشر هجري (العاشر ميلادي)(٦) .

ويوجد في القطيف أكثر من أربعين قرية سكانها كلهم عرب قرامطة يسكنون الواحة والجزر المقابلة للساحل في تاورت ودارين وغيرهما ويزيد عددهم عن أربعين ألفاً(٧) .

والقرامطة شيعة ينتسبون الى حمدان قرمط وهو يماني الأصل غالى في التشيع لآل البيت . وقد تغلبوا على شرق الجزيرة في أواخر المائة الثالثة للهجرة (أوائل القرن العاشر ميلادي) واستولوا على ساحلها وعلى البحرين والأحساء والقطيف وخلعوا طاعة المعتضد العباسي . وفتحوا مكة عام ٣١٧هـ (٩٣٠م) ونهبوها ونقلوا الحجر الأسود الى القطيف وحكموا مكة ما يزيد عن عشرين سنة . وأعيد الحجر الأسود بأمر الخليفة الفاطمي سنة ٣٣٩هـ (٩٥١م) ، وكان

القرامطة على صلة بالفاطميين وينتسبون اليهم . وهكذا «كان التشيع لأزمنة عديدة المذهب الرسمي للدولة ولقسم غير قليل من الشعب»(٨) .

وفي عسير المجاورة لليمن أتباع للمذهب الزيدي الى جانب الشوافع وهم الأكثر عدداً . ويعلم من ذلك ان الشيعة في البلاد السعودية لا يبلغ عددهم مائة ألف (عام ١٩٣٣)(٩) .

أما أهل السنة فانهم ينتمون الى المذاهب الأربعة المعتمدة . وأهل نجد يذهبون مذهب السلف الصالح وفي الاجتهاد يتبعون الامام أحمد بن حنبل . أما الحجاز ففيه أتباع المذاهب الأربعة . ويكثر في البادية أتباع الامام الشافعي . وفي قبيلة حرب يكثر أتباع الامام أبي حنيفة ، وفي المدن يكثر الاحناف أيضا لقرب عهد الناس بالحكومة العثمانية التي كان مذهبها الرسمي المذهب الحنفي . وفي الحرم المكي مقامات أربعة للمذاهب الأربعة . وكانت الصلاة تقام في أوقاتها وراء أربعة أئمة . وقد أبطلت هذه العادة تحت حكم آل سعود وأصبح الامام في الصلاة حنبلياً يتبعه الناس كلهم . وقد كان في الحجاز إتباع للطرق الصوفية من سنوسية وإدريسية وقادرية وكيلانية وبكطاشية غير أن السعوديين قضوا عليها جميعاً(١٠) .

آل سعود والدعوة الوهابية

بدأ التاريخ يذكر آل سعود بعدما تبنوا دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الدينية عام ١٧٤٤ .

ولد الشيخ محمد سنة ١٧٠٣ في قرية العيينة في وادي حنيفة وتلقى تعليمه الديني المبكر عن والده الشيخ عبد الوهاب قاضي القرية الذي كان يتبع المذهب الحنبلي فنشأ محمد عليه . وبعدما بلغ العشرين ارتحل من نجد طلباً للعلم فذهب الى الأحساء ثم الى البصرة .

يقول الأستاذ أحمد عسه(١١) : «شغل بال الشيخ ما أصبح المسلمون عليه من تخلف وبعد عن الاسلام وصفائه في أيامه الأولى فاهتدى الى أن العودة الى الدين ونهجه في الحياة هي الوسيلة لبعث هذا المجتمع من جديد كما بعثه الاسلام أول مرة . . وقرر ان الاسلام الصحيح يجب ان يؤخذ من القرآن والحديث . وفيما يتعلق بالحديث نهج منهج الامام إبن حنبل ، وهو أن ما اختلف عليه الأئمة يهمل ، وما اجمعوا عليه من الأحاديث يؤخذ . وهكذا صار يدعو الى العودة لحياة الاسلام كما كانت في صدر الاسلام . . وتيقن ان الايمان الصحيح يجب ان يقترن بالعمل الصحيح ، وأن الاعتقاد وحده لا يكتمل الا

اذا اقترن بالعمل» .

نبذ الشيخ محمد ما اعتبره بدعاً دخلت على الدين كالطرق الصوفية . والتشفع بالأولياء ، واقامة النصب والقباب ، وزيارة القبور . وقرر أن الرجوع الى الأصول هو الطريق الوحيد للنهوض بالمسلمين من حالتهم المتردية . ودعا أيضاً الى الزهد بالدنيا وابتغاء الآخرة ، والتقشف والعبادة والتقى والورع ، والى الابتعاد عن البذخ والترف وعن ملذات الحياة .

إتفاق آل سعود ومحمد بن عبد الوهاب

بدأ الشيخ محمد بن عبد الوهاب دعوته في قرية العيينة فاستمال شيخها عثمان بن معمر ، وكان من شيوخ نجد الأقوياء ، وتمتع بحمايته . لكن شيوخ المناطق المجاورة لم يستسيغوا الشدة والصرامة التي تميزت بها الدعوة فاشتكوا الى شيخ بني خالد سليمان بن محمد آل حميد وهو أقوى شيوخ شرق الجزيرة ، فأمر ابن معمر بطرد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ففعل . وفي رواية أنه أمر بقتله لكن إبن معمر هرّبه .

غادر الشيخ محمد العيينة عام ١٧٤٤ متجهاً الى الدرعية مركز آل سعود ، وهي تبعد عشرين كيلومتراً عن الرياض ، فرحب به شيخها محمد بن سعود . وكانت إمارة آل سعود لا تتعدى بلدتين أو ثلاثاً في وادي حنيفة[١٢] .

قال ابن سعود للشيخ محمد : أبشر بالنصر لك ولما أمرت به ، والجهاد لمن خالف التوحيد ، لكن أريد أن أشترط عليك إثنين :

أولاً : إذا قمنا بنصرتك وفتح الله لنا ولك ، أخشى أن ترحل عنا وتستبدل بنا غيرنا . فعاهده الشيخ أن لا يفعل .

ثانياً : إني أتقاضى من أهل الدرعية مالاً وقت الثمار وأخاف أن تمنع ذلك .

فقال الشيخ : لعل الله يفتح لك الفتوحات ، فيعوضك الله من الغنائم ما هو خير منها .

وعلى هذا تم الاتفاق بين الرجلين[١٣] .

وكعادة آل سعود التي لا يزالون يمارسونها الى اليوم ، توثق التحالف بين الرجلين لما زوج محمد بن سعود ابنه عبد العزيز من إحدى بنات محمد بن عبد الوهاب . ولا يزال العهد بين آل سعود وآل عبد الوهاب مستمراً الى يومنا هذا وان اختلف مضمونه . مع استمرار التزاوج على نطاق واسع .

وبما أن الدعوة الوهابية ترفض التمييز بين الشؤون الدينية والدنيوية ، وبين العمل الديني والسياسي ، فان زعامتها ، أي الامامة ، تعود حكماً الى الحاكم

من آل سعود الذي يجمع بين يديه السلطتين الدينية والسياسية . وتأكيداً لهذا الوضع قال الملك فيصل للمؤلف في إحدى المناسبات إنه إمام قبل أن يكون ملكاً فعبر بذلك عن طبيعة الحكم السعودي في عصرنا هذا .

وعلى هذا كان محمد بن سعود الامام الوهابي الأول .

مراجع الفصل الثاني

نشوء الدولة

١ ـ الزركلي ، خير الدين ، شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز ،ج١ ، ص٣١ـ٣٥ .
٢ ـ المصدر السابق ، ص ٣٥ و٣٦ .
٣ ـ حمزة ، فؤاد ، قلب جزيرة العرب ، ص ١٧٨ ـ ١٨٦ .
٤ ـ أبو علية ، عبد الفتاح ، الاصلاح الاجتماعي ، ص ١١٨ .
٥ ـ حمزة ، فؤاد ، سبق ذكره ، ص ١٠٣ .
٦ ـ المصدر السابق ، ص ١٠٤ ، وعبد الفتاح أبو علية ، الاصلاح الاجتماعي ص ١١٨ .
٧ ـ المصدر السابق ، ص ١٠٤ .
٨ ـ المصدر السابق ، ص ٣٠٠ .
٩ ـ المصدر السابق ، ص ١٠٤ .
١٠ـ المصدر السابق ، ص ١٠٤ .
١١ـ عسه ، أحمد ، معجزة فوق الرمال ، ص ١٢ ـ ١٤ .
١٢ـ المصدر السابق ، ص ١٧ .
١٣ـ أبو علية ، عبد الفتاح ، محاضرات في تاريخ الدولة السعودية الأولى ، ص ١٣ و١٤ .



الأوضاع المحيطة بالدولة الناشئة

يحسن بنا قبل أن نتطرق بشيء من التفصيل الى الحكم السلفي كما مارسه الأئمة الوهابيون ، أن ننظر في أحوال المناطق المحيطة بنجد لما لها من أثر في المسيرة السعودية ، ومن أهمها منطقة الخليج .

فقد كان الخليج ، بصلاته التجارية الواسعة مع الأقطار المجاورة ومع الدول الغربية ، واهتمام الحكومة البريطانية به باعتباره طريقاً للهند ، يشكل النافذة التي احتك من خلالها السعوديون بالقوى الاجنبية وخاصة بالحكومة البريطانية . كما كان الخليج الرئة التجارية التي يتنفس من خلالها أهل نجد لاستيراد ما يحتاجونه من سلع وبضائع لا غنى لهم عنها .

وهكذا بقيت أقنية من الصلات مفتوحة ، رغم الصحاري المحيطة بنجد ، بينها وبين الخليج والعراق والحجاز وبلاد الشام ومصر ، وبالتالي مع الدولة العثمانية صاحبة السيادة على الجزيرة العربية ، ثم امتداداً الى الدول الأوروبية التي كانت لها مصالح في منطقة الخليج .

كما يحسن بنا أن نتطرق بايجاز الى التطور الفكري والعلمي الذي انتجته الحضارة الغربية في الزمن المعاصر لنشوء الحركة الوهابية لنستكشف النواحي التي يلتقيان فيها أو يفترقان .

أهمية الخليج الاقتصادية

بدأ الخليج يكتسب أهمية تجارية عالمية بعد الاكتشافات الجغرافية البرتغالية التي وصلت الى الهند، وسنغافورة وجاوة. وفتحت طرق التجارة بينها وبين أوروبا بعد ما اكتشف فاسكو دي غاما البرتغالي طريق رأس الرجاء الصالح، ووصل الى الهند عام ١٤٩٨، أي بعد أربع سنوات من اكتشاف القارة الاميركية.

بعد ذلك أقام البرتغاليون قواعد لهم على الطريق، للتجارة والتموين، فاحتلوا مسقط، عاصمة سلطنة عمان، سنة ١٥٠٨ وبقيت بحوزتهم الى سنة ١٧٤١ عندما طردهم الشيخ احمد بن سعيد وأسس حكم أسرته الذي ما يزال مستمرا الى يومنا هذا. وكان سلطان مسقط أقوى حاكم في الجزيرة العربية الى منتصف القرن التاسع عشر. ويتبع أهل مسقط المذهب الاباضي.

وكان لأهل مسقط في القرنين الثامن والتاسع عشر، أقوى أسطول بحري في الخليج، لأن تجارتهم كانت تمتد من جزيرة زنجبار الخاضعة لهم، ومن سواحل افريقيا الشرقية، الى مسقط، ثم الى الهند، وجزر أندونيسيا (جاوة وسومطرة) وسنغافورة وغيرها. وما يزال كثيرون من سكان مسقط وتوابعها، مقيمين في تلك البلدان. وكانت مسقط المستودع الرئيسي في الخليج للبضائع الواردة من الهند.

كان العمانيون يجلبون العبيد من سواحل أفريقيا الشرقية ويبيعونهم في أسواق الخليج ونجد، ومنها ينتشر الرقيق الى بغداد، والحجاز، ومصر، وغيرها. كما كانوا يصدرون الرمان والتمر والسمك المجفف، ويستوردون التوابل والأقمشة والأرز والقهوة من الهند واليمن.

بعد أفول نجم البرتغاليين حلت محلهم شركات تجارية هولندية وانكليزية وفرنسية للتجارة مع الهند. وكان مصير هذه الشركات معتمداً على تطور الأحوال السياسية في أوروبا. وبالنهاية سيطر الأسطول الانكليزي على البحار وبقي طريق الهند شبه حكر للسفن البريطانية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

شركة الهند الشرقية الانكليزية

تأسست شركة الهند الشرقية الانكليزية للتجارة مع الهند سنة ١٥٩٩ على

شاكلة شركة الهند الشرقية الهولندية . ومع الوقت اصبح للشركة اسطول حربي يحمي سفنها من غزوات القراصنة في الخليج ، كما كانت تستعين عند الحاجة بأسطول حكومة بومباي . وبقيت الشركة تجارية خاصة الى ان استولت عليها الحكومة الانكليزية سنة ١٨٥٨ .

انصب اهتمام الشركة والحكومة على مسألتين : تأمين البريد المنتظم بين حكومة الهند ولندن ، وحماية التجارة بين البلدين .

وكانت توجد أربعة طرق ممكنة : الطريق البحري حول الرجاء الصالح ، وهو أطول بمدة أربعة أو خمسة اشهر من طريق الهند ـ مخا (اليمن) ـ السويس ـ الاسكندرية ـ مرسيليا .

الطريق الثاني يأتي من بومباي بحرا الى السويس ، ثم برا الى الاسكندرية ، ثم بحرا الى مرسيليا فلندن ، ويدعى طريق البحر الأحمر .

وطريق ثالث يأتي بحرا من الهند الى البصرة ثم برا الى بغداد فالموصل فحلب فسواحل البحر المتوسط ، ومنها بحرا الى مرسيليا فلندن .

وطريق رابع يذهب من البصرة او الكويت الى القصيم ثم الى بلدان نجد الشمالية ومنها الى دمشق وبيروت فأوروبا اذا سمحت الأحوال الأمنية في نجد وبادية الشام .

في وقتنا الحاضر وقد اعتدنا على النقل السريع بالطائرة ، بريدا وركابا وبضائع ، يصعب علينا فهم أهمية مواصلات تلك العصور وبالتالي أهمية الخليج كطريق حيوي بين الهند وأوروبا .

لكن يجب ان نتذكر ان بلادنا والبلاد الاوروبية كانت تعتمد على هذه التجارة للحصول على التوابل والبهارات التي لا غنى عنها في كل بيت . كما كانت تصدر مصنوعاتها بالمقابل .

كانت الهند تصدر التوابل والبهارات والأقمشة والرز والسكر والخشب والحنطة والشعير والقطن والشاي والدخان والفواكه المجففة .

وكان الخليج يصدر بالمقابل اللؤلؤ والخيول والجلود والخضار والتمور ، كما كان يصدر العبيد من أفريقيا الشرقية والحبشة عن طريق مسقط الى عدد من البلاد العربية .

أما انكلترا فكانت تصدر الأقمشة والأسلحة والمصنوعات بأنواعها ، والآلات خصوصا بعد قيام الثورة الصناعية في أوائل القرن التاسع عشر .

وكانت هذه التجارة تأتي أيضا بالبن من اليمن ، والسجاد من ايران ، لمختلف البلدان .

وكانت كل محطة تجارية ، بحرية أم برية ، تشكل سوقاً للبيع والشراء وتدر الأرباح والخير على السكان والتجار . فكانت البصرة الميناء الرئيسي في الخليج ، تقاسمها التجارة الكويت والزبارة في قطر .

وكانت بغداد مركزا آخر شهيرا على طريق القوافل تزود العراق بما يحتاجه ، ومثلها حلب تتوزع منها البضائع الى الأناضول والى مدن سوريا ، ومثلها بيروت .

أما نجد فكانت تستورد وتصدر عن طريق الكويت بالدرجة الأولى ، ثم عن طريق العقير والقطيف . وتستفيد من القوافل التي تتبع الطريق البري الرابع الذي ذكرناه .

المرافىء التجارية

كانت البصرة من دون شك أهم مرفأ تجاري في الخليج الا أن متسلمها (حاكمها) كان أحيانا يستبد بهالطمع فيزيد المكوس على التجار وعلى البضائع الواردة .

ولاقت البصرة منافساً تجارياً لها في بلدان العتوب .

والعتوب ينتمون أصلا الى جماعات عربية انحدرت بمعظمها من الأفلاج بنجد . وكان أول مكان تجمعوا فيه هو مدينة الكويت ، حيث عاشوا زمنا بحماية شيخ بني خالد حتى عام ١٧٥٢ . وكان يعيش في الكويت أيضا عتوب قطر والبحرين . غير أن وفاة الشيخ سليمان آل حميد زعيم بني خالد أتاح الفرصة للعتوب للاستقلال فاختاروا صباح بن جابر شيخاً وكان بذلك أول حاكم للكويت . ولا تزال أسرته تحكم الكويت الى الآن .

في عام ١٧٦٦ أسس العتوب ثاني مراكزهم التجارية في مدينة الزبارة بقطر وكان المؤسسون جماعة من آل خليفة . وفي سنة ١٧٨٢ ـ ٨٣ فتح العتوب البحرين باشتراك آل صباح وآل خليفة .

«على أن جميع المناطق التي نزلت فيها العتوب ، باستثناء البحرين ، كانت تقع ضمن نطاق نفوذ بني خالد[1] وتحت السيادة العثمانية الأسمية .

لا يمكن التأكد من الحدود البرية لأراضي العتوب فيما عدا جزيرة البحرين لأن اهتمامهم اتجه نحو البحر وتجارته ، ولم يكن لهم مطمع بالتوسع في

الصحاري المحيطة بهم . وهم في ذلك يشبهون المدن الفينيقية على شاطيء البحر المتوسط كالتي نشرت مستوطناتها على السواحل للتجارة ولم تلتفت الى البر المحيط بها .

وقد بقي العتوب في أمان ، بظل بني خالد ، الى ان تغلب عليهم آل سعود وفرضوا سيطرتهم على الاحساء وهاجموا الزبارة سنة ١٨٩٨ ، فهدمها أهلها وغادروها الى البحرين . وفيما اعتنق القواسم في رأس الخيمة الى جنوب العتوب المذهب الوهابي ، فان العتوب لم يقبلوه[٢] .

رغم اضطراب الأحوال السياسية ، بسبب الغزوات السعودية فقد استمر ازدهار المرافيء التجارية في الخليج ، ما بقي العالم محتاجاً الى هذا الطريق الحيوي ما بين الهند والعالم الغربي .

وقد زاد في أهمية الخليج ، أن السلطان العثماني ، أصدر فرماناً سنة ١٧٧٩ ، يمنع السفن المسيحية من التعامل مع مدينة السويس ، ومن نقل البضائع اليها ، فهبط التعامل التجاري على خط البحر الأحمر وتعزز استعمال طريق الخليج ورأس الرجاء الصالح . وازداد التبادل التجاري العالمي اتساعا بدخول عصر البخار ، اذ عملت أول سفينة بخارية سنة ١٨٠٧ فاستقل النقل البحري عن اهواء الرياح ، وازدادت حمولة السفن وسرعتها ، وانعكس ذلك بالخير على مرافيء الخليج . واستمر الامر كذلك الى تاريخ افتتاح قنال السويس عام ١٨٦٩ الذي رجح أهمية طريق البحر الأحمر على طريق الخليج ، بالنسبة للتجارة والمواصلات ما بين الهند وأوروبا .

القوى المجاورة

أحاطت بنجد قوى محلية مجاورة ، نخص بالذكر منها الاحساء ، وسلطنة مسقط وعمان ، وباقي مشيخات الخليج ، ودول أبعد عن نجد جغرافياً ، قاومت على الغالب التوسع الوهابي ، وتشمل الدولة العثمانية بولايتيها العراقية والحجازية ، ثم مصر تحت حكم محمد علي باشا ، الذي كانت له مطامع خاصة مع كونه والياً عثمانياً ، وأخيراً الدولة الأجنبية الوحيدة التي تعاطت مع الجزيرة العربية في العصر الذي نبحثه وهي الدولة البريطانية .

وسيقتصر بحثنا هنا على عرض عام تاركين العلاقة التفصيلية لهذه القوى

مع آل سعود الى الفصل الرابع .

أول ما يجب ملاحظته هو أن كل الجزيرة العربية ، ما عدا مسقط ، كانت واقعة تحت السيادة العثمانية ، بالاضافة الى العراق ، وبلاد الشام ومصر وهي الأقطار التي تهمنا في هذا العرض .

ونسارع الى الايضاح لئلا يلتبس الأمر أن مفهوم السيادة العثمانية في ذلك الوقت يختلف عن معناها الذي نعرفه في هذا العصر . فنحن نفهم السيادة ، ما عدا استثناءات قليلة ، بأنها سيطرة الدولة الفعلية على أراضٍ وسكان ، ويشمل ذلك حفظ الأمن وتعيين الموظفين ، وجباية الضرائب ، وتطبيق القوانين .

أما الدولة العثمانية ، فكثيرا ما كانت تكتفي من ولاتها ، خصوصا في الولايات النائية ، بتقديم مبلغ معين من المال سنوياً حسب ثروة البلد وغناه ، دليلا على خضوع الوالي للباب العالي ، وتترك ادارة الولاية ، وطريقة جباية المال من المواطنين ، لتدبير الحاكم . وفي فترات ضعف الدولة ، الذي ينطبق على العهد الذي نعالجه ، كان الطامعون بالحكم من أهل الولاية يتقاتلون فيما بينهم فتعترف الدولة بالذي يتغلب على خصومه ، وكان هذا هو الوضع في مصر والعراق واليمن ، والى درجة أقل في الحجاز .

لنبدأ بأحوال الخليج المؤلف من وحدات قليلة عديدة متشابكة ومتنافرة تحيط بها قوى أكبر تتفاعل معها .

الاحساء

تشكل الاحساء وساحلها وموانيها جزءاً من بلاد الخليج تنازع عليها العثمانيون وولاة العراق ومصر .

كانت الأحساء ، في القرن الثامن عشر ، تخضع لقبائل بني خالد ، وهي قبائل نجدية كبيرة منتشرة على شاطيء الخليج الغربي تحت حكم شيخهم محمد آل حميد ، الذي أنذر عثمان بن معمر شيخ العيينة ، يطرد محمد بن عبد الوهاب من قريته ، لما أساءت تعاليمه الى القرى المجاورة . وكان ذلك من أسباب العداء بين بني خالد وآل سعود بالاضافة الى رغبة هؤلاء بالتوسع ، وأدى ذلك الى سقوط الاحساء في يد الوهابيين عام ١٧٨٥ .

وقد اشتهر شيوخ بني خالد بحسن السيرة والعدل في معاملة الناس وحفظ الأمن وتشجيع التجارة في البر والبحر .

وكانت الاحساء اخصب مناطق نجد ، مشهورة بكثرة مياهها ، وطيب

ثمارها ، وغنى محاصيلها ، وفيها مدن مهمة وموانىء مزدهرة ، مثل القطيف ، والعقير ، وسيحات ، تسير منها القوافل الى نجد ، وبطن الجزيرة ، حاملة السكر ، والأقمشة ، والبهارات من الهند ، والقهوة من مخا باليمن . والاحساء شديدة القرب من البحرين وملاصقة للعراق .

لكن السعوديين ، لم يتركوا الأحساء هادئة . فقد غزاها الامام عبد العزيز ابن محمد سنة ١٧٦٢ ولم ينجح . ورد بنو خالد على ذلك بهجوم على الدرعية عام ١٧٦٤ قاده عرعر بن دجين بن سعدون شيخ بني خالد[٣] .

ثم توالت محاولات الوهابيين لفتح الاحساء ، وانضم اليهم آل مسلم (حكام قطر) وغيرهم من القبائل ، حتى تسنى لهؤلاء القضاء على نفوذ بني خالد سنة ١٧٩٣[٤] ، وقد ساعدهم على ذلك النزاعات العائلية الحادة بين أفراد العائلة الحاكمة في تلك العشيرة .

خلافا لبني خالد الذين حموا التجارة البرية والبحرية ، اقدم عرب القواسم ، سكان رأس الخيمة وجوارها ، على أعمال القرصنة [٥] في الخليج الى ان قضى عليهم الأسطول الانكليزي ، وأجبرهم مع باقي المشيخات على الدخول تحت الحماية البريطانية .

وفي الاحساء نسبة لا بأس بها من السكان ينتمون الى المذهب الشيعي ، والى القرامطة ، خصوصا في القطيف والقرى التي حولها . أما البحرين فأكثر سكانها من الشيعة .

في عهد عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، كانت قبيلة العجمان تسكن الاحساء ، يقول عنها أمين الريحاني[٦] :

«كان العجمان في الماضي يسكنون نجران ، وهم من قبائل اليمن . ثم ارتحلوا شرقا فوصلوا الاحساء أيام الامام تركي بن عبد الله (١٨٢٣-١٨٣٤) فأحسن اليهم وانزلهم ديرة بني خالد المعادين له . ومع أنهم أصغر القبائل عدداً فلا يبلغ عدد المقاتلة فيهم أكثر من خمسة آلاف فقد تفوقوا عليها كلها ونازعوا حتى بني خالد السيادة . يلقبون «الماني العرب» لشدة عصبيتهم وبأسهم وتفانيهم بعضهم في سبيل بعض . اذا سئل أحدهم : أتقبل الخير من الله لنفسك ، يجيب قائلاً : لا أقبل خيراً لا يكون للعجمان كافة . انهم موصوفون بالمكر والغدر ولكنهم شديدو الشكيمة ، وذو عصبية نادرة . عصوا الدولة العثمانية فتركتهم وشأنهم . وكان العجماني يسلب جندي الدولة فرسه ويدخل الاحساء لينعلها .

عصوا كذلك الشيخ مبارك الصباح فحاربهم ثم استرضاهم ولم يتمكن من

كبح جماحهم ولا من كسب ولائهم . وتراوحت علاقتهم مع الامام عبد العزيز آل سعود بين الموالاة والمخاصمة» .

مسقط وعمان

استولى الامام احمد بن سعيد على مسقط عام ١٧٤٠ ، وهو من أحفاد الأئمة اليمنيين الاباضيين الذين وطدوا القوة العربية في جزيرة زنجيبار وعلى شواطيء افريقيا الشرقية . واستمر آل سعيد حكاماً لجزيرة زنجيبار الى منتصف العقد السادس من هذا القرن ، عندما ثار عليهم السود وضموا الجزيرة لتانكنيكا فأصبح اسم الدولة الجديدة تانزانيا . كما استمر آل سعيد حكاما على مسقط وعمان الى يومنا هذا ، فهم بذلك أعرق عائلة حاكمة قائمة في الجزيرة العربية .

تصادم الامام احمد مع القواسم الذين كانوا يحتلون سواحل عمان وغيرها وتغلب عليهم . فقد كان اسطول عمان يضاهي أسطول القواسم . واعترفت جميع مدن الساحل بسلطته عدا مدينة رأس الخيمة التي عقدت معه صلحا سنة ١٧٦٣ دام عشرين عاماً[٧] .

اما الساحل الشرقي الفارسي من الخليج فكانت تسكنه قبائل عربية من عرب بوشهر والهولة والمطاريش .

وتمتع سلاطين مسقط بمساندة بريطانيا المستمرة .

وقد تعرضت عمان لهجمات سعودية متكررة ، اعتبارا من مطلع القرن التاسع عشر ، وتمكن آل سعود من فرض سيطرتهم على البريمي وسواحل عمان في فترات مختلفة ، وأجبروا حكامها على دفع الاتاوة ، ولكنهم لم يستطيعوا التغلب على مقاومة الاباضيين ، وبقيت مسقط مستقلة . وقد وقع سلطان مسقط معاهدة مع الانكليز عام ١٧٩٨ ، وعززها سنة ١٨٠٠ ، حين حصل الانكليز على حق انشاء وكالة تجارية في بندر عباس على شاطيء الخليج الشرقي التي كانت تابعة لسلطان مسقط ، وعلى الاحتفاظ فيها بسبعمائة جندي لحماية الملاحة ، وعلى اقامة ممثل انكليزي في مسقط مع وعد من السلطان بعدم التعامل مع الدول المنافسة لانكلترا[٨] .

فارس

كانت أحوال الدولة الفارسية في إضطراب شديد الى ان وحدها نادر شاه عام ١٧٢٦ ، لكن فارس لم تتمكن يوماً من انشاء أسطول قوي في الخليج بل

كانت تستخدم أساطيل أتباعها العرب . وكانت الأحوال العدائية قائمة بين الفرس والعثمانيين في العراق يتبادلون الغزوات من حين لآخر . وكان أثر فارس في الخليج ضعيفاً في الفترة التي نعالجها باستثناء احتلالهم للبصرة خلال عامي ١٧٧٦ و١٧٧٧ .

البحرين

البحرين درة الخليج ، ومحط انظار الطامعين نظراً لغناها باللؤلؤ . وقد حكمها الفرس مدة طويلة ثم تبادل السيطرة عليها في مطلع القرن الثامن عشر سلطان مسقط وعرب الهولة . ثم احتلها عرب المطاريش من أتباع نادر شاه الى ان انتزعها منهم العتوب سنة ١٧٨٢ ، فقضوا على نفوذ عرب بوشهر فيها ، وبالتالي على النفوذ الفارسي .

وكان سكان البحرين في منتصف القرن الثامن عشر نحو ستين الفا ، ثلثهم عرب سنة والباقون شيعة يرتبطون بالمذهب مع أهل القطيف وسيهات وتاروت والمناطق الشرقية والشرقية في الاحساء .

والجدير بالملاحظة أن حكام البحرين من آل خليفة يتبعون المذهب السني خلافا لأغلبية السكان . وكانت لهم املاك كثيرة في القطيف وسيهات والمناطق المطلة على جزر البحرين(٩) .

لم تستطع البحرين مقاومة آل سعود طويلا فقد احتلها الامام سعود بن عبد العزيز سنة ١٨٠٠ فانتقل آل خليفة الى الزبارة في قطر التي كانت تخضع لهم .

قطر

تولى الحكم في قطر الشيخ قاسم بن ثاني من عام ١٨٧٨ ـ ١٩١٢ فعمل على تحريرها من آل خليفة واستقل بحكمها . ولما تولى الامام فيصل بن تركي الحكم في الرياض عام ١٨٤٣ ضم قطر اليه وبقي شيوخها موالين لآل سعود .

وكان الشيخ قاسم على عداء مع الأتراك في الاحساء فحاربهم وتغلب عليهم في بعض المعارك لكنه لم يستطع اخراجهم(١٠) . وكان سندا للسعوديين في محاولاتهم للسيطرة على تلك المنطقة .

العراق

لم تكن أحوال العراق أكثر استقرارا من أحوال فارس ، بعد هدم بغداد على يد المغول عام ١٢٥٨ . وقد احتل العثمانيون كركوك وبغداد من الفرس سنة

١٥٣٤ . أما البصرة فبقيت بيد الفرس الى سنة ١٥٤٦ . وفرض العثمانيون على العراق الخراج لكنهم تركوه لولاة محليين يتنازعون السلطة فيما بينهم فساءت أحوال البلاد الأمنية والاقتصادية واكتفت الحكومة العثمانية من الوالي بالحصول على العائدات السنوية المقررة .

تركزت سلطة الولاية نظريا في يد والي بغداد الذي نادراً ما استطاع توطيد حكمه لانشغاله الدائم بالاقتتال وبالتغلب على الفتن الداخلية التي تطمع بمنصب الولاية .

وكانت البصرة على رأس الخليج مستقلة عمليا عن بغداد ، لكن متسلمها (حاكمها) لم يكن يستطيع الدفاع عنها من دون مساعدة القبائل المحيطة بها وأشهرها قبيلة المنتفق وشيوخها من آل السعدون .

بقيت البصرة الى حين افتتاح قنال السويس عام ١٨٦٩ أهم المراكز للتجارة بين الهند والشرق الأوسط وأوروبا ، وتركزت فيها مكاتب الشركات الأوروبية ومنها كانت تتوزع البضائع على مدن العراق ، وتسير القوافل الى حلب والأناضول وسوريا وشواطيء المتوسط الى أوروبا . ولم يتعطل دورها الا سنة ١٧٧٦ عندما احتلها الفرس لمدة عامين فانتقلت التجارة ومراكز الشركات الى الكويت والزبارة ثم عادت اليها بعد جلاء الفرس . لكن الكويت بقيت الميناء الأول في الخليج بالنسبة للبلاد النجدية .

بدأ العثمانيون يفرضون سلطتهم المباشرة في العراق منذ ١٨٣١ ، وقضوا على الفوضى السائدة فيه لما عينوا باشا والياً (١٨٦٩ ـ ١٨٧٢) فأجرى اصلاحات ادارية واصلح نظام الاراضي وعين متصرفا على البصرة واكد السيادة العثمانية على الاحساء واعتبر الامام عبد الله بن فيصل قائمقاماً سعودياً وكذلك شيخ الكويت فوضعهما في مرتبة واحدة .

الكويت

لعبت الكويت دوراً سياسياً بارزاً في حياة المنطقة منذ أواخر القرن التاسع عشر يفوق كثيرا ما يؤهله لها عدد سكانها ومساحتها . ويرجع الفضل في ذلك الى موقعها الجغرافي وكفاءة بعض حكامها . فالكويت هي مفتاح ما بين النهرين ووسط بلاد العرب ، والمدينة الوحيدة بين شط العرب ومضيق هرمز التي كانت تتوفر لها الطرق الصالحة ، فأصبحت لذلك الثغر التجاري للمناطق الداخلية الذي تمر عبره صادراتها ووارداتها ، وسوق الصحراء الذي يفد اليه الأعراب لبيع مواشيهم وشراء الأغذية والأسلحة ، مما أثار طمع الزعماء الأقوياء

في المنطقة ، خاصة من حُرم منهم من المنفذ البحري الذي يصله بالعالم الخارجي[11] . وكان على الكويتيين أن يحافظوا على استقلالهم بمحالفات متقلبة يقيمونها مع القوى الداخلية في نجد مستعينين ببعضها على البعض الآخر ، ومع دول خارجية تحميهم .

توالى على الكويت منذ نشأتها :

١ ـ صباح بن جابر الذي تنتسب اليه العائلة الحاكمة (حوالي ١٧٥٢ ـ ١٧٦٢) .

٢ ـ عبد الله (الأول) ابن صباح (١٧٦٢ ـ ١٨١٥) .

٣ ـ جابر (الأول) ابن عبد الله الصباح (١٨١٥ ـ ١٨٥٩) .

٤ ـ صباح (الثاني) ابن جابر (الأول) (١٨٥٩ ـ ١٨٦٦) .

٥ ـ عبد الله (الثاني) ابن صباح (الثاني) (١٨٦٦ ـ ١٨٩٢) .

٦ ـ محمد ابن صباح (الثاني) اخو عبد الله (١٨٩٢ ـ ١٨٩٥) .

٧ ـ مبارك ابن صباح(الثاني) تولى الحكم بعد مقتل أخويه محمد وجراح (١٨٩٥ـ ١٩١٥) .

٨ ـ جابر (الثاني) ابن مبارك الصباح (١٩١٥ ـ ١٩١٧) .

٩ ـ سالم بن مبارك تولى الحكم بعد وفاة اخيه جابر (١٩١٧ ـ ١٩٢١) .

١٠ـ احمد بن جابر (الثاني) تولى الحكم بعد وفاة سالم (١٩٢١ ـ ١٩٥٠) .

١١ـ عبد الله السالم الصباح (١٩٥٠ـ ١٩٦٥) .

١٢ـ صباح السالم الصباح (١٩٦٥ـ ١٩٧٧) .

١٣ـ جابر بن احمد بن جابر (الثاني) الصباح وهو يحكم حاليا منذ ١٩٧٧ .

في المرحلة الممتدة من منتصف القرن الثامن عشر الى عام ١٨٨٧ كان على الكويت وحكامها أن يجابهوا قوى تتربص بهم طمعاً بثروتهم التجارية ومنتوجهم من اللؤلؤ . وأهم هذه القوى ، بعد زوال حماية بني خالد ، كانت آل سعود ، وآل الرشيد في جبل شمر ، وقبائل المنتفق المقيمة حول البصرة ، والعثمانيون في العراق الذين كانوا يحاولون تمكين سيادتهم على الكويت ، اما مباشرة او بواسطة قبائل المنتفق .

وكانت علاقات الكويت على توتر دائم مع آل سعود . ومع امتداد النفوذ الوهابي الذي شمل المناطق من حدود البصرة الى أراضي القواسم في الجنوب ، دفع شيخ الكويت جابر الصباح (١٨١٥ـ ١٨٥٩) الزكاة للامام تركي بن عبد العزيز دليلا على الطاعة . وكانت الكويت في الوقت نفسه تحت

السيادة العثمانية[١٢] وتتمتع بحماية بريطانية غير رسمية .

ولم يكن آل رشيد شيوخ شمر أقل طمعاً في الكويت من آل سعود . فكانت غزواتهم للكويت متكررة . وتأزم الوضع أكثر خلال ولاية الشيخ مبارك (١٨٩٥) . فقد خلف محمد الصباح أخاه عبد الله عام ١٨٩٢ وحكم بالاشتراك مع اخيه الجراح . واختلف الاخوان مع اخيهم الثالث مبارك ، فأبعداه عن منافع الحكم وضيقوا عليه ، وقربوا صهرهم يوسف آل ابراهيم الذي أصبح وكأنه الحاكم الفعلي للكويت ، فشدد خصومته لمبارك . وفي ليل من شهر مايو ١٨٩٦ هاجم مبارك واولاده اخويه وقتلهما وتولى حكم الكويت واصبح الحاكم السابع .

وهرب اولاد اخويه ، كما هرب يوسف آل ابراهيم والتجأ أولا الى البصرة ، ثم الى آل رشيد في حائل ، يحرضهم على غزو الكويت[١٣] .

وفيما يلي بعض الغزوات التي تعرضت لها الكويت من جهات طامعة مختلفة ، ما بين ١٧٩٣ الى حين استعادة عبد العزيز آل سعود الرياض عام ١٩٠٢ . اما علاقة الكويت مع جيرانها بعد ذلك التاريخ فسنفصله في فصل مقبل لأنه يدخل في تاريخ عهد الملك عبد العزيز آل سعود :

- عام ١٧٩٣ و١٧٨٦ غزا الكويت القائد السعودي ابن عفيصان .
- في عهد جابر الأول (١٨١٥- ١٨٥٩) غزا الكويت بندر السعدون شيخ قبائل المنتفق[١٤] .
- عام ١٨٧٢ أغار الامام سعود على الكويت[١٥] .
- عام ١٨٧٧ غزاها محمد الرشيد .
- خلال ١٩٠٠ جرت غزوات متبادلة بين الشيخ مبارك وعبد العزيز الرشيد .
- عام ١٩٠١ هاجم الشيخ مبارك بن رشيد متحالفا مع عبد الرحمن عبد العزيز آل سعود ومع سعدون السعدون شيخ المنتفق . فانتصر ابن رشيد عليهم وكبدهم خسائر فادحة[١٦] وعرفت بموقعة الصريف .
- رد عبد العزيز الرشيد في العام نفسه على هذه الغزوة بهجوم على الكويت ونهب عربانها .
- في ذلك العام هدد العثمانيون باخضاع الكويت لسيادتهم ثم تراجعوا بتدخل بريطانيا . واضطر الشيخ مبارك الى اعلان معاهدة الحماية مع بريطانيا[١٧] . لكن العثمانيين أقاموا نقطة عسكرية في جزيرة بوبيان المتحكمة بالمدخل الى شط العرب ورفضوا الانسحاب منها .

معاهدة الحماية ، يناير ١٨٩٩

يقول السيد عبد العزيز الرشيد ان هذه المعاهدة بقيت سرية لم تنشر على أهل الكويت الا ان الناس كانوا يتداولون بنودها التالية[١٨] :

١ـ بقاء الحكم في عائلة مبارك من آل الصباح .
٢ـ لا بيع ولا تأجير أراضي الا بموافقة بريطانيا .
٣ـ حماية الكويت من أي اعتداء خارجي .
٤ـ أن تكون الكويت صديقة لاصدقاء بريطانيا وعدوة لاعدائها .
٥ـ ليس للانكليز التدخل في شؤون الحكم الداخلية .
٦ـ لا تكون الكويت مصدراً لبيع السلاح أو نقله الى الخارج .

تحقق لبريطانيا بموجب هذه الاتفاقية إبعاد خطر وصول الالمان الى الخليج عن طريق سكة حديد برلين ـ بغداد ، كما أبعدت خطر التسرب الروسي اليه عن طريق المحطة البحرية التي كانوا يتفشون عن موقع في الخليج لاقامتها .

اما الكويت فقد ضمنت سلامتها من أي اعتداء محلي عثماني اوشمري او سعودي ، أودولي . لكن السلطان عبد الحميد بقي متمسكا بالسيادة على الكويت وأبلغ ذلك للحكومة البريطانية .

دور العثمانيين في الخليج

بلغ العثمانيون أوج انتشارهم في أوروبا في حصارهم الثاني لفيينا عاصمة الامبراطورية النمساوية عام ١٦٨٣ ، في وقت قريب من الزمن موضوع بحثنا . وقد ارتدّوا عن فيينا خائبين ثم انسحبوا من هنغاريا فبدأ انحسارهم العسكري عن أوروبا والبلقان ، الذي استمر قرنين من الزمن . وكان العثمانيون قبل ذلك قد خسروا قوتهم البحرية في المتوسط بمعركة ليبانتو (اكتوبر ١٥٧١) التي انتصرت فيها عليهم اساطيل البندقية واسبانيا والبابا انتصاراً حاسماً .

على أثر فشل حصار فيينا ، انضمت هنغاريا الى النمسا تحت عرش هابسبورغ فتشكلت الامبراطورية النمسوية ـ الهنغارية واعترف العثمانيون بالوضع الجديد في معاهدة عقدوها عام ١٦٩٩ .

من ناحية أخرى لاقى العثمانيون المصاعب ، من جارهم الروسي في

الشمال ، في حروب استمرت طيلة القرنين الثامن والتاسع عشر تمكن الروس بنتيجتها من الوصول الى البحر الاسود وحرروا دولة التتار في شبه جزيرة القرم واجلوا العثمانيين عنها في معاهدة كوتشوك قاينارجي عام ١٧٧٤ ثم ضموا القرم الى الممتلكات الروسية عام ١٧٨٣ . وفي المعاهدة ذاتها حصل الروس على حق حماية المسيحيين الارثوذكس في الدولة العثمانية .

حملة نابوليون ١٧٩٨

شاركت فرنسا في مساعي تصفية الامبراطورية العثمانية في حوض البحر المتوسط . فجرد نابليون بونابارت حملة على مصر عام ١٧٩٨ فتغلب على حكامها المماليك في موقعة الاهرام قرب الاسكندرية وفر هؤلاء الى صعيد مصر .

لم ترض بريطانيا عن نفوذ روسيا والدولة النمسوية ـ الهنغارية وفرنسا في الشرق ، فعملت على تطويقه وتصدت عسكريا للوجود الفرنسي في مصر ، فأغرق الاميرال نلسون الاسطول الفرنسي في معركة ابو قير عام ١٧٩٨ واضطرت فرنسا الى اخلاء مصر عام ١٨٠١ لكن نفوذها الثقافي استمر ، كما اقتبس محمد علي باشا والي مصر الجديد انظمتها العسكرية والادارية وبقي بعض ضباطها يعملون في جيش محمد علي وابنه ابراهيم في مراتب كبيرة .

تتابعت الخسائر العثمانية . فقد اشتبك الاسطول العثماني يؤازره الاسطول المصري في معركة نافارينو البحرية (ميناء في اليونان) مع الأساطيل البريطانية والفرنسية بتاريخ ٢٠ اكتوبر ١٨٢٧ فتدمر الاسطولان العثماني والمصري وتحررت اليونان عام ١٨٣٢ وصار البلقان كله موضع تنازع بين الامبراطوريات الثلاث العثمانية والروسية والنمسوية ـ الهنغارية .

ونشأ عن هذه الاوضاع العثمانية المضطربة ما عرف في التاريخ باسم «المسألة الشرقية» و«مسألة رجل اوروبا المريض» أي المملكة العثمانية . واستعمل تعبير «المسألة الشرقية» ليصف المشكلة الدولية الناتجة عن حالة الفوضى ضمن الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر المتأتية من خطر الانحلال الداخلي في ولاياتها الأوروبية المطالبة بالتحرر والاستقلال ، وليعالج أحوال السكان المسيحيين المقيمين في الولايات العثمانية المشرقية الذين ادعت حمايتهم بعض دول اوروبا ، وخاصة روسيا وفرنسا .

شعرت الدولة العثمانية بالحاجة الى اصلاح أوضاعها الداخلية المتدنية

فدشن السلطان عبد الحميد ما عرف «بعهد التنظيمات» وأصدر في نوفمبر ١٨٣٩ «خط شريف كولخانة» تضمن اصلاحات سياسية ومالية وادارية .

وتبع ذلك في عام ١٨٧٦ اصدار دستور ينص على انشاء مجلس نيابي وتوسيع الحريات الفردية لكنه لم يعمّر طويلا .

ونشبت حرب جديدة مع روسيا عام ١٨٧٧ - ١٨٧٨ خسرتها الدولة العثمانية وانعقد على اثرها مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ لتصفية آثارها فقضى بتحرير اجزاء واسعة من الأراضي الأوروبية التي كانت تحت السيطرة العثمانية .

وتلا ذلك ثورة في ارمينيا عام ١٨٩٥ - ١٨٩٦ ، وثورة في جزيرة كريت عام ١٨٩٧ أدت الى نشوب حرب مع اليونان .

تسببت هذه الهزائم العسكرية بازدياد النقمة على السلطان وطريقة حكمه فقام بعض ضباط الجيش بانقلاب عام ١٩٠٨ وعزلوا السلطان عبد الحميد الثاني وبايعوا اخاه محمداً الخامس عام ١٩٠٩ وأعادوا العمل بدستور عام ١٨٧٦ وعرفوا باسم «جمعية الاتحاد والترقي» وكانت نزعتهم عنصرية تركية متطرفة ، مع ان الدولة العثمانية مؤلفة من شعوب وعناصر شتى لا يشكل الاتراك الأكثرية فيها .

تسبب هذا التطرف العنصري ببروز روح عربية استقلالية اتخذت اتجاهين : اتجاهاً اصلاحياً يدعو الى اللامركزية مع المحافظة على وحدة الدولة العثمانية ، واتجاهاً آخر يدعو الى استقلال العرب والانفصال عن الاتراك في دولة عربية . وقاد هذا الاتجاه الثاني ضباط عرب في الجيش التركي ألفوا جمعيات سرية منها «جمعية العهد» و«العربية الفتاة» كانوا بعدئذ عماد الثورة العربية الكبرى التي قادها الشريف حسين .

وقد عبر عن الروح العربية الجديدة زعماء عرب من العراق وسوريا ولبنان وفلسطين ومصر عقدوا مؤتمرا في باريس عام ١٩١٣ أعلنوا فيهم مطالبهم .

لم تنجح جمعية الاتحاد والترقي التي تسببت بتنفير العرب من الدولة العثمانية ، وهم أكثرية سكانها ، بتلافي الانهزامات العسكرية . فقد احتلت ايطاليا طرابلس الغرب وبرقة عام ١٩١١ ، ونشبت الحرب البلقانية عام ١٩١٢ حين احتلت اليونان اجزاء كبرى من مقدونيا ، وحررت جزيرة كريت ، كما تحررت بلغاريا وبوسنيا والهرسك (في يوغوسلافيا الحالية) من حكم العثمانيين .

ولعل أكبر خطأ ارتكبه الاتحاديون أنهم تخلوا عن صداقة بريطانيا وربطوا مصيرهم بالدولة الالمانية مع أن بريطانيا كانت الدولة الأوروبية الوحيدة التي سعت طيلة القرنين التاسع عشر واوائل القرن العشرين الى المحافظة على

تماسك الدولة العثمانية في وجه الطامعين بتفكيكها كروسيا والنمسا . وبقيت بريطانيا متمسكة بهذه السياسة لجميع الولايات العثمانية حتى في الجزيرة العربية كما سنرى حيث اعترفت دوماً بالسيادة العثمانية عليها ما بقي طريق الخليج آمناً ومحمياتها غير معرضة للخطر .

نعود الى أوضاع الخليج والجزيرة العربية .

لا شك أن الهزائم العسكرية المتلاحقة في أوروبا ، والفساد المستشري في ادارات الدولة العثمانية ، وتفكك الولايات النائية عن السلطة المركزية ، افقد الدولة القدرة على التصرف بحزم ، وقد تجلى ذلك في معالجتها لشؤ ون بلاد الجزيرة العربية وللدعوة الوهابية .

بدأت الدولة العثمانية تشعر بخطر الامتداد السعودي في الخليج ، في أواخر القرن الثامن عشر ، فحركت ضدهم علي باشا والي بغداد وثويني ابن سعدون شيخ عشيرة المنتفق ، وهي أقوى عشيرة عربية تنزل في نواحي البصرة ، وكانت على عداء مع آل سعود . فسار ثويني للقتال عام ١٧٨٧ ثم عام ١٧٩٦ ، في حملته الثانية التي اغتيل فيها بتحريض من السعوديين .

بعد سنتين جهز والي بغداد حملة كبيرة فتقدم الفرسان عن طريق البر قاصدين الاحساء ، اما المشاة والمدفعية والذخائر فحملتها السفن الى البحرين والكويت ، وكان حكام البلدين مناصرين للحملة . لكنها فشلت وعادت الى بلادها[١٩] .

خلال ذلك كان السعوديون قد ثبتوا أقدامهم في الاحساء واحتلوا قطر عام ١٧٩٥ ، وهاجموا الزبارة ١٨٩٨ ، فهجر العتوب مدينتهم والتجأوا بكاملهم الى البحرين . وتابع السعوديون هجماتهم على القطيف وعقير ، وهما منفذ تجارة الخليج الى نجد ، فانتقلت تجارة البلدين الى مرافىء أخرى ، كما فر كثير ون من أهل الاحساء الى البصرة وبغداد ، مستنجدين بواليها ، في حين كان السعوديون يهددون البصرة .

اشتدت الحملات السعودية على العراق ما بين ١٨٠١ و١٨١٠ وكانت موجهة على الاخص الى مدن السماوة وسوق الشيوخ والبصرة وكربلاء والنجف . وأهم هذه الغزوات احتلال كربلاء عام ١٨٠٢ كما سيأتي تفصيله .

لم تستطع الدولة العثمانية مقاومة التوسع السعودي عن طريق والي العراق فالتجأت الى واليها في مصر محمد علي باشا والحّت عليه بضرورة التصدي للسعوديين في الحجاز ونجد والاحساء .

الدور المصري في الخليج

ينقسم التـدخـل المصري الى مرحلتين : المرحلة الاولى بدأت عام ١٨١١ وانتهت بسقوط الدرعية والقضاء على الدولة السعودية الاولى . في هذه المرحلة كان محمد علي باشا يعمل كوال عثماني ولمصلحة الدولة العثمانية . أما في المرحلة الثانيـة التي بدأت عام ١٩٣٦ وانتهت بمعـاهـدة لندن عام ١٩٤٠ ، فقد كان محمـد علي باشـا يعمل لتأسيس دولة عربية كبرى تشمل الشمال العربي بكامله إضافة للجزيرة العربية ومصر والسودان يتولى حكمها مستقلا عن السلطة العثمانية .

المرحلة الاولى

تردد محمـد علي باشـا بالاستجابة لطلب السلطان العثماني لقلقه من المماليك الـذين أعـادوا الفوضى الى البلاد بعد انسحاب القوات الفرنسية . وكان علماء القاهرة قد انتخبوه والياً عام ١٨٠٥ ليعيد الأمن الى البلاد .

وأخـيراً استجـاب لرغبـة السلطـان فجهـز حملة عام ١٨١١ ولّى عليهـا ابنه طوسـون . وأقـام حفلة في القلعـة بمناسبة مغادرة الحملة دعا اليها كبار المماليك وهنـاك فتـك بهم جميعـاً واتبعهم بمن كانـوا في الأقـاليم ، فانتهى بذلـك عهد المماليك في مصر .

بعـد نكسـات وانتصـارات سيأتي تفصيلها احتلت القوات المصرية الحجاز ونجد ودخلت الدرعية عاصمة آل سعود عام ١٨١٨ ودمرتها ، ثم استولت على الاحسـاء وسلمت الحكم لبني خالـد اعـداء آل سعود . لكن حكم المصريين لم يدم طويـلا اذ قام الامـام تركي بن عبـد الله واعـاد النفـوذ السعـودي بحلول ١٨٢٤ . ولم يأت عام ١٨٣٣ حتى كان شرق الجزيرة بكامله يخضع لتركي وابنه فيصل .

المرحلة الثانية

بعد ثمانية عشر عاماً من تدمير الدرعية ، أي في عام ١٨٣٦ زحف محمد علي باشا ثانية على الجزيرة العربية ، ليس لحساب السلطان العثماني ، بل لتأسيس مجد ودولـة خاصـة به . وكـان قد استـولى على بلاد الشـام بكـاملهـا ، وعلى السودان ، وعلى قسم من الاناضول ، وصار يطمح الى ضم العراق والجزيرة

العربية .

كان محمــد علي مدركاً أنـه لن يستقـر له أمـر في الحجـاز أو غيره من اجـزاء الجـزيـرة ، ما دام حكم السعـوديـين مستمـرا في نجـد والاحساء فعزز قواته في الحجاز ثم زحف الى الـرياض فاحتلها سنة ١٨٣٧ واعاد الامامة الوهابية الى فرع سعود الكبير بتعيينه خالد بن سعود إماماً .

احتلت القـوات المصـريـة الاحسـاء بقيـادة خورشيد باشا وكان معنى ذلك تعاملها مع النفوذ البريطاني المتنامي في الخليج . وعين خورشيد وكيلا في واحة الـبريمي ليثبت السلطـة المصـريـة في ساحـل عمان على اعتبار انه يمثل الامام خالد وريث الدولة السعودية .

وقفت بريطانيا ضد هذا التوسع المصري ، الذي شمل بلاد الشام بكاملها منـذ عام ١٨٣١ ، ثم امتـد الى اسيـا الصغـرى ، فأوغـل في الاناضول حتى وصلت القوت المصرية الى مدينة كوتاهية وأصبحت تهدد اسطنبول العاصمة ، وخضعت لها الجـزيـرة العـربيـة ، ومعظم أراضي السودان . وتطلع محمد علي باشا الى احتلال العراق .

شعرت بريطانيا ان مصالحها التجارية ومواصلاتها البحرية تتهدد ، اذ تمكن المصـريـون من الاستيـلاء على مصب دجلة والفـرات . كما خشيت أن يتصل محمد علي باشا بالروس عن طريق شمال العراق بعدما استولى على دير الزور في شمال شرق سوريـا على نهر الفـرات ، فتـدخـل بذلك دولة كبرى جديدة الى المنطقة ، منافسة لبريطانيا .

مؤتمر لندن

ردت الحكـومـة الانكليـزيـة على ذلك باجراءات حاسمة . فانذرت شيوخ المحميـات في الخليـج بعدم التعاون مع القوات المصرية . ثم احتلت عدن عام ١٨٣٩ ، فوضعت مواصـلات مصـر البحـريـة مع جيشهـا في الاحسـاء تحت رحمتهـا . ثم اقنعت الـدول الاوروبيـة بأن بقـاء دولـة عثمانية ضعيفة ، أفضل لمصـالـح الاوروبيـين ، من قيام دولة فتية توسعية مكانها . وهكذا عقد في شهر يونيـو ١٨٤٠ مؤتمـر دولي عرف باسم «مـؤتمـر لنـدن» ضم الحكـومات العثمانية والانكليـزيـة والـروسية والنمسـوية والبروسية وقاطعته الحكومة الفرنسية لأنها كانت مؤيدة لمحمد علي باشا .

قرر المؤتمرون الابقاء على الدولة العثمانية موحدة ، وحرمان محمد علي باشا من انتصـاراتـه ، واعـادة الاقطـار التي استـولى عليهـا الى السلطة العثمانية ،

واعادة مصر نفسها الى السيادة العثمانية ، على أن تبقى تحت حكم محمد علي وسلالته .

على أثـر ذلـك أمر محمد علي قواته في الجزيرة العربية بالانسحاب ، وبذلك انتهى التدخل المصري في شؤونها وعادت أمورها الى رؤسائها المحليين في اطار السيادة العثمانية الاسمية .

دور الانكليز في الخليج

ان اهتـمام الـدولة البريطانية بالخليج في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، كان ينصب على ضمان سلامة مواصلات الهند مع انكلترا ، فيما يتعلق بالبريد وبـالتجـارة ، وتأمـين وصول بضائع شركة الهند الشرقية الانكليزية الى موانىء الخليج لتتوزع منها في اقطار الشرق ا لادنى الى الجزيرة العربية وايران وسوريا والعـراق ومنهـا الى اوروبا . وهذان الهدفان يقتضيان من حكومة انكلترا تأمين سلامة السفن والقضاء على القرصنة على طريق ا لهند وفي الخليج . وفي وقت لاحق اهتمت بريطانيا بمنع تجارة الرقيق عبر الخليج .

في القـرن التـاسـع عشـر لم توجـد دولـة خارجيـة أخـرى تنافس بريطانيا في المنطقـة ، اذا استثنينـا احتـلال جيوش محمد علي باشا والي مصر للاحساء لفترة قصـيرة . امـا القـوى الأخرى وهي الفرس والعثمانيون فقد انشغلوا عن ممارسة نفـوذ فاعـل في ا لمنطقة بسبب ارتباكات داخلية وخارجية في بلادهم . واستطاع الانكليـز ان يحدّوا من محاولات الالمـان والـروس لاقـامة قواعد لهم في الخليج ، بحيث تفردوا لدرجة كبيرة بمعالجة أوضاع المشيخات القائمة على شاطئه الغربي .

وبـما أن اهتـمام الانكليـز كان منصباً على تأمين حرية الملاحة والقضاء على القـرصنـة فقـد تجنبـوا الاحتكـاك مبـاشرة بالقوات السعودية الناشئة . وعندما تصـدى الانكليـز للقـواسم الذين كانوا يهاجمون السفن التجارية ، وهم حلفاء السعـوديـين ، كانت تعليـمات الحكـومـة الانكليزية في الهند تحظر على الحملة الانكليـزيـة «القيام بأي نوع من العمليات الحربية البرية ضد الوهابيين وأن لا تظهـر لهم أي نوع من العـداء ، كما عليهـا أن تتجـاهـل الصـلات القائمة بين الوهابيين والقواسم وأن تعامل هؤلاء كقوة مستقلة[٢٠]» .

بقيت هذه السيـاسـة الـبريطانية التي تتجنب التورط في النزاعات الداخلية

ضمن الجزيرة العربية قائمة طوال القرن التاسع عشر والى بداية الحرب العالمية الاولى . بعدما فرضت حمايتها على سائر مشيخات الخليج ، وان بقيت تتخذ موقف الحذر من الدولة السعودية ، التي تتطلع للسيطرة على المشيخات المحمية . لذلك لم يحصل احتكاك بين الدولتين البريطانية والسعودية ، الا عندما كان الوهابيون يحاولون غزو احدى المحميات ، فكانت القوة البريطانية تردهم . لكن بريطانيا لم تمانع في أن يستوفي الوهابيون الخراج من ساحل عمان ، ومن قطر ، والبحرين ، والكويت ، في فترات مختلفة ، وهم تحت حمايتها ، بحيث نشأت حالة غريبة في وضع الخليج الدولي ، اذ كانت أقطاره تخضع عملياً وفي فترات متقطعة لثلاث سيادات مختلفة في وقت واحد هي السيادة العثمانية التي تشمل الجزيرة العربية ، وسيادة الوهابيين الذين يتقاضون الخراج ثم يدفعون بدورهم للحكومة العثمانية ، وسيادة بريطانيا المتمثلة بمعاهدات الحماية ، علماً بأن شيوخ الخليج ، وهم نظريا تحت السيادة العثمانية ، لم يكونوا يملكون الحق الشرعي بعقد معاهدات مع دولة أجنبية .

معاهدات الحماية

سنستعرض بايجاز فيما يلي مراحل فرض الحماية البريطانية .

كان الخطر الذي يتهدد سلامة الملاحة بين الهند والخليج يتمثل في أسطول القواسم ، أهل رأس الخيمة وتوابعها ، المتحالفين مع السعوديين ، بعدما قبلوا الدعوة الوهابية في أوائل القرن التاسع عشر . وكان الوهابيون يرون في غزو غير المسلمين امرا مشروعا بل جهاداً واجباً .

تصدى الانكليز للقواسم عام ١٨٠٦ واجبروهم على توقيع معاهدة للسلم البحري ، ما لبثت ان نقضت فجرد الانكليز حملة بحرية وبرية على رأس الخيمة وعلى الموانىء التابعة لها تميزت بالعنف والتدمير . لكن القوات الانكليزية انسحبت تفاديا للتصادم مع قوات وهابية قادمة .

بين عام ١٨١٠ و١٨١٩ وسّع القواسم هجماتهم واستهدفوا سفن شركة الهند الشرقية وسفن مسقط والهند . ووصلت غزواتهم عام ١٨١٥ الى ساحل السند ، حيث استولوا على ستة مراكب هندية ، كما هاجموا ساحل بومباي وديو[٢١] وهاجموا أيضاً الشواطيء الايرانية .

بقي الانكليز ينتظرون الفرصة المناسبة لاخضاع القواسم نهائياً . وتسنى لهم ذلك عندما استولت الحملة المصرية على الدرعية عاصمة آل سعود ودمرتها عام ١٨١٨ وصار آل سعود في حالة انهيار . عندئذ تحركت السفن البريطانية

من بومباي الى مسقط في شهر نوفمبر ١٨١٩ حيث انضم اليها اربعة الاف مقاتل عماني وعدة سفن من أسطول السلطان فاحتلت الحملة مدينة رأس الخيمة عاصمة القواسم في ديسمبر ١٨١٩ واستسلم شيخها حسن بن رحمة للانكليز ، وهو موال للوهابيين ، فعزلوه واعادوا الشيخ سلطان بن صقر ، الموالي لسلطان مسقط ، الى ولايته فشكل ذلك تفوقا لمسقط على آل سعود لفترة من الوقت .

استولت الحملة على موانيء القواسم الأخرى وهي الجزيرة الحمراء وعجمان وأم القوين والشارقة . بعد ذلك أبحرت الحملة الى البحرين التي كان قد لجأ اليها كثير من سفن القواسم فاستولت على السفن واحرقت بعضها .

في ٨ يناير ١٨٢٠ وقع الشيخ حسن بن رحمة ، قبل عزله ، «معاهدة السلم العامة» عن رأس الخيمة وجزيرة طنب ، وتبعه شيوخ الجزيرة الحمراء والشارقة التي تتبعها جزيرة أبو موسى ، وشيوخ أبو ظبي ودبي والعجمان وأم القوين وفجيرة والبحرين .

تضمنت الاتفاقية تعهدا من الشيوخ بألا يتخلوا أويؤجروا بأي شكل من الأشكال قسماً من أراضيهم الا باذن من بريطانيا ، كما تعهدوا بالتوقف عن أعمال السلب والنهب في البحر والبر ، وعدم التعرض للسفن ، وقيام سلم مع الانكليز ، وتعيين وكيل للشيوخ الموقعين على المعاهدة لدى المقيم البريطاني في بوشهر ، وتعيين وكيل للمقيم لدى كل شيخ ، واعتبار نقل العبيد في سفن بلدان المعاهدة نوعاً من أعمال القرصنة الممنوعة . وتعهدت بريطانيا في مقابل ذلك بحماية مشيخات الخليج من بعضها ومن أي عدو خارجي . وأطلق على الساحل الذي يضم هذه المشيخات اسم «الشاطيء المتصالح» «ورفعت راية بريطانية على مدخل كل خور في الخليج وتمت السيطرة على مياهه بالقدر نفسه الذي كانت بريطانيا تسيطر على ميناء بومباي»[٢٢] .

تعززت هذه المعاهدة باتفاقات أخرى سنة ١٨٣٥ ، انضمت الكويت اليها عام ١٨٤١ فأصبح «الشاطيء المتصالح» الممتد من مسقط الى البصرة خاضعاً للحماية البريطانية باستثناء ساحل الاحساء الذي بقي العثمانيون والسعوديون يتنازعونه .

في تلك الفترة وصلت حملة محمد علي باشا الى الاحساء ، فخشي الانكليز على مواصلاتهم مع الهند ، فاحتلوا عدن عام ١٨٣٩ وسيطروا بذلك على باب المندب ، أي المدخل الجنوبي للبحر الاحمر . وكان عصر السفن البخارية قد بدأ في أوائل القرن ، فجعل الانكليز من عدن المركز الرئيسي لتزويد السفن

المتاجرة مع الهند بالفحم الحجري ذهاباً وإياباً . وازدادت أهمية عدن بعد فترة قصيرة عند افتتاح قنال السويس سنة ١٨٦٩ فأصبحت تجارة أوروبا مع الشرق الاقصى تمر بكاملها تقريباً في البحر الاحمر تحت السيطرة العسكرية الانكليزية .

تعمق النفوذ البريطاني مع الزمن فوقّع الشيوخ اتفاقات أخرى عام ١٨٩٢ عهدوا فيه الى بريطانيا بعلاقاتهم الخارجية . وحذا شيخ الكويت مبارك الصباح حذوهم سنة ١٨٩٩ بعدما هدد الاتراك في العراق باحتلال بلاده[٢٣] :

يبدو أن هذه الاتفاقات تضمنت حماية المشيخات والمصالح البريطانية من الجوار ، أي من السعوديين والعثمانيين في العراق والاحساء . فقد حاول الامام عبد الله بن ثنيان (١٨٤١ - ١٨٤٣) بعد انسحاب المصريين من نجد ، ان يعيد السيطرة السعودية على شيوخ «الشاطيء المتصالح» وعلى واحة البريمي ، وهي المدخل الى ساحل عمان ، فكتب الى الشيوخ يدعوهم للطاعة . واطلع المقيم البريطاني العام في الخليج على الرسائل فحذر الشيوخ من الاستجابة لها .

وحاولت تركيا احتلال الكويت من ناحية العراق سنة ١٨٩٨ فلجأ شيخها الى حماية بريطانيا التي منعت الاتراك دبلوماسيا وحافظت على الوضع القائم.

وقد بقيت معاهدات الحماية قائمة الى أن قررت بريطانيا من طرف واحد سحب جيوشها من شرق السويس ، بما يشمل الخليج سنة ١٩٦٩ فتمتعت مشيخات «الشاطيء المتصالح» بالاستقلال التام منذ ذلك الوقت .

فرنسا والخليج

عمل الانكليز بجد على ابعاد فرنسا عن طريق الهند . وكانت قاعدة فرنسا الرئيسية في المحيط الهندي في جزيرة موريشيوس لكن الاسطول البريطاني دمرها عام ١٨١٠[٢٤] .

سعت فرنسا لنشر نفوذها في شرق البحر المتوسط عندما احتل نابوليون مصر لكن بريطانيا افسدت عليها جهودها حين دمر الاسطول الانكليزي سفن الحملة الفرنسية في معركة ابي قير البحرية ، وتبع ذلك انسحاب الفرنسيين الى بلادهم . بعد ذلك وجهت فرنسا جهودها الاستعمارية بصفة رئيسية الى البلاد الافريقية الأقرب اليها .

روسيا والخليج

كان هدف روسيا الدائم وما يزال الوصول الى البحار الدافئة في الجنوب ، فاحتلت شبه جزيرة القرم ، وسواحل البحر الاسود الشمالية . وتطلعت نحو الخليج فبدأت البعثات الروسية تطوف ارجاءه من سنة ١٨٩٠ باحثة عن ميناء تتخذه ركيزة لها في سواحله .

وقد عبر وزير خارجية بريطانيا عن موقف بلاده فقال : «يجب علينا ان ننظر الى انشاء قاعدة بحرية أوميناء محصن في الخليج بواسطة أية دولة على أنه تهديد خطير جدا للمصالح البريطانية . ويجب علينا بكل تأكيد أن نقاومه بجميع الوسائل»[٢٥] .

ازدادت مخاوف الانكليز عندما احتل محمد علي باشا والي مصر بلاد الشام ووصل الى دير الزور وحلب ، ثم الى كوتاهية في الأناضول وأصبح اتصاله بالروس محتملا . كما أن عملاء روسيا اتصلوا بالامام عبد الرحمن بن فيصل أثناء اقامته في الكويت (١٩٠١ ـ ١٩٠٢) وعرضوا عليه مساعدات اذا سار على خططهم .

وكانت الاتصالات مستمرة بين الدولتين الانكليزية والروسية ، وبعد مفاوضات ، اتفق الجانبان على اقتسام النفوذ في ا يران فخضع القسم الشمالي للنفوذ الروسي ، والقسم الجنوبي للنفوذ الانكليزي ، وضمن بذلك الانكليز إبعاد الروس عن طريق الهند .

الالمان والخليج

شكلت المانيا تهديداً أكبر للمصالح البريطانية . فبعد تحقيق وحدتها القومية عام ١٨٧٠ بدأت تتطلع الى التوسع ، فوجدت منافستيها بريطانيا وفرنسا قد سبقتاها في الميدان الاستعماري في أفريقيا وآسيا ، فاتجهت الى النواحي الاقتصادية التي يرافقها نفوذ سياسي . ورأت في الدولة العثمانية شريكاً مهيأً لقبولها لعدم وجود تاريخ استعماري لها . وكان السلطان عبد الحميد قد تولى الحكم بعد عزل اخيه مراد الخامس سنة ١٨٧٦ ، فمنح الألمان امتياز مد خط

حديد الشرق الى اسطنبول الذي انتهى العمل به عام ١٨٨٨ . ثم امتدت الخطوط الى مختلف المدن التركية ورغبت الدولة العثمانية بمدها الى العراق والخليج ومنحت الامتياز أيضا الى الألمان . وكان معنى ذلك وصول الألمان في النهاية الى الخليج ومزاحمتهم للنفوذ البريطاني فيه . وكانت شركة ملاحة المانية قد فتحت فرعاً لها سنة ١٨٩٠ في بلدة لنجة وهي ميناء على الشاطيء الفارسي من الخليج شمال جزيرة قشم ومضيق هرمز ، بينما وصل قنصل الماني الى بلدة بوشهر في العام التالي . وبحلول العقد الثاني من هذا القرن كان النفوذ الألماني قد أصبح مسيطراً في العراق .

دأبت ألمانيا على تحقيق هدفها بالوصول الى طريق الهند بواسطة البر . فأكملت خط برلين ـ بغداد وصارت تسعى الى ايصاله الى مكان مناسب على شاطيء الخليج .

وعلى هذا زار الكويت عام ١٩١٠ قنصل المانيا في اسطنبول وكان يعتبرها أفضل مكان ينتهي فيه الخط المذكور . وحاول اغراء الشيخ مبارك الصباح شيخ الكويت ليوافق على المشروع ، لكن الشيخ مبارك رفض طلبه لأنه كان مرتبطاً بمعاهدة سرية مع بريطانيا تقضي عليه أن لا يتعامل مع دولة أجنبية وأن لا يبيع أو يؤجر شيئا من أراضي الكويت ، الا بعد التشاور مع المقيم الانكليزي .

عندها حرض الألمان الأتراك على مهاجمة الكويت ، فاستولوا على جزيرة بوبيان وحصنوها ، ولم يلتفتوا الى اعتراضات الشيخ مبارك وبقيت بيدهم الى نهاية الحرب العالمية الاولى [٢٦] . والجزيرة تتحكم بمصب شط العرب وما تزال مدار خلاف بين العراق والكويت الى الآن .

وجاءت الحرب العالمية الاولى فوضعت حدا لهذا التنافس لمصلحة الانكليز .

عصر التنور

خلال هذا الزمن الذي بحثنا أوضاعه في الخليج ، كانت بلاد الغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تشهد نهضة فكرية وعلمية عرفت باسم «عصر التنور» الذي انتج بدوره الثورة الصناعية الغربية في بداية القرن التاسع عشر .

شمل «عصر التنور» معظم شعوب أوروبا ، وقامت حركة واسعة ، تناولت

الفكر والمعتقدات ، ارتكزت على تصور مترابط للدين ، والعقل والطبيعة ، والانسان ، مؤسس على اعتقاد راسخ بأن العقل النير يستطيع التوصل الى المعرفة الحقيقية والى قيادة الجنس البشري نحو السعادة .

تمتد جذور حركة التنور عميقاً في حضارة اليونان القديمة حيث اكتشف فلاسفتها الأولون تناسقاً في طبيعة الأشياء واستنتجوا أن الضابط الذي ينظمها هو العقل المدرك الجوال المتحرر من الضغوط الاجتماعية والدينية والسياسية .

تجلت مبادىء التنور في اتجاهات واضحة عامة أساسها المساواة بين الناس بصرف النظر عن معتقداتهم الدينية واجناسهم ، فنص الدستور الاميركي عام ١٧٧٦ ان جميع الناس متساوون مهما اختلفت أديانهم وأوضاعهم الاجتماعية ، وجاءت الثورة الفرنسية تعلن بعد ثلاث سنوات مبدأ «الحرية والمساواة والاخاء» بين جميع أفراد الشعب ، ومنعت تدخل رجال الدين بالسياسة .

وترافقت فكرة المساواة بين البشر مع فكرة التسامح . والتسامح هو قبول الانسان بحق الآخرين بأن يحملوا معتقدات وافكاراً وان يبدوا آراء في شتى المواضيع الاجتماعية والسياسية والدينية لا تأتلف مع أفكاره ومعتقداته . فوضع الانسان الأوروبي بذلك أسس الحياة الديمقراطية ، إذ لا ديمقراطية بلا تسامح وحرية ومساواة .

وجاءت حروب نابوليون في بداية القرن التاسع عشر تنقل مبادىء الثورة الفرنسية في «الحرية والمساواة والاخاء» وفكرة الدولة القومية الى سائر شعوب أوروبا التي احتلتها جيوشه فزعزعت أركان الملوك المستبدين ، وخلخلت أسس الامبراطوريات المكونة من عدة قوميات .

وأثمرت هذه البذور في ثورات ١٨٤٨ التي عمت كثيرا من البلاد الأوروبية ، ودعت الى تقييد سلطات الملوك ، والى التمثيل الشعبي في الحكم ، والى استقلال الشعوب ذات القومية الواحدة .

مع انتشار المبادىء الديمقراطية بدأت المساعي لتقييد سلطة الملوك المطلقة عن طريق الانتخابات أحياناً وتعزيز سلطة البرلمان ، وعن طريق الثورة أحياناً أخرى .

ارتكزت كل هذه الحركات على أسس فكرية بشّر بها كتاب وفلاسفة سياسيون واجتماعيون اغتنى بهم «عصر التنوّر» وغصّت بمؤلفاتهم المكاتب ، وما تزال أفكارهم ركيزة الفلسفة السياسية والاجتماعية الغربية . اشتهر منهم فرانسوا فولتير الفرنسي (١٦٩٤ - ١٧٧٨) ، والفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو (١٧١٢ - ٧٨) مؤلف كتاب العقد الاجتماعي ، ودنيس ديدرو الفرنسي

(١٧١٣ ـ ٨٤) من أوائل الذين اهتموا بتأليف دائرة معارف ، ومعاصروا ديدرو ادموند بورك الانكليزي (١٧٢٩ ـ ٩٧) الذي دعا الى تقييد سلطة الملك ، وصاموئيل جونسون الفيلسوف الاجتماعي الانكليزي (١٧٠٩ ـ ٨٤) ، وامانيويل كانت الفيلسوف الالماني (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) ، والبارون مونتسكيو الفرنسي (١٦٨٩ ـ ١٧٥٥) مؤلف «روح القوانين» وهو فيلسوف حقوقي وسياسي ، ويوهان غوته الأديب الألماني الشهير (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢) ، وتوماس جفرسون الاميركي الذي شارك بوضع وثيقة الاستقلال ، وسبقهم توماس هوبس (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩) وجون لوك (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) الفيلسوفان الانكليزيان المتعارضان الذي دافع الأول عن السلطة الملكية ، في حين طور الثاني في أواخر القرن السابع عشر النظرية القائلة ان شرعية الحكم مستمدة من موافقة المواطنين وذلك يعني عمليا تغليب ارادة الاكثرية التي تتضمن في النهاية حق الثورة ضد الحكم الذي لا يستجيب للاصلاح ولرأي الأكثرية .

ترافقت هذه النهضة في النواحي الاجتماعية والسياسية والأدبية والفلسفية مع نهضة مماثلة في العلوم الطبيعية ، فوضع اسحق نيوتن الانكليزي (١٦٤٢ـ ١٧٢٧) قوانين الجاذبية ، واخترع جيمس واط الانكليزي (١٧٣٦ـ ١٨١٩) طريقة استعمال البخار لتحريك الآلات في المعامل والقطارات والسفن .

وكان ذلك أساس ما سمي بـ «الثورة الصناعية» التي بدأت في انكلترا ثم عمت أوروبا وأميركا . والثورة الصناعية تعبير مرادف لتطوير ماكنات الغزل والنسيج ، واستعمال المحركات البخارية ، ووضع نظام للعمل في المصانع . إنه تعبير يصف تطور انكلترا الاقتصادي من عام ١٧٦٠ الى ١٨٤٠ حيث انتقلت الصناعة من مرحلة العمل اليدوي الى استعمال الماكنات .

بحلول عام ١٨٠٠ كانت الاختراعات الاساسية في صناعة النسيج قد تمت وانتشرت واصبح ما يزيد على خمسماية محرك بخاري قيد العمل في المصانع .

ومنذ عام ١٨٢٥ انتشرت الخطوط الحديدية في انكلترا وباقي البلاد الأوروبية . وعرفت تلك الحقبة التاريخية باسم «عصر البخار» .

ثم بدأ استعمال التلغراف فتأسست شركة انكليزية واخرى اميركية للاتصالات عام ١٨٤٥ وعم استعماله بعد سنة ١٨٦٢ . وتبعه اختراع التلفون فسجل الكسندر بل الكندي اختراعه الأول في الولايات المتحدة عام ١٨٧٦ . وهكذا ترافقت ثورة في المواصلات مع الثورة الصناعية ولازمتها .

احدثت الثورة الصناعية وما رافقها من نزوح سكان القرى الى المدن وسوء احوالهم المعيشية ، وتدني اجورهم رد فعل عنيفاً لدى بعض المفكرين ، فقام

الفيلسوف الالماني كارل ماركس في منتصف القرن التاسع عشر بنشر كتابه «رأس المال» في لندن بيّن فيه رأيه بمفاسد النظام الرأسمالي ، ودعا العمال لاسقاطه ، وبشّر بحرب الطبقات ، والقضاء على الملكية كنظام سياسي ، وعلى الملكية الخاصة بالعنف والثورة ، وأصبحت تعاليمه اساسا للدول والحركات الشيوعية في العالم .

وما يهمنا ابرازه هو أن كارل ماركس نشر هذه التعاليم «الهدامة» بالنسبة لذلك العصر ، وللمجتمع الانكليزي الذي لجأ اليه ، فلم يتعرض لنفي أو حجز أو اضطهاد ، واستمر يبشر بمبادئه قرابة أربعين عاماً من دون ممانعة ، وهو قدر من حرية الرأي والتعبير يفتقده الكثير من البلاد العربية في يومنا هذا ولم يتمتع به أي مجتمع عربي سابق .

في تلك الحقبة ايضا بلغ الشوق الى المعرفة المجردة درجة رفيعة ، فأرسلت «الجمعية الملكية البريطانية للعلوم» السيد تشارلس داروين في رحلة استغرقت خمس سنوات جاب فيها مناطق مختلفة في العالم باحثا في علم النبات والحيوان وطبقات الارض ثم عاد عام ١٨٣٦ ليضع كتابه الشهير «أصل الأجناس» The Origin of Species الذي شرح فيه لأول مرة في تاريخ البشرية «نظرية التطور» .

مع التقدم في الفلسفة والأدب والفكر السياسي ، وفي العلوم الطبيعية والاختراعات ، والمواصلات ، كان لا بد أن يستكمل «عصر التنوّر» إبداعه في الفنون الجميلة ، لأن الحضارات ذات وجوه متعددة متكاملة لا يستقيم أحدها من دون الآخر .

واذا استعرضنا الفن الموسيقي نجد عصر «التنوّر» قد انتج عباقرة يكفي ان نذكر منهم جون سيباستيان باخ الألماني (١٦٨٥ ـ ١٧٥٠) ، وولفغانغ موزارت النمسوي (١٧٥٦ ـ ٩١) ، ولودفيغ فون بيتهوفن الألماني (١٧٧٠ ـ ١٨٢٧) ، وفرانز شوبرت النمسوي (١٧٩٧ ـ ١٨٢٨) ، وريتشارد واغنر الألماني (١٨١٣ ـ ٨٣) ، ويوهان ستراوس النمسوي (١٨٢٥ ـ ٩٩) ، وروبرت شوبان الألماني (١٨١٠ ـ ٥٦) .

استمرت الحضارة الغربية تنمو باطراد متسارع في جميع الميادين العلمية والثقافية فتجاوزت «عصر البخار» في بداية القرن العشرين ودخلت «عصر الكهرباء» . ثم تجاوزت «عصر الكهرباء» في منتصف هذا القرن ودخلت عصر «الذرة والالكترون» ، وها هي الآن تجني فوائد الصناعة الالكترونية في

الانقلاب الذي يحدثه «الكومبيوتر» في حياة الانسان اليومية وفي عمله وفي ثقافته .

ترافق عصر الالكترون مع دخول الغرب «عصر الفضاء» . فالأقمار الصناعية يدور بعضها حول الأرض يستكشف طبيعتها وتركيبها وطريقة تكوينها ، ويوثق الاتصالات بين ارجائها ، ووصل بعضها الى القمر وتجاوزه في محاولة لاستكشاف أسرار الكون .

والعرب في كل هذا ناقلون ومقلدون غير منتجين ولا مشاركين .

الأوضاع المحيطة بالدولة الناشئة

١ ـ أبو حاكمة ، أحمد ، تاريخ الكويت ، ج ١ ، ص ٣٣٢ .
٢ ـ أبو حاكمة ، أحمد ، تاريخ شرق الجزيرة العربية ، ص ١٨١ .
٣ ـ أبو حاكمة ، أحمد ، تاريخ الكويت ، ج ١ ، ص ١٢٦ .
٤ ـ المصدر السابق ، ص ١٣٥ .
٥ ـ المصدر السابق ، ص ٣٠٠ .
٦ ـ الريحاني ، أمين ، تاريخ نجد الحديث ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .
٧ ـ أبو حاكمة ، أحمد ، تاريخ الكويت ، ص ١٤٣ .
٨ ـ المصدر السابق ، ص ٣١٦ـ ٣١٧ .
٩ ـ أبو علية ، عبد الفتاح ، الدولة السعودية الثانية ، ص ٢٢٠ .
١٠ـ الريحاني ، أمين ، سبق ذكره ، ص ١١٣ .
١١ـ السعدون ، خالد محمود ، العلاقات بين نجد والكويت ، ص ٦٨ .
١٢ـ أبو علية ، عبد الفتاح ، الدولة السعودية الثانية ، ص ٧٩ .
١٣ـ السعدون ، خالد ، سبق ذكره ، ص ٢٨ .
١٤ـ الرشيد ، عبد العزيز ، تاريخ الكويت ، ص ١١٤ ـ ١١٥ .
١٥ـ المصدر السابق ، ص ١٦١ .
١٦ـ المصدر السابق ، ص ١٦٣ .
١٧ـ المصدر السابق ، ص ١٧١ .
١٨ـ المصدر السابق ، ص ١٠٠ .
١٩ـ أبو حاكمة ، أحمد ، تاريخ الكويت ، ج ١ ، ص ٢٩٥ـ ٢٩٨ .
٢٠ـ أبو حاكمة ، أحمد ، تاريخ الكويت ، ج ١ ، ص ٣٤٢ .
٢١ـ المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٨ـ٧٩ .
٢٢ـ المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٤ .
٢٣ـ الرشيد ، عبد العزيز ، تاريخ الكويت ، ص ١٠٠ .
٢٤ـ السعدون ، خالد ، سبق ذكره ، ص ٢٢ .
٢٥ـ المصدر السابق ، ص ٢٤ .
٢٦ـ الرشيد ، عبد العزيز ، سبق ذكره ، ص ٩٩ .

٤

التوسع العسكري السعودي

نشأ آل سعود في مجتمع بدوي قبلي ، وهم انفسهم ينتسبون الى عشيرة عنزة البدوية وان كانوا مستقرين في قرى منذ أن بدأ يظهر ذكرهم .

وقد وصف ابن خلدون المجتمع القبلي فقال عنه : «ان العصبية المستندة الى قرابة الدم ، من أخص خصائص البادية ، ولا بد للحاكم من عصبية تمكنه من تأسيس السلطة السياسية ، تساعده على حمل الناس على الطاعة ، والنظام ، واحترام الحقوق ، وأداء الواجبات . وبتعبير آخر ، فان العصبية هي منشأ الرئاسة والسلطان او الدولة . وتكون الرئاسة دائما لأهل العصبية . فالرئاسة لا تكون الا بالغلب ، والغلب لا يكون الا بالعصبية»[1] . وتابع قائلا : «ان للدعوة الدينية أثرا في قيام الدولة ، ولكن الدعوة الدينية نفسها لا يمكن ان تتحقق من دون عصبية (قائمة على الدم)» .

ويتابع ابن خلدون تحليله فيقول : «لا يكفي أن يكون القائد من عصبية كبيرة فحسب ، بل ينبغي أن يكون من نسل أقوى فرع من تلك العصبية الكبيرة» .

وقال الدكتور طه حسين : «ان التاريخ لم يذكر قط شعبا يفوق الشعب العربي في الاستمساك بعصبيته وتقديم صلة الرحم (روابط الدم) على ما سواها من الصلات» . ان تاريخ الأمة العربية قبل الاسلام وبعده ليس الا سلسلة طويلة من الخصومات بين القبائل وهي خصومات منشؤها الحقيقي تلك العصبية التي دفعت الى حد التعصب . يقول المثل العربي «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» . فلا عجب اذا كان ابن خلدون يعلق على العصبية أهمية عظمى ويعتبرها العامل الجوهري لقوة المجتمع السياسي .

طبائع البدو

لما كان البدو عماد الدعوة الوهابية والركن الذي اعتمد عليه آل سعود في فتوحاتهم ، فانه يحسن بنا أن نتعرف على طباع البدو وعقليتهم باعتبار أنهم كانوا «المادة الخام» في جميع التطورات التاريخية في الجزيرة العربية .

يقول ابن خلدون في وصفهم[٢] وهو يسميهم «العرب» ويقصد بهم البدو : «انهم أهل انتهاب وعبث . ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ، ولا ركوب خطر ، ثم يفرون الى منتجعهم بالقفر ، ولا يذهبون الى المزاحفة والمحاربة الا اذا دافعوا بذلك عن أنفسهم . فكل أمر مستصعب عليهم فهم تاركوه الى ما يسهل عنه ولا يعرضون له . أما الاراضي المبسوطة متى اقتدروا عليها بفقدان الحامية ، وضعف الدولة فهي نهب لهم يرددون عليها الغارة والنهب والزحف لسهولتها عليهم حتى يصبح أهلها مغلّبين لهم الى أن ينقرض عمرانهم .

وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له . فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتنقل ، وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومناف له . فالحجر مثلا انما حاجتهم اليه لنصبه أثافي للقدر . فينقلونه من المباني ويخربونها عليه ويعدونه لذلك . والخشب أيضا إنما حاجتهم اليه ليقيموا منه عمدا لخيامهم ،ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليه لذلك . فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران .

وأيضا فطبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس ، فرزقهم في ظلال رماحهم ، وليس عندهم في أخذ أموال الناس حد ينتهون اليه ، بل كلما امتدت أعينهم الى مال أو متاع أو ما عون نهبوه ، فاذا تم اقتدارهم على ذلك بالتغلب والملك بطلت السياسة في حفظ أموال الناس وخرب العمران . وهم أيضا متنافسون في الرياسة ، وقل أن يسلم أحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته ، الا في الأقل ، فيتعدد منهم الحكام والأمراء وتختلف الأيدي على الرعية في الجباية والأحكام فيفسد العمران وينتقص .

وانظر الى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الأوطان كيف تقوض عمرانه ، وافقر ساكنه ، وبدّلت الأرض فيه غير الأرض : فاليمن قرارهم خراب الا قليلا من الأمصار ، وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذي كان للفرس ، والشام لهذا العهد كذلك ، وأفريقية والمغرب لما جاز إليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعاد عمرانه خراباً كله ، بعد ان كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمراناً ، تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى» .

يأتي الفيلسوف أمين الريحاني بعدما يزيد على خمسمائة عام ليصف بدو الجزيرة العربية وصفا مماثلا في كتابه «تاريخ نجد الحديث» فيقول[٣] :

«البدو مثل ذوات الأجنحة طيارون أو أن لهم مزية الزئبق . رفاقك في الطريق اليوم وأعداؤك غداً . ولا أظنهم لولا الجنة والحور يخضعون لرب الكائنات . اما الدين عندهم فكالرداء يلبسونه ردحا من الزمن فيغسلونه مرة أو مرتين ثم يلبسونه مقلوبا ، ثم ينبذونه وقد تمزق ، نبذ النواة . يقولون كيف نتوضأ ونحن نبغي الماء للشرب ؟ ولم الصوم والسنة كلها عندنا رمضان ؟ ولم الصلاة وليس لله وقت يسمعنا ؟

وكانوا كذلك في ولائهم لهذا الأمير أو ذاك . فما الفرق وربك بين أبي مقرن وابن هاشم ، أو بين ابن الصباح أو ابن الرشيد ؟ كلهم عرب يقيمون في بلاد العرب ويغزون غزو العرب ونحن ان حاربنا مع هذا او ذاك عرب .

ما تغير العرب من أيام الرسول وأيام مسيلمة وأبي طاهر . دينهم حاجات لتلك الردات ، وولاؤهم غايات لتلك الخيانات . فلطالما ارتدوا وخانوا وعادوا تائبين من أيام عبدالعزيز الأول الى أيام عبد العزيز الثاني . وهم كما وصفناهم لا يوالون طويلا ولا يعادون طويلا . لا يثبتون ولا يسكنون ولا يستقيمون في مسراهم أو في مغزاهم .

البدو سيف في يد الأمير اليوم ، وخنجر في ظهره غدا ، مجاهدون اذا قيل غنائم ، متمارضون اذا قيل جهاد . يحاربون ما زالوا آمنين على أموالهم وأنفسهم ، ويفرون شاردين عند أول خطر يلوح .»

وكان الكولونيل لورنس قد عرف البدو وحارب معهم ضد الأتراك عام ١٩١٦ - ١٩١٧ وخبر طبائعهم فوصفهم وصفاً مشابهاً في كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» .

الدعوة للجهاد

و«الجهاد» لغة هو «القتال محاماة عن الدين»[٤] . لكن المعنى تطور حسب رأي البعض عندما جرى الجمع بين الدعوة الدينية وبين تنفيذها بالفعل . وعبر عن هذا الرأي ابن خلدون في مقدمته عندما قال : «لما كان الجهاد في الأمة الاسلامية مشروعاً لعموم الدعوة ، وحمل الكافة على دين الاسلام طوعاً أو كرهاً ، فقد اتحدت فيه الخلافة والملك . أما ما سوى الملة الاسلامية ، فلم تكن دعوتهم عامة ، ولا الجهاد عندهم مشروعاً إلا في المدافعة فقط[٥] .

أما الشيخ الأزهري علي عبد الرازق فيفرّق بين الدعوة الى الدين ، وبين الجهاد لتثبيت السلطان وتوسيع الملك فيقول : «دعوة الدين دعوة الى الله

تعالى بوسائل التأثير والاقناع . . وما عرفنا في التاريخ رجلا حمل الناس على الايمان بالله بحد السيف ، ولا غزا قوماً في سبيل الاقناع بدينه ، وذلك هو نفس المبدأ الذي يقرره النبي فيما كان يبلغ . جاء في القرآن الكريم «**لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي**» (سورة البقرة) ،

«**ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**» (سورة النحل) ،

«**فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر**» (سورة الغاشية) ،

«**فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد إهتدوا وأن تولّوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد**» (سورة آل عمران) . «**فأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**» (سورة يونس) .

هذه مبادىء صريحة في ان رسالة النبي انما تعتمد على الاقناع والوعظ واذا كان قد لجأ الى القوة والرهبة فذلك ليس في سبيل الدعوة الى الدين بل لتكوين الحكومة الاسلامية . ولا تقوم الحكومة الا على السيف وبحكم القهر والغلبة فذلك سر الجهاد النبوي ومعناه»(٦) .

يتابع الشيخ علي عبد الرازق قائلا : هنا يبرز سؤ الان في مسألة الجهاد «فقد غزا النبي المخالفين لدينه ، من قومه العرب ، وفتح بلادهم ، وغنم أموالهم ، وسبى رجالهم ونساءهم . ثم بدأ يصارع دولة الرومان في الغرب ، ويدعو الى الانقياد لدينه ، كسرى الفرس في الشرق ، ونجاشي الحبشة ومقوقس مصر(٧) . وتابع الخلفاء فتوحاته . وكان جهادهم للاسلام ضد غير مسلمين سواء كانوا عربا أو أجانب .

ولم يكن الأمر كذلك في بعض المناطق الاسلامية فيما بعد .

الدولة السعودية الأولى (١٧٤٤ - ١٨٤٣)

اصطلح المؤرخون على بحث تاريخ آل سعود في قسمين : القسم الأول يمتد من الامام الأول محمد بن سعود الى نهاية الحكم المصري وانسحاب جيش محمد علي باشا من نجد ، ويمتد القسم الثاني من عودة الأمير فيصل بن تركي من منفاه في القاهرة ، الى تغلب آل رشيد على الدولة السعودية واخضاعهم لها عام ١٨٨٧ .

الامام السعودي الأول محمد بن سعود

١٧٤٤ـ١٧٦٥

بعـد اتفـاقـه مع الشيـخ محمـد بن عبد الوهاب حكم الامام محمد بن سعود عشرين سنة ، الى حين وفاته عام ١٧٦٥ .

حصل اول صدام بين الامام محمد وعثمان بن معمر شيخ العيينة . وكان هذا قد خشي من امتـداد السلطـة السعودية فسعى الى عقد حلف مع شيخ ثرمداء وابن سويـط شيـخ الظفـير . لكن بعض الـوهابيين اغتالوا عثمان بن معمر عام ١٧٤٩ بعـد خروجـه من المسجـد فانضمت العيينـة بعـد ذلـك الى الحكم السعودي وفقد آل معمر دورهم السياسي في نجد[٨] .

حروب مع دهام بن دواس حاكم الرياض :

كان دهـام بن دواس حاكم الـرياض ، ويظن أنه من مطير ، من ألد أعداء الدعوة الوهابية . وقد دامت الحروب بين الرياض والدرعية سبعة وعشرين عاماً رغم قربـة المسـافة بينهما وكانت سجالا ، فلم تمر سنة الا ووقعت فيها غزوة بين البلدين . وفي احـدى هذه الغـزوات قتـل ولدا الامام محمد ، فيصل وسعود . وبعـد وفـاة الامـام محمد وتولي ابنه عبد العزيز زادت حدة التوتر الى ان استطاع السيطرة على الرياض عام ١٧٧٣[٩] .

منطقة الوشم : تم استيلاء السعوديين على منطقة الوشم وقراها في غزوات امتدت من ١٧٥٥ الى ١٧٦١ .

منطقـة سديـر : رفضت منطقـة سديـر الـدعـوة الـوهـابية فاستمر آل سعود يهاجمونها من سنة ١٧٥١ الى أن رضخت لهم سنة ١٧٦٤ .

منطقة الخرج : استطاع الامام محمد الاستيلاء على الخرج . لكن زيد بن سالم صاحب الـدلم نقض العهـد بعـد وفـاة الامام محمد ، وتحالف مع الدواس وغيرهم من القبائل وطلبوا العون من نجران لقاء مال .

لكن ال سالم انقسموا على أنفسهم فاستولى الامام عبد العزيز على المنطقة عام ١٧٨٤ وعين سليمان بن عفصان حاكماً عليها[١١] .

منطقـة القصيم : قبلت بريـدة الـدعـوة الـوهـابية عام ١٧٦٨ . لكن أهل القصيم نقضوا عهدهم للدرعية وأعلنوا الحرب عليها عام ١٧٨٢ . واستنجدوا بسعدون بن عريعر شيخ بني خالد .

أما عنيزة فقد قتل الامام سعود بن عبد العزيز حاكمها عبد الله بن زامل عام ١٧٦٨ فاعلنت ولاءها . ثم تزعمت عنيزة ثورة كبرى ضد الدرعية . وانجدها سعدون بن عريعر لكن الثورة فشلت ودخلتها القوات السعودية عام ١٧٨٨[١٢]

يلاحظ من هذا الموجز التاريخي أمران :

ان المرحلة الاولى من مراحل نشر الدعو الوهابية ، وبالتالي بسط سلطة آل سعود ، كانت مركزة على القرى المجاورة للدرعية . ثم تعدت ذلك الى دائرة أوسع حتى ضمت جميع بلدان وقبائل نجد وقضت على الزعامات المحلية المنافسة[١٣]

الامام السعودي الثاني عبد العزيز بن محمد
(١٧٦٥-١٨٠٣)

خلف عبد العزيز أباه سعود فتابع الغزوات واستولى على الرياض عام ١٧٧٣ وأعاد السيطرة السعودية على الخرج وبريدة والقصيم ونواحي اخرى من نجد . وبعد أن بلغ السبعين ثقل جسمه وآثر الراحة فأخذ البيعة بولاية العهد ، لابنه سعود وسلمه مهام الدولة سنة ١٧٨٨ .

الامام السعودي الثالث سعود بن عبد العزيز
١٨٠٣-١٨١٤

تولى سعود الامامة بعد وفاة والده من دون منازع ، ودامت ولايته إحد عشر عاماً حتى وفاته وثلاثة وعشرين عاماً منذ تسلمه امور الدولة فعلياً خلال حياة والده .

وصل الامتداد السعودي الى أوجه في عهده ، وكانت غزواته على نوعين : بعضها استهدف ضم الأراضي وبسط السلطة لتحصيل الضرائب ونشر العقيدة كما حصل في نجد والاحساء وسواحل البحر الاحمر ، والبعض الآخر

منها كان غارات تأديبية في ديار لا طمع لآل سعود بضمها ، ولا قدرة لهم عليها ، كغزوات في البلاد العراقية وفي بر الشام حيث كانت الغزوة تقتصر على بضعة أيام ينهبون فيها ويسلبون العشائر والقرى ثم يرتدون مسرعين الى نجد . ومع ذلك فان بعض المؤرخين الموالين لآل سعود يحاولون الايحاء ان الامام سعود سيطر على نصف العراق لأنه غزا كربلاء لبضع ساعات ، وان حدوده امتدت الى جوار دمشق ، لأنه في احدى غزواته وصل الى بصرى في حوران حيث بات ليلة واحدة ، ثم ارتد الى نجد خائبا بعدما عجز عن الاستيلاء على قلعة المزيريب وهي تبعد ماية كيلومتر جنوب دمشق .

اصطدم التوسع السعودي بالسيادة العثمانية المبسوطة على الحجاز وعسير واليمن في الغرب ، وعلى شاطيء الخليج في شرق الجزيرة بالاضافة الى العراق وبلاد الشام ومصر . وكانت هذه السيادة في أغلب الأحيان اسمية يكتفي فيها السلطان بالحصول على جعل سنوي ويترك الطامعين بالولاية يتنازعون عليها فيما بينهم .

لذلك لم تهتم الدولة العثمانية لما سيطر سعود على نجد لفقرها الاقتصادي وانعدام قيمتها الستراتيجية . ولم تكترث كثيرا لما توسع نحو الاحساء في الشرق ونحو عسير وتهامة اليمن وتركت ولاة تلك البلاد يتدبرون امورهم حسب عادات الغزو المعتادة .

مثال ذلك ان الشريف غالب حاكم مكة هاجم الاراضي النجدية عام ١٧٩٥ فتصدى له سعود ورده .

ونقض أهل الاحساء البيعة عام ١٧٩٧ فسير سعود عليهم جيشا واخضعهم .

وفي السنة التالية جمع سليمان باشا والي العراق ، قوات كثيرة من عرب المنتفق ، وشمر ، وأهل الزبير وانضم اليهم أهل الهفوف ، والقرى الشرقية ، ونقضوا العهد الذي قطعوه للامام سعود . وبعد معركة قاسية تصالحت القوات المحاربة على العودة الى بلادها بسلام(١٤) .

وغزا سعود حائل وجبل شمر (١٧٩٠) فنزحت أعداد كبيرة منهم الى العراق وبقوا هناك .

واحتل سعود البحرين عام ١٨٠٠ فانتقل آل خليفة الى الزبارة في قطر .

وهكذا نرى ان الغزوات كانت متبادلة بين سعود من جهة وبين ولاة العراق والحجاز من جهة أخرى ، وان أهل الاحساء كانوا دوماً مستعدين لنقض البيعة .

غزوة كربلاء

يقول عثمان بن بشر في وصفها :

«دخلت سنة ١٢١٦هـ (١٨٠١)م وفيها سار سعود بن عبد العزيز بالجيوش المنصورة ، والخيول العتاق المشهورة ، من جميع حاضر نجد وباديها ، والجنوب والحجاز وتهامة وغير ذلك ، وقصد أرض كربلاء ، ونازل أهل بلد الحسين (وهي في نظر الشيعة بلد حرام) فحشد عليها المسلمون الوهابيون وتسوروا جدرانها ودخلوها[١٥] .

والغاية من الغزوة التأديب وليس بسط سلطة ، ونشر دعوة واقامة حكم ، لأن المهاجمين «لم يلبثوا فيها الا ضحوة» . ثم سار من كربلاء الى النجف فاستعصت عليه وارتد عنها . وانتقم الشيعة من غزوة كربلاء بعد سنتين باغتيال الامام عبد العزيز وهو يصلي في المسجد (١٨٠٣) .

فتح الحجاز

بعد ذلك استدار سعود نحو الحجاز عام ١٨٠٢ فقاومه أهل الطائف فتغلب عليهم[١٦] .

وكان الشريف غالب في مكة ، فهرب مع اتباعه وعساكره وخزائنه وذخائره الى جدة . ودخل الامام سعود مكة ١٨٠٣ ففعل بها وبأهلها ما فعله جنده بأهل الطائف . وفي ذلك يقول المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي : «ورد مكاتبات من الديار الحجازية مؤرخة في منتصف محرم ١٢١٨هـ (مايو١٨٠٣م) فيها الاخبار باستيلاء الوهابيين على مكة يوم عاشوراء وان الشريف غالب ارتحل الى جدة .

وعند عودة الحج المصري حضر صحبته كثيرون من أهل مكة هروبا من الوهابي[١٧] .

وتابع الجبرتي قائلا : «نهبوا في مكة الحجرة النبوية واستولوا على ما فيها من الجواهر والذخائر . عبأوا أربعة سحاحير من الجواهر المحلاة بالماس والياقوت العظيمة القدر ومن ذلك أربعة شمعدانات من الزمرد ونحو ماية سيف قراباتها ملبسة بالذهب الخالص ومنزل عليها الماس وياقوت ونصابها من الزمرد وسلاحها من الحديد الموصوف ، وعليها دمغات باسماء الملوك والخلفاء والسلاطين .

ومنع الامام سعود وصول المحملين الدمشقي والمصري والحج الذي يرافقهما

فانقطع اهل مكة والمدينة ما كان يصل اليهم من الصدقات والعلائف والصور التي كانوا يتعيشون منها[١٨] . (انتهى الجبرتي) .

يجدر بنا هنا أن نفسر معنى «المحمل والصرة» التي ترافقه . فقد كان يرد الى الحرمين ، وقت الحج ، المحمل الشامي والمحمل المصري . والمحمل اسم يطلق على الجمل الذي يحمل الهدايا المرسلة الى الكعبة والحجرة النبوية ، وكان يزين بأبهى زينة حتى أصبح لا يستطيع أن يحمل الا زينته . وكان في دمشق والقاهرة مشاغل تعمل طول العام لتحضير زينة المحمل . أما ما كان يفترض أن يحمله من هدايا فأصبح يحمل في صناديق على جمال أخرى .

وكان يرافق المحمل عادة «الصرة الشريفة» وهي الأموال الحكومية التي ترسل الى الحجاز وعائدات أوقاف الحرمين . وعائدات أوقاف سلاطين آل عثمان . وكانت كل هذه تشكل موردا رئيسيا لاعاشة أهل مكة والمدينة .

وكان «المحمل والصرة» يخرجان ضمن قافلة الحج من دمشق والقاهرة وكانت أيام خروج المحمل وعودته أياماً مشهودة في المدينتين يشترك بها الرسميون والكبراء والوجهاء . كما كان امير الحج شخصية من الطبقة الأولى فهو في مصر يأتي مباشرة بعد الوالي العثماني[١٩] .

نعود الى فتح مكة على يد الامام سعود . فلما دخلها دمر مزارات الأولياء والأنصاب والقباب ثم حاصر المدينة المنورة سنة ونصف وفعل بها وبأهلها ما فعله بالطائف ومكة . واستولى على ينبع ثم حاصر جدة فلم يتمكن منها .

بعد فتح الحجاز اتجه السعوديون الى الشمال فوصلت حملاتهم عام ١٨٠٥ الى الجوف والبتراء واجتازوها الى حوران والكرك . وارسل الامام سعود كتبا الى الولاة في الشام يدعوهم الى الوهابية فلم يستجيبوا له .

يقول محمد كرد علي في كتابه «خطط الشام» : «خرج عبد الله الباشا العظم والي الشام (١٨٠٥) بالمحمل فحدثت بينه وبين الوهابيين امور عظيمة فهلك عسكره وانتهب الحج . وفي السنة التالية منع سعود الحجاج غير الوهابيين عن الحج واخرج من مكة من كان فيها من الترك . أضف الى ذلك أنه لم يؤمن الأوروبيين الذين كانوا في جدة فخرجوا منها سنة دخوله الى مكة وكانوا بمجرد تصرفهم هذا حجة على حكمه » .

وغزا سعود عسير وتهامة وحدود اليمن ثم انسحب منها . وغزا كربلاء مرة ثانية عام ١٨٠٧ فاستعصت عليه لأن أهلها حصنوها بعد الغزوة الاولى . ثم هاجم البصرة والزبير وغنم بعض الأموال .

وعاد سعود يغزو بلاد الشام . وفي ذلك يقول صلاح الدين المختار وهو من

المعجبين بآل سعود : «في الثالث من ربيع الثاني ١٢٢٥هـ (١٨٠٩م) سار الأمير سعود بثمانية آلاف مقاتل الى الديار الشامية ، فقد بلغه أن عشائر سوريا من عنزة وبني صخر وغيرها قد نزلوا في نقرة الشام . فلما وصلها لم يجد فيها أحداً . . . فتوجه بقواته الى حوران وهاجم القرى والدساكر حول المزيريب وبصرى واستولى على ما عثر عليه من مال ومتاع وطعام وكان أهلها هربوا الى مختلف النواحي عندما سمعوا بقدومه ، ثم هاجم الامير قصر المزيريب فاستعصى عليه وارتحل الى بصرى وبات ليلته بها ومنها قفل عائدا الى بلده ومعه غنائم كثيرة[٢٠] .

يلاحظ ان الغرض من هذه الغزوات كان التأديب لأنها هجمات سريعة ومفاجئة تنقض على القرية أو العشيرة وتتراجع بسرعة وهي لذلك لا تتضمن معنى الفتح او التبشير بالعقيدة الوهابية .

يقول الاستاذ خير الدين الزركلي واصفاً فتوحات الامام سعود : كانت بلاد سعود ممتدة من عمان ووادي حضرموت ، ونجران ، وعسير ، الى شواطىء الفرات ، والبادية السورية ، ومن الخليج الى البحر الاحمر[٢١] .

في هذا الكلام شيء من المبالغة . فالامام سعود غزا بعض هذه المناطق ثم تراجع عنها ولم يكن حكمه لها مستقرا اومستمرا كما نفهم طبيعة الحكم المدني في هذا العصر . فلا يمكن مثلا أن نقول ان غزوته لقبائل العراق ولحوران تعني أنه حكم مناطق الفرات والبادية السورية الى قرب دمشق بشكل مستمر . كما أن المناطق الأخرى في الخليج وغيره كثيرا ما كانت تمتنع عن دفع الزكاة حالما تشعر بضعف الحكم المركزي أو تحس بقوة ، فكان الحكم السعودي في مد وجزر دائمين .

ومهما كان الأمر فان هذا الانتشار الوهابي لم يدم اكثر من اثني عشر عاماً تلاه تقلص سريع .

وكان أمين الريحاني صديق آل سعود أكثر واقعية فقال مقوّماً عهد سعود الكبير[٢٢] «لا حاجة لذكر البسالة في سعود والاقدام فان فتوحاته الشاهد الأكبر على ذلك .الا أنه لم يكن على شيء من الادارة ولا كان النظام عنده معروفاً ، فما كان يربط النواحي ببعضها غير كلمة الأمير فاذا ذهبت صولته ذهب الملك» .

وقد أراد الريحاني أن يقول بصورة لبقة إن سعود لم ينشيء دولة على أسس نظامية متمدنة لتستمر بالبقاء بل كان حكمه بدويا عشائرياً لا يعتمد على مؤسسات ويزول بزواله . وهكذا كان .

الحملة المصرية الأولى ١٨١١

بعدما فشل ولاة العراق والشام بالتصدي للوهابيين استجاب محمد علي باشا لالحاح السلطان العثماني فجند حملة في خريف ١٨١١ مؤلفة من ثمانية آلاف من الجنود ومعهم ضباط أوروبيون تحت قيادة ابنه طوسون الذي كان ما يزال في السابعة عشرة من عمره جاء منهم ستة آلاف بالسفن الى ينبع والفان برا .

زحف الجيش المصري من ينبع . فتصدى له السعوديون بقيادة عبد الله ابن الامام سعود ، في مكان قرب المدينة وتغلبوا عليه وغنموا منه ارزاقا واسلحة كثيرة وعاد طوسون بجيشه الى ينبع .

في تلك السنة حج الامام سعود الى مكة للمرة السادسة او السابعة وأرسل نجدات اليها ، وأمر بتحصينها ثم عاد الى نجد . ولا يعلم سبب مغادرته الحجاز مع علمه بأن طوسون كان ينتظر النجدات في ينبع ، وأن عرب الحجاز ينتظرون الفرصة للتخلص من الحكم الوهابي .

وصلت النجدات المصرية عام ١٨١٢ فزحف طوسون على المدينة وانضم اليه كثير من عرب جهينة وحرب ، فحاصرها وقطع عنها المياه وكان فيها سبعة الاف من أهل نجد . فدخل المصريون البلد ، وقتل من النجديين نحو أربعة آلاف[٢٣] ، ثم تابع طوسون حتى دخل مكة والطائف ، بمساعدة الشريف غالب من دون قتال عام ١٨١٣ .

ثم جاء محمد علي نفسه على رأس نجدات جديدة فوصل جدة في أغسطس (آب) من تلك السنة وانتقل منها الى مكة .

في العام التالي (١٨١٤) توفي الامام سعود في الدرعية ، وهو في الثامنة والستين من عمره وكانت ولايته احدى عشرة سنة من يوم وفاة والده عبد العزيز ، وسبع وعشرين سنة اذا حسبناها من يوم بويع بالامارة زمن والده .

الامام الرابع عبد الله بن سعود

الانشقاق العائلي الأول ١٨١٤

بعد وفاة سعود الاكبر ، خلفه ابنه عبد الله ، وهو الامام الرابع ، لكن عمه عبد الله بن محمد نازعه الحكم ، وانقسمت العائلة السعودية على بعضها مما سهل مهمة الجيش المصري الذي كان يستعد لاكتساح نجد .

في العـام التـالي قاد محمـد علي حملة على تربـة وهي تبعـد ثمانـين ميـلا من الطـائف شرقـاً بجنـوب ، فانتصر على جيش سعودي قدر بأربعين ألفاً يقودهم فيصـل بن سعـود . فاحتـل تربـة ثم بيشة وهي مفتاح اليمن الشرقي فاستسلم أهلها ، ومنها استولى على عسير ، وقضى فيها على آخر مقاومة وهابية ثم عاد الى مكة ومنها الى القاهرة في يونيو (حزيران) ١٨١٥ .

بقي طوسون في الحجاز بعد حملته على نجد . ويقول عنه الريحاني أنه كان مثل أبيـه وأخيـه ابـراهيم متسـاهـلا في أمـور الـدين وكـان يميـل خصـوصـا الى الأوروبيين ، ويحب الانتفاع بعلومهم واختراعاتهم(٢٤) .

زحف طوسـون على الـرسّ في نجـد فاستسلم أهلهـا . وجـاء عبد الله بن سعود يخرجه منها فلم يتمكن ، فقال له أهل نجد أخرج الى طوسون أو اخرج عليـه أي صالحـه أوحاربـه . واتفق الفـريقـان على صلح (١٨١٥) تعهد فيه النجديون بأن يأذنوا بالحج ويؤمنوا السبل ، وتعهد طوسون بالخروج من نجد .

وعـاد طوسـون الى القـاهـرة حيث توفي بعـد قليـل . ولم يوافق والـده على الصلح المعقـود فجهـز ابنـه ابـراهيم بحملة جديـدة على نجد . وكان ابراهيم «صلب العـود شديـد البطش ، ثابتاً في عزمه ومقاصده ، جلوداً تدوداً ، إرادته من حديد ، وقلبه مثل ارادته» .

سافـر ابـراهيم بحـراً الى ينبـع فوصلها بتاريخ ٣٠ سبتمبر (أيلول) ١٨١٦ ومعـه ستـة آلاف جندي ومدافع ضخمة لم ير أهل نجد مثيلا لها من قبل . سار من ينبـع من دون مقـاومـة الى المدينة ، ثم انتقل بجيشه الى الحناكية على بعد تسعين ميلا شرقي المدينة ، فعسكر هناك ستة أشهر وبدأ باغراء البدو للانضمام اليـه ، فجـاءتـه حرب وعتيبـة ومطير بزعامة فيصل الدويش . ووقفت القبائل الحجـازيـة بقوة الى جانب الجيش المصري فاشتد جيشه وقوي . ومما يدعو الى الاستغراب ان هذه القبائل كانت وهابية قبلت الدعوة وحاربت مع الامام سعود لنشرها .

سار ابـراهيم باشـا من الحناكية على الرس فقاومه أهلها ثم استسلموا ، ثم احتل عنيزة وبريدة والمذنب وهي آخر بلدة في جنوب القصيم . ثم دخل الوشم في ديسمبر ١٨١٧ واحتل أهم بلدانه شقرا . فسلمت بلدان الوشم الأخرى . وقـاومـه أهل ضرمى فأباحها لجنوده وقتلوا من أهلها ثمانماية ودمروها . ، وساروا في وادي حنيفـة يحتلون قراه حتى اشـرفـوا على الدرعية وباشروا حصارها في ١ ابريل (نيسان) ١٨١٨ .

تدمير الدرعية

استمر الحصار خمسة أشهر وكانت تتوالى على ابراهيم باشا النجدات والذخيرة من مصر ، والارزاق من البصرة والمدينة ، والمواشي والسمن من القصيم . وبقيت قبائل البدو التي انضمت اليه تناصره ما دامت عطاءاته مستمرة .

في نهاية الشهر الخامس من الحصار ، أي في نوفمبر ١٨١٨ ، استسلم عبد الله بن سعود الى ابراهيم باشا فأرسله أسيرا للقاهرة ثم للاستانة حيث طوّفوه في الاسواق ثم أعدموه . وقتل في الدرعية عدد كبير من آل سعود وآل الشيخ ونفي قسم منهم الى مصر . وسجل التاريخ دخول أول جيش اجنبي الى قلب الجزيرة العربية وبذلك انتهت الدولة السعودية الأولى[٢٥] .

أقام ابراهيم باشا في الدرعية سبعة أشهر ثم أمر بتدميرها فأصبحت أثرا بعد عين . ، وانسحب ابراهيم باشا بجنوده من نجد في صيف ١٨١٩ وحل محله الجنود الأتراك فضربت الفوضى أطنابها في البلاد .

الامام الخامس تركي بن عبد الله

بروز فرع سعودي جديد
١٨٢٣-١٨٣٤

كان تركي بن عبد الله بن سعود أحد الشيوخ الذين فروا أمام القوات المصرية ولاذ بالخرج وبقي متوارياً في البادية الى عام ١٨٢٣ حيث جمع انصاره واستولى على الرياض في العام التالي وطرد الحامية المصرية واصبح الامام الخامس .

سيطر الامام تركي على نجد ومد نفوذه على جبل حائل والاحساء والقطيف . اما الكويت فقد دفع شيخها عبد الله الصباح (١٨١٤-١٨٥٩) الزكاة للامام تركي دليلا على طاعة الكويت لآل سعود[٢٦]

الامام السادس مشاري بن عبد الرحمن
والامام السابع فيصل بن تركي

انشقاقان متتابعان ١٨٣٤

إنتهت ولاية الامام الخامس تركي بن عبد الله اغتيالا على يد إبن عمه مشاري بن عبد الرحمن الذي استولى على السلطة وأصبح الامام السادس. ودام حكم مشاري أربعين يوماً اذ زحف فيصل بن تركي من الهفوف الى الرياض بمساعدة عبد الله وعبيد من آل الرشيد، شيوخ حائل، واستولى على المدينة، واعدم مشاري وأصبح فيصل الامام السابع في العائلة السعودية. وينقسم حكمه الى ثلاثة أقسام: دور مشاركته لأبيه في الحكم، ثم فترة حكمه الأولى ١٨٣٤- ١٨٣٧، ثم فترة حكمه الثانية ١٨٤٣- ١٨٦٥.

الامام الثامن خالد بن سعود

الحملة المصرية ١٨٣٦ والانشقاق العائلي الرابع

خلال هذه السنوات كان والي مصر محمد علي باشا قد استقل عملياً عن الامبراطورية العثمانية، بعدما فتح عكا وأخضع سائر الديار الشامية. عندها تفرغ لانهاء الفتن في الجزيرة العربية، وصار يطمح الى ملك مستقل عن العثمانيين، يشمل مصر والسودان وبلاد الشام والجزيرة العربية وأقطار الخليج والعراق. وكان يرى في قيام الدولة السعودية ما يهدد سيادته في نجد والمناطق الشرقية والحجاز. لذلك عزز قواته في الحجاز وزحف على نجد عام ١٨٣٦. وكان من أعوانه خالد أصغر أبناء سعود الكبير وأخو الامام عبد الله الذي استسلم لابراهيم باشا في الحملة المصرية الأولى وأعدم في اسطنبول.
نشأ خالد بن سعود في القاهرة في كنف محمد علي الذي أعده ليتولى الحكم

في الجزيرة العربية نيابة عنه ، وكان لخالد أنصاره الذين لم يرضوا عن انتقال الامامة من أولاد سعود الكبير الى أولاد عبد الله بن محمد . وخالد من أم حبشية ، متوقد الذهن رقيق الشعور نشأ في بيئة القاهرة الأكثر تقدماً ورقياً وجاء يحكم نجد حكماً عصرياً[٢٨] .

أرسل محمد علي باشا مندوباً الى فيصل يطلب منه الاعتراف بالسيادة المصرية ودفع الخراج ، فحاول فيصل استرضاءه وأرسل أخاه جلوي ومعه الهدايا الى أحمد باشا والي الحجاز طالباً توسطه لاقناع محمد علي باشا بأن فيصل لم يتمرد ولا موجب لتجريد حملة عليه . لكن الوساطة فشلت .

وجد فيصل أن أهل الرياض وقبائل كثيرة مالت الى الأمير خالد لأنه كان يمثل نزعة مدنية بحكم تثقفه في القاهرة ، مما دعا فيصل الى ترك الرياض .

من ناحية أخرى ، لم يتمكن عبد الله بن رشيد حليف فيصل من مقاومة المصريين في حائل ففر منها بأمواله وأسلحته ، وخضعت نجد بكاملها للجيش المصري .

دخل الأمير خالد الرياض سنة ١٨٣٧ وقدمت له القبائل الطاعة فأعاد الامامة الى فرع سعود الكبير واصبح الامام الثامن .

في العام التالي أسرت القوات المصرية الامام فيصل ونفته ثانية الى القاهرة . وهكذا انتهت الفترة الثانية من حكم فيصل التي امتدت من ١٨٣٤-١٨٣٨ . وأصبحت الجزيرة العربية تحت سيادة محمد علي من البحر الاحمر الى الخليج بعدم احتلت قوات قائده خورشيد باشا الاحساء والقطيف وسيهات وتاروت .

بعد ذلك وقع شيخ البحرين عبد الله آل خليفة معاهدة حماية مع خورشيد باشا ليساعده ضد بعض افراد اسرته . وارسل خورشيد وكيلا الى واحة البريمي ممثلا للامير خالد لتثبيت السلطة المصرية في عُمان باعتبارها وريثة الدولة السعودية .

لم يدم الحكم المصري طويلا بسبب تطورات دولية لا علاقة للجزيرة العربية بها . فقد وقفت بريطانيا ضد امتداد نفوذ مصر الى الخليج ومصب دجلة والفرات خوفا على العراق ، وعلى مصالحها التجارية في الخليج ، وعلى مواصلاتها البحرية والبرية مع الهند ، فأنذرت شيوخ الشاطيء المتصالح بعدم التعاون مع المصريين واصبحت مواصلات خورشيد باشا البحرية مع مصر تحت رحمة بريطانيا بعدما احتلت عدن عام ١٨٣٩ .

ولم تكن بريطانيا تعبأ باحتلال السعوديين لشاطيء الخليج الغربي لأنهم

بنظرها مجموعة من القبائل لا تشكل خطرا على مصالحها . اما الاحتلال المصري فأمر آخر خصوصاً وأن محمد علي باشا كان حليفاً لفرنسا .

معاهدة لندن ١٨٤٠

استطاعت بريطانيا أن تؤلب الدول الاوروبية على محمد علي مبيّنة لها أن دعم دولة عثمانية ضعيفة أفضل للمصالح الأوروبية من دولة مصرية فتية وتوسعية . وعلى هذا قررت الدول الأوروبية في معاهدة لندن عام ١٨٤٠ وجوب انسحاب محمد علي باشا من بلاد الشام والجزيرة العربية مع بقاء مصر في ولايته ، له ولأولاده من بعده ، تحت السيادة العثمانية الاسمية .

وهكذا انسحبت الجيوش المصرية من نجد وتركت خالد بن سعود وحيداً .

الامام التاسع عبد الله بن ثنيان
١٨٤١ - ١٨٤٣

قام على خالد ابن عمه عبد الله بن ثنيان بن ابراهيم وهو من فرع ثالث في العائلة السعودية وأصبح الامام التاسع ودام حكمه سنتين الى ١٨٤٣ .

ترك خالد الرياض وذهب الى الاحساء عام ١٨٤١ فسقطت الرياض واستتب الأمر لعبد الله الذي استعمل الشدة والفتك بمن عادوه .

وغادر خالد الاحساء الى الدمام ثم الى الكويت ومنها سار سرا الى القصيم ثم الى مكة فتعاون مع الشريف إبن عون ضد أولاد عمه بن آل سعود . وتوفي خالد في مكة عام ١٨٦٠ .

كانت الأحوال المعيشية سيئة في الجزيرة من كثرة الاقتتال وقد زادت الضرائب لمصاريف الحرب وصاحبتها شدة بالتحصيل . وعمّت الفوضى وأعمال السلب والنهب لضعف الحكومة المركزية .

زاد في متاعب عبد الله بن ثنيان انتشار المذهب الشيعي في الساحل الشرقي ووجود تقليد استقلالي فيها بزعامة آل عريعر من بني خالد وهم أصحاب السلطة القوية في الاحساء . كما أن شيوخ البحرين كانوا يشجعون مقاومة آل سعود لأنهم بالاضافة الى الخلاف المذهبي ، كانت لهم املاك كثيرة في سيهات

والدمام والدوحة والقطيف والزبارة وكانوا يدعون حق السيادة على شبه جزيرة قطر .

كتب عبد الله بن ثنيان لشيوخ منطقة الخليج موضحا لهم نيته بالسيطرة على الريمي وعمان ودعاهم لتقديم المساعدة . فأرسل المقيم البريطاني في بوشهر كتبا للشيوخ يحذرهم من التعاون مع آل سعود . كما كتب إنذارا لابن ثنيان يتهمه بالعودة الى تشجيع القرصنة في الخليج[٢٩] .

هل نجحت الدولة السعودية الوهابية الأولى ؟

أحد الشروط الموضوعية لفهم التاريخ : أن تفهم كل ظاهرة سياسية ، أو حركة فكرية ، أو نهضة اجتماعية في اطار ظروفها المحلية والعالمية .

وللوفاء بهذا الشرط ، يلزمنا التعرف على الظروف والملابسات والمناخات التي تخللت حركة الانبعاث الديني والقومي التي بدأها وقادها : محمد بن سعود ومحمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية .

ففي أي حقبة تاريخية ظهر هذان الرجلان ، وفي أي وقت تحالفا سياسياً وعقائدياً ، وتعاونا على الاصلاح ؟

لقد ظهر الرجلان في القرن الثامن عشر .

ومن المعروف ان القرن الثامن عشر كان هو الساحة الزمنية الأوسع التي جرت فيها التحولات الجذرية الكبرى ، في تاريخ البشرية الحديث .

صحيح ان النهضة العلمية والصناعية قد سبقت القرن الثامن عشر ، ولكن من الصحيح - كذلك - ان مد التحولات الاجتماعية والسياسية قد تعاظم وتدفق بقوة في القرن الثامن عشر ، واكتسح قوى الرجعية والتخلف ومناهضة التقدم .

ولعل السبب في تأخر انطلاقة هذا المد التقدمي بهذه القوة هو : ان معطيات النهضة العلمية والفكرية على المستوى الاجتماعي والسياسي احتاجت الى فترة معينة تتخمر خلالها وتتفاعل بالقدر الذي يجعل أثرها عميقاً ومستمراً في مستقبل الانسانية .

وليس من المعقول ان نعلل نهضة ابن سعود ، وابن عبد الوهاب بأنها أحد معطيات النهضة الأوروبية ، أو أحد آثار التحولات الاجتماعية والسياسية في القرن الثامن عشر .

ومن أقوى الأدلة على الفوارق بين النمطين : أن ما جرى في أوروبا كان ثورة على الدين ، وأن ما جرى في الجزيرة العربية كان ثورة بالدين ، ومن أجل الدين .

لكن التاريخ أثبت ، من ناحية أخرى ، أن للأحداث الكبرى في كل عصر أصداءً لا يمكن اسقاطها من الحساب ، ولا يمكن اغلاق الآذان دونها .

وعلى المستوى العربي ، كان الشعور القومي راكداً ، أوغافياً ، باستثناء بعض الحالات ، التي مهما قيل عن درجة يقظتها ، فانها لا تعتبر مشروعاً قومياً متكاملا يحمل في طياته فلسفة الهوية ، ودليل البناء الحضاري المتكامل ، وبرنامج الوحدة .

وعلى مستوى العالم الاسلامي ، لاحظ المؤرخ البريطاني الشهير «أرنولد توينبي» في وقت مبكر عوامل الانحطاط والتخلف في الامبراطوريات الاسلامية الثلاث ، المتزامنة وجودا في الحقبة الواقعة بين ١٥٥٥ و١٧٠٧ ، وهي الامبراطوريات : العثمانية ، والصفوية ، والمغولية(٣٠) .

ويتفق المؤرخون المعنيون بتاريخ الجزيرة العربية الحديث على أن الظروف المحلية لهذه الجزيرة ، كانت في زمن ابن سعود وابن عبد الوهاب مثقلة بالتخلف الفكري والروحي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي .

في هذه الأجواء العالمية ، والعربية ، والاسلامية ، والمحلية تعاهد رجل الدولة ، ورجل الدعوة على الاصلاح الاجتماعي ، والتجديد الديني ، والتصحيح السياسي .

فهل نجحا ؟

ان هذا السؤال مهم يتعلق بأول تجربة من نوعها في التاريخ الحديث من حيث هي أول تجربة حاولت تقديم البرهان العملي على امكانية قيام الدول في العصر الحديث على أساس ديني .

وقبل ايراد الايجابيات والسلبيات التي هي تلخيص للجواب عن السؤال المهم ، لا بد من أن نسقط من الحساب المبالغات المتناقضة .

فهناك مبالغات ترفع هذه الحركة الاصلاحية الى مستوى النموذج الأمثل للحكم الاسلامي لدى كل مسلم ـ ما عدا الشيعة ـ وهو نموذج خلفاء الرسول الأربعة .

وهناك مبالغة تعتبر هذه الحركة مجرد هوس ديني ، واستغلال سياسي ، ان ما قام به ابن سعود ، وابن عبد الوهاب ليس صورة طبق الاصل من النموذج

المثالي الأول ، الذي يعتقد المسلمون بأنه خير النماذج على الاطلاق ، وليس هوساً دينياً ، ولا استغلالاً سياسياً .

ان نهضة الرجلين لا تعدو ان تكون مشروعاً تعاونياً دينياً وسياسياً ، يستهدف نصرة العقيدة وتطبيق «السياسة الشرعية» في الحكم والادارة والأموال ، والقضاء ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على النحو الذي تصوره ابن تيمية ، وابن القيم ، ثم دوّنه الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتبه ورسائله مكيفاً بالواقع الذي واجهه .

وفي ضوء هذا يمكن القول دون خفة او منافقة في الثناء ، أن نهضة الرجلين الاصلاحية تضمنت ايجابيات لا تنكر ، كما تضمنت سلبيات ينبغي أن تذكر .

أولا : الايجابيات :

١- تحرير الناس في الجزيرة من الأوهام والخرافات ، و«الرجعيات الروحية» ان جاز التعبير .
٢- كسر قيد التقليد ، واعلان حق العقل في فهم النصوص .
٣- الاهتمام بالعلم والمعرفة بمعناها الديني والدنيوي .
٤- الاصلاح التربوي والاجتماعي .
٥- الاصلاح القضائي ، ورفع الظلم ، وتوفير الأمن .
٦- تقيد القرار السياسي والادارة السياسية بـ «الأصول الدستورية» وهي عند الرجلين القرآن والسنة ، واجتهادات الأئمة الموثوقين ، وبخاصة الامام احمد بن حنبل .
٧- الكفاح من أجل الوحدة ، أو الاتحاد .
٨- تجاوز الاقليمية عن طريق توسيع الاتصال بالعالم الخارجي لأجل نشر الدعوة .

ثانيا : السلبيات

١- بطء التحديث الاجتماعي ، فالتجدد العقلي والروحي ، لم يواكبه بالدرجة والعمق نفسه تجدد اجتماعي في مجال المرأة مثلا .
٢- ذوبان المفهوم القومي وتلاشيه في كثير من الأحيان ، وهذا شيء غريب في حركة عربية المنبت والفلسفة والقيادة ، ولكن علينا ألا ننسى أن الطابع الديني كان هو الغالب ، وأن المفهوم القومي لم يكن واضحاً تماماً في ذلك الوقت ، وأن الرجلين لم يشعرا بأنهما محتاجان الى شهادة تثبت عروبتها .

ومن المستطاع ايجاز الحديث عن الدولة السعودية الأولى في النقط المحددة التالية :

* ان الدولة السعودية الأولى كانت دولة عربية اسلامية ، ونداً عربياً قوياً على مستوى الحكم للشعوبية التركية ، وغير التركية .
* ان هذه الدولة نشأت في ظروف عالمية وعربية ومحلية شديدة التعقيد ، وانها صمدت في وجه حملات القمع والتخذيل ، «فالعثمانيون الذين قاوموا الجيوش الغربية والروسية والايرانية ، لم يتمكنوا من منع الدولة السعودية الأولى في نجد ، وذلك بعد دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣-٩٢) واتفاقه على العمل في سبيل الدعوة الاصلاحية مع محمد بن سعود (١٧٤٥)»[٣١] .
* وأنها كانت صورة جديدة بالنسبة للقرون الماضية ، من صور الحكم الاسلامي ، ونمطاً متقدماً من أنماط الحكم السعودي في الجزيرة العربية .
* وأنها تركت بصماتها الواضحة ، في التطورات العقلية والاجتماعية التي حدثت في جزيرة العرب من بعد ، كما تركت آثارها العميقة في محيطها الأقرب (الخليج العربي) ، ودائرتها القريبة (الوطن العربي) ومجالها العريض (العالم الاسلامي) .

الدولة السعودية الثانية

الامام العاشر فيصل بن تركي ١٨٤٣- ١٨٦٥

عودة فيصل والانشقاق العائلي الخامس

اتخذت مصر موقفاً عدائياً من عبد الله بن ثنيان ، الذي أقصى صديقها الأمير خالد عن الحكم ، فاطلقت سراح فيصل بن تركي سنة ١٨٤٣م ليعود الى الرياض ويستولي على الحكم من ابن ثنيان . وفي روايات عربية أن فيصل هرب خفية من سجنه في القاهرة ووصل الى نجد ، وهو قول يصعب تصديقه لصعوبة الفرار من بلد غريب ولبعد المسافة . ويقول أمين الريحاني : ان محمد علي باشا هو الذي أخرج فيصل من السجن ليعيده أميرا على نجد انتقاما من عبد الله بن ثنيان وليكسب ولاءه . وبالفعل ظل فيصل طوال حكمه الى سنة ١٨٦٥م محافظا على علاقاته مع باشا مصر[٣٢] .

غادر فيصل القاهرة مع ابنه عبد الله وأخيه جلوي (الذي تنحدر منه أسرة جلوي التي كانت حاكمة في المنطقة الشرقية الى وقت قريب) ، وابن عمه عبد الله بن ابراهيم وذهبوا الى جبل شمر حيث نصرهم عبد الله بن رشيد ، وتمكنوا بمساعدته من احتلال الرياض سنة ١٨٤٣م . وأسروا ابن عمهم عبد الله بن ثنيان ، الذي توفي بعدئذ في السجن . وأصبح فيصل الامام العاشر وبدأ تاريخ الدولة السعودية الثانية . وكان حكم فيصل هذا أطول حكم لامام من آل سعود ، ما بين سقوط الدرعية بيد الأتراك عام ١٨١٨م ، وبداية العهد الحالي الذي أسسه الملك عبد العزيز . ومع فيصل انتقلت السلطة ضمن العائلة السعودية من أولاد سعود الكبير الى أولاد فيصل الذين يحكمون حالياً .

كان حكم فيصل هذا فترة توطيد وبناء وتنظيم اداري واقتصادي لم تخلُ من متاعب . اذ قامت ثورات في الاحساء وفي القصيم التي كان سكانها يتعاونون مع شريف مكة محمد بن عون ويريدون أن تكون منطقتهم حيادية غير خاضعة لآل سعود . ولم تكن الحالة في مناطق جنوب الرياض بأفضل منها في المناطق الشرقية والقصيم .

لكن الامام فيصل تغلب على هذه الثورات وأخضع المناطق وانتزع قطر من حكام البحرين وضمها اليه وبقي حكامها آل الثاني موالين لآل سعود . كان لدى قطر ثلاثماية سفينة أصبحت تحت تصرف الامام فيصل في الخليج .

لكن يبدو أن السلطة السعودية لم تشمل الكويت التي لم تدفع الزكاة للسعوديين[٣٣] .

حدود دولة فيصل

يقول لويس بلي Louis Pelly المعتمد البريطاني في الخليج ، في تقرير بعث به الى حكومته ، وقد زار الرياض سنة ١٨٦٥م قبيل وفاة فيصل ، إن السعوديين كانوا يسيطرون على الساحل الغربي من الخليج وعلى ساحل عُمان ويأخذون الزكاة النقدية أو العينية من شيوخ البحرين ، وأبوظبي ودبي وأم القوين ، والعجمان والشارقة ، ورأس الخيمة وسلطنة مسقط .

حدد فيصل دولته في الشرق لبلي فقال :[٣٤] «انها القسم الشرقي من بلاد العرب من الكويت الى القطيف وقطر ورأس الخيمة وعُمان ورأس الحد وما وراءها . وقال إن مسقط تدفع لنا الزكاة وقد أخذناها بقوة السلاح .

اما الحدود الشمالية فقد وصلت الى صحراء النفوذ وضمت جبل شمر الذي كان يدفع الزكاة لكنه مستقل بادارته تحت حكم آل رشيد . ومن الجنوب

صحراء الربع الخالي وشمال شرق عسير . ومن الغرب جبال تفصل بين نجد والحجاز .

ولم يبق لآل سعود سلطة في الحجاز بعدما أخرجهم محمد علي باشا منه وكانت العلاقات بينهم وبين الأشراف عدائية .

وفاة الامام فيصل

توفي الامام فيصل عام ١٨٦٥م بعدما أصيب بالشلل وفقد بصره وكان سلم الأمور لابنه عبد الله .

بعد وفاته شبت حرب أهلية بين أولاده الأربعة وهم عبد الله وسعود ومحمد وعبد الرحمن ، وعمت الفوضى في البلاد .

سياسة بريطانيا تجاه فيصل

سلكت بريطانيا سياسة عدم التدخل في الشؤون الداخلية للجزيرة الا بقدر ما يضمن السلام في الخليج . فكان موقفها من امتداد النفوذ السعودي اقل عداء من موقفها ضد النفوذ المصري أيام محمد علي باشا ، نظراً لأن هذا الأخير يمثل دولة ، في حين انها كانت ترى في آل سعود مجموعة قبائل لا يشكلون خطراً على ملاحتها أو تجارتها .

ولم يكن يعني بريطانيا ان يدفع شيوخ الخليج زكاة للامام السعودي ما دام ذلك لا يعني التدخل في شؤون المشيخات الداخلية والخارجية ، ولم تكن الزكاة تدفع بانتظام .

جاء في دائرة المعارف البريطانية «ان قبيلة القواسم كانت ذات كفاءة بالتجارة البحرية الى ان خضعت للنفوذ الوهابي سنة ١٨٠٥ وانصرفت لأعمال القرصنة[٣٥] » .

والجدير بالذكر ان السعوديين رغم احتلالهم لشاطىء الخليج في فترات مختلفة ، لم يصبحوا يوما دولة بحرية ، ولم يملكوا أسطولا خلافا للعتوب من أهل الكويت والبحرين وقطر . ولسكان عُمان والقواسم .

لكن الانكليز كانوا قضوا على القرصنة في عهد سبق ولاية الامام فيصل ، كما رأينا في الفصل الثالث فلم يسبب ذلك مشكلة بينهم وبينه .

كان الامام فيصل ، وأبوه تركي أكثر حكمة من سلفهم الامام سعود الكبير ، واتعظوا بما حل به لما تصدى لمقاومة دولة كبيرة فاعترفا بالسيادة العثمانية ، وطبق الامام فيصل نظام الالتزام الذي كان ساريا في تلك الدولة ،

ويقضي بأن يدفع الوالي للدولة مبلغا سنويا من المال دليلا على الطاعة ، ويستقل بتصرفاته الداخلية . وكان المال يرسل الى اشراف مكة الذين ينقلونه الى السلطان في اسطنبول . وتشير الوثائق الاجنبية[٣٦] ان شريف مكة ، استقطع ولاية نجد من الحكومة العثمانية مقابل ستين الف تومان في السنة ، والشريف بدوره يأخذ الخراج من نجد باسم الدولة العثمانية . ويبدو ان الامام فيصل لم يكن يدفع الخراج بشكل مستمر بل حسبما يمكنه تحصيله من زكاة الاعراب . وكانت الدولة العثمانية تنظر الى تركي وولده فيصل من بعده على انهما ولاة نجد والاحساء تابعان لها . وكانا قد قبلا ذلك منها[٣٧] .

وكان الامام فيصل أيضا أقل تعنتاً في شؤون الدين ، واكثر اعتدالا من الأئمة الذين سبقوه . فقد صادف زمن نفيه في القاهرة ، بداية الحركة الليبرالية لتحديث الاسلام ، ومن المحتمل ان يكون تأثر بها .

يقول المؤرخ سانت جون فيلبي ، في تقويمه لعهد الامام تركي وابنه فيصل ، «ان الدافع السياسي لا الحماس الديني ، هو الذي أوجد الدولة السعودية خلال حكم الامام تركي وابنه فيصل ، في حين كان للحماس الديني الأثر الأهم في قيام الدولة السعودية الأولى (١٧٤٤-١٨١٨) ، وفي بناء الدولة السعودية التالية (عهد الملك عبد العزيز) الذي اعتمد كثيرا على فرق الاخوان»[٣٨] .

الامام الحادي عشر عبد الله بن فيصل ١٨٦٥- ١٨٧١
الامام الثاني عشر سعود بن فيصل ١٨٧١- ١٨٧٥

الانشقاق العائلي السادس

بويع عبد الله بن فيصل بالامامة بعد موت والده واصبح الامام الحادي عشر . لكن أخاه سعود اعترض على ولايته وأدعاها لنفسه وحاربه وأطاح به سنة ١٨٧١ .

تعزى الفتنة بعد موت الامام فيصل للأسباب التالية[٣٩] :

أولا - طمع سعود بالحكم .

ثانيـا ـ مؤازرة بعض القبـائـل الكبـيرة له لاضعـاف السلطـة السعـوديـة والتخلص من دفع الزكاة واستعادة حرية التصرف خصوصا قبائل القصيم .

ثالثـا : شجـع الفتنـة آل رشيـد في حائـل ، وآل خليفة في البحرين ، وامام عُمان ، للتخلص من نفـوذ آل سعـود ومن الضـريبـة السنـويـة ، كما شجعهـا العثمانيون لاستعادة السيطرة على الاحساء .

رابعـا ـ كان عبـد الله متعصباً في شؤ ون الدين بخلاف سعود ، الذي كان يميل الى الاعتدال والتسامح .

استولى سعود على الاحساء وساعده شيخ البحرين وسلطان مسقط وقبائل بني خالد والعجمان وبني مرة وباتت الطريق مفتوحة الى الرياض فدخلها سعود عام ١٨٧١ . عنـدهـا أرسـل عبـد الله رسـائل الى مدحت باشا والي بغداد ، يطلب مسـاعـدته . فكانت المناسبة المرجوة عند العثمانيين لاستعادة الاحساء .

فجهز مدحت باشا حملة من خمسة آلاف جندي واستعان بناصر السعدون شيخ قبائل المنتفق ، وبعبد الله الصباح شيخ الكويت ، واعلن ان سعوداً ثائر ضد الـدولـة العثمانية وانه يتعاون مع الانكليز . ووسع مدحت باشا شقة العداء بين سعود وأخويه فاطلق محمداً من سجنه في القطيف .

اتجهت الحملة من البصـرة عام ١٨٧١ وسـاعدتها الكويت بالسفن والرجال فسارت بحرا الى العقير ، وبراً الى القطيف ، ثم احتلت الاحساء وقطر فقطع مدحت باشا بذلك الصلة بين نجد وعمان .

وأصدر مدحت باشا منشورا على السكان جاء فيه :

«ان نجـد وملحقـاتهـا تشكـل جزءاً من الممتلكات العثمانية ، أسوة بالعراق واليمن ومصـر وغـيرهـا . وبما أن سعود أسقط سلطة عبد الله القائممقام الذي عينـه السلطـان تابعـا لولاية العراق ، فقد أرسلنا قوة لمساعدة عبد الله واخضاع القبـائـل لسلطتـه . وقد وعدنا سعوداً بالعفو اذا تقدم واعتذر عن تصرفه ، والا فسنـدمـره مع القبـائل التي تناصره» . واستمرت السيطرة العثمانية على المنطقة الشرقية الى قبيل الحرب العالمية الأولى .

والجـديـر بالمـلاحظـة ان العثـمانـيين كانـوا يعتـبر ون الامـام الوهابي بمثابة قائممقـام تابـع لمتصـرف البصـرة ثم لوالي بغـداد ولا يعير ونه أهمية تذكر . فقد كانت نجد بمجملهـا صحـراء نائيـة معـزولـة عن العـالم ، ليس فيها زرع ولا ضرع ، وليس لها أثـر فيـما يشغـل الـدولة العثمانية من سياسات دولية . كما أنها بعيـدة عن أن تكـون لها قيمـة استـراتيجيـة . ويأتي القـائممقـام في الـترتيب الاداري العثـماني في الـدرجـة السفلى الثانية ، اذ يتدرج حكام المقاطعات من

مدير ناحية ، أي حاكم بضع قرى ، الى قائممقام يدير عدداً من الأقضية والمدن ، الى الوالي وهو قمة الادارة في المقاطعات يدير قطراً كبيراً كولاية بغداد وولاية دمشق ، وولاية حلب ، وولاية بيروت الخ . . ويتبع الوالي وزير الداخلية في العاصمة مباشرة .

دامت ولاية الامام سعود الى وفاته عام ١٨٧٥ . وشهدت نجد خلالها كثيرا من المحن «فقد اجتاحتها مجاعة عامي ١٨٧١ و١٨٧٢ . فمن لم يمت بالسيف مات جوعاً . وكان الناس يأكلون جيف الحمير ويحرقون جلود الماعز ويدقونها بل كانوا يدقون حتى العظام ويأكلون مسحوقها»[٤٠] .

كذلك انفصل جبل شمر والقصيم والاحساء عن السلطة السعودية .

افتتاح قناة السويس ١٨٩٦

في هذا الوقت جرى حدث ذو اهمية استراتيجية عالمية ، واقليمية ، اثر على مستقبل المنطقة بكاملها لاجيال قادمة . فقد افتتحت قنال السويس عام ١٨٦٩ ، واتصل البحر الابيض المتوسط بالبحر الاحمر والمحيط الهندي ثم بالشرق الاقصى عن أقصر طريق . فصارت الاساطيل الاوروبية تجوب بسهولة البحار المحيطة بالجزيرة العربية . واستفادت بريطانيا على الخصوص من الوضع الجديد وتعزز نفوذها في المنطقة وصارت لها الكلمة الاولى .

ونتج عن ذلك ايضا ان الخليج فقد أهميته الستراتيجية كطريق للمواصلات والتجارة ما بين الهند وبلاد الشرق الأدنى وأوروبا . وتعزز دور البحر الأحمر . وبقي الأمر كذلك الى حين اكتشاف البترول في العقد الرابع من هذا القرن فعادت الى الخليج أهميته الاقتصادية والستراتيجية .

الامام الثالث عشر عبد الرحمن بن فيصل

الانشقاق العائلي السابع والثامن وسقوط آل سعود ١٨٨٧

اذا كانت الاحداث والنزاعات السابقة ضمن العائلة السعودية معقدة فان ما سيأتي بعث على الارتباك .

فقد توفي الامام الثاني عشر سعود بن فيصل في الرياض في يناير ١٨٧٥ . وكان أخوه ومنافسه عبد الله في الصحراء مع أخيه محمد وبعض رؤساء

القبائل . وكان في الرياض عبد الرحمن الابن الرابع لفيصل الذي اخذ الامر بيده وأعلن نفسه اماما خلفاً لأخيه سعود فأصبح الامام الثالث عشر . وآزره أولاد أخيه سعود ضد أخيه وعمهم عبد الله . ولم يطل الوقت حتى اختلف عبد الرحمن مع أولاد سعود فترك الرياض ، وأصلح شأنه مع أخيه عبد الله بن فيصل ، وأقر له بالامامة ، فشكل الاخوة الثلاثة عبد الله ومحمد وعبد الرحمن جبهة موحدة ضد أولاد أخيهم سعود . وعاد عبد الله بن فيصل اماما (الامام الرابع عشر والأخير قبل سقوط دولة آل سعود) .

زحف الاخوة الثلاثة على الرياض فتركها أولاد سعود واعتصموا بمنطقة الخرج . وبعد ثلاث سنوات ، زحفوا من الخرج على الرياض وأسروا عمهم الامام عبد الله . وكان هذا قد استنجد بمحمد بن رشيد شيخ شمر ضد أولاد أخيه . فهاجم ابن رشيد الرياض سنة ١٨٨٧ وفك اسر الامام عبد الله ، لكنه أخذه معه الى حائل كضيف دائم حيث توفي سنة ١٨٨٩ . وسارعت قبائل نجد تقدم الطاعة لمحمد بن رشيد مع أنه لم يكن وهابياً بل كان حليفا للخليفة العثماني يتبع المذهب الحنفي ، ويستمد منه المال والسلاح .

والجدير بالملاحظة ان آل رشيد استولوا على نجد ، وقضوا على حكم آل سعود من دون معركة . وكان من أهم أسباب نجاحهم ، النزاعات الداخلية ضمن العائلة السعودية والحروب الدامية بين أفرادها الطامعين بالامامة ، وضعف ولاء السكان للدعوة الوهابية .

وهكذا انتهت الدولة السعودية التي دامت من ١٧٤٤ـ ١٨٨٧ . وقد علل المؤرخ هاري سانت جون (عبد الله) فيليبي ذلك بقوله : «ان الوهابية فقدت زخمها ، لما توسعت فوق طاقتها فانهزمت . وهكذا خسروا الأرض والحركة الوهابية» .

عين محمد بن رشيد ، سالم السبهان ، وهو شمري من أخواله ، حاكما على الرياض ، والملفت للنظر ان شيخ الكويت مبارك الصباح كان مؤيداً لابن رشيد في سياسته ضد آل سعود ، طيلة هذه الفترة .

عندما توفي الامام عبد الله الفيصل في حائل ، انتقلت الامامة الوهابية وزعامة آل سعود الى أخيه عبد الرحمن ، الذي كان في الرياض ثم غادرها كما سنرى في الفصل التالي .

شمر وآل رشيد

كانت الرئاسة في شمر في القرن التاسع عشر لآل رشيد . وشمر ، كما يقول أمين الريحاني «من أكبر قبائل العرب عدداً وأرسخهم في القومية ، وأبسلهم في القتال . ولم يؤثر المذهب الجديد (الوهابي) في عصبيتهم الشمرية ، فأهل الجبل لا يغالون في الدين ، كبعض أهل نجد . وقد كانوا في الشطر الثاني من القرن التاسع عشر ركن ابن الرشيد ونار علمه ، وآية عزه ونصره ، ولم تستطع العصبية الوهابية ان تحل محل العصبية الشمرية»[٤١] .

تقطن قبائل شمر الاراضي الشمالية في نجد وعاصمتهم حائل في جبل شمر . وتمتد منازلهم الى العراق وسوريا . وكانت العلاقة بين آل سعود ، وآل الرشيد في حالة مد وجزر تتراوح بين العداوة والصداقة .

أمراء حائل الرشيديون

توالى على حكم حائل منذ القرن التاسع عشر ثلاثة عشر أميراً كما ذكر أمين الريحاني هم[٤٢] :

١ ـ عبد الله بن علي بن رشيد توفي عام ١٨٤٨ .
٢ ـ طلال بن عبد الله . انتحر عام ١٨٦٦ .
٣ ـ متعب أخو طلال . قتله أبناء أخيه بندر وبدر عام ١٨٦٨ .
٤ ـ بندر بن طلال بن عبد الله . قتله عمه محمد عام ١٨٧١ .
٥ ـ محمد بن عبد الله الذي يُدعى «الكبير» كان عاقراً ومات موتاً طبيعياً . تولى الامارة من ١٨٧١ـ١٨٩٧ ، واستولى على نجد كله . قتل أولاد أخيه طلال انتقاما لقتلهم عمهم متعب شقيق محمد .
٦ ـ عبد العزيز بن متعب بن عبد الله . قتل في معركة روضة المهنا ضد عبد العزيز آل سعود عام ١٩٠٦ .
٧ ـ متعب بن عبد العزيز حكم عشرة أشهر وقتله أبناء حمود بن عبيد مع أخويه مشعل ومحمد عام ١٩٠٦ .
٨ ـ سلطان بن حمود بن عبيد . حكم سبعة أشهر وقتله أخوه سعود .
٩ ـ سعود بن حمود بن عبيد . حكم أربعة عشر شهرا وقتله سعود بن عبد العزيز وأعاد الامارة الى آل عبد الله .

١٠ـ سعود بن عبد العزيز بن متعب بن عبد الله . قتله عبد الله بن طلال عام ١٩١٩ وهو من آل عبيد .

١١ـ عبد الله بن طلال . قتله عبد من عبيد سعود .

١٢ـ عبد الله بن متعب بن عبد العزيز بن متعب ابن أخ الأمير سعود المقتول . لجأ الى عبد العزيز بن سعود وأقام لديه .

١٣ـ محمد بن طلال بن نايف بن طلال . دافع عن حائل وجبل شمر الى ان انكسر فاستسلم لعبد العزيز بن سعود في ٢ نوفمبر ١٩٢١ .

لقد كان آل رشيد أكبر منافسي آل سعود على زعامة نجد خصوصاً في عهد الملك عبد العزيز آل سعود . اما قبل ذلك فكانت العلاقات مع شمر متقلبة بين الحرب والمودة . فقد هاجم سعود الكبير جبل حائل وأجلى عشيرة جربا الشمرية الكبيرة الى العراق . لكن عبد الله وعبيد الرشيد ساعدا الامام فيصل بن تركي على احتلال الرياض عام ١٨٣٤ وعلى الانتقام من ابن عمه مشاري الذي قتل والده الامام تركي .

والتجأ امام فيصل مرة ثانية الى جبل شمر عندما عاد من القاهرة عام ١٨٤٣ فنصره عبد الله الرشيد وساعده على احتلال الرياض وتخليصها من عبد الله بن الثنيان . ودامت العلاقات ودية بين البيتين الى ان انقسم آل سعود على أنفسهم ، فسقطت نجد في يدي آل رشيد من دون قتال . اما الملك عبد العزيز فقد احتل جبل شمر عام ١٩٢١ وقضى على زعامة رشيد فهاجرت قبائل اخرى منهم الى العراق[٤٣] .

العبر المستخلصة

ان الاستعراض التاريخي الذي أوردناه والذي يتناول الحقبة من ١٧٤٤ الى سقوط الدولة الوهابية عام ١٨٨٧ ، يخولنا أن نستخلص بعض العبر فيما يتعلق بالحكم السعودي كسلطة سياسية ، وبالدعوة الوهابية كحركة سلفية .

الحكم السعودي كسلطة سياسية

ما بين قيام الحركة الوهابية عام ١٧٤٤ ويومنا الحاضر ، أي في مدة مائتين واربعين عاما ، توالى على الامامة من آل سعود عشرون إماماً بمن فيهم الامام الحالي فهد بن عبد العزيز أي بمعدل امام كل اثنتي عشرة سنة .

من هؤلاء العشرين ، ستة توفوا وهم أئمة ، وستة عزلوا من مناصبهم ، وستة قتلوا ، وأحدهم تخلى عن الامامة لابنه ، وآخرهم لا يزال اماماً .
* الامام الاول محمد بن سعود مات موتاً طبيعياً عام ١٧٦٥ .
* الامام الثاني عبد العزيز محمد (١٧٦٥- ١٨٠٣) اغتاله شيعي انتقاماً لغزوة كربلاء .
* الامام الثالث سعود بن عبد العزيز (١٧٨٨- ١٨١٣) مات موتاً طبيعياً .
* الامام الرابع عبد الله بن سعود (١٨١٣- ١٨١٨) أعدم في الاستانة .
* الامام الخامس تركي بن عبد الله (١٨٢٠- ١٨٣٠) اغتاله ابن عمه مشاري ابن عبد الرحمن .
* الامام السادس مشاري (١٨٣٠) قتله فيصل بن تركي انتقاماً لأبيه .
* الامام السابع فيصل بن تركي (١٨٣٠- ١٨٣٩) نفي الى القاهرة .
* الامام الثامن خالد بن سعود (١٨٣٩- ١٨٤١) خلعه ابن عمه عبد الله بن ثنيان وتوفي في المنفى .
* الامام التاسع عبد الله بن ثنيان (١٨٤١- ١٨٤٢) حبسه فيصل بن تركي ومات في السجن .
* الامام العاشر فيصل بن تركي (١٨٤٣- ١٨٦٥) تولى الامامة بعد عودته من القاهرة ومات وهو امام .
* الامام الحادي عشر عبد الله بن فيصل (١٨٦٥- ١٨٧١) عزله أخوه سعود .
* الامام الثاني عشر سعود بن فيصل (١٨٧١- ١٨٧٥) مات وهو امام .
* الامام الثالث عشر عبد الرحمن بن فيصل عزله أولاد سعود .
* الامام الرابع عشر عبد الله بن فيصل استعاد الامامة ولكن أولاد أخيه اعادوا الكرّة عليه فاستنجد بمحمد آل رشيد أمير حائل الذي تغلب على أولاد سعود وأخذ عبد الله ضيفاً الى حائل حيث توفي وهو شبه أسير عام ١٨٨٩ .
* وعادت الامامة الى الثالث عشر عبد الرحمن بن فيصل وهو يتنقل منفياً فيكون الامام الخامس عشر ، وقد تخلى عن منصبه في ولايته الثانية .
* الامام السادس عشر الملك سعود بن عبد العزيز (١٩٥٣- ١٩٦٤) عزل من منصبه وتوفي في المنفى .
* الامام الثامن عشر الملك فيصل بن عبد العزيز (١٩٦٤- ١٩٧٥) اغتاله ابن اخيه فيصل بن مساعد .
*الامام التاسع عشر الملك خالد بن عبد العزيز (١٩٧٥- ١٩٨٢) توفي وهو امام .

* الامام العشرون ، الملك فهد بن عبد العزيز لا يزال في منصبه .

يبرز من هذا السجل ان بين الأئمة الستة المقتولين واحداً اغتاله شخص غريب (عبد العزيز بن محمد) وآخر اعدم في الاستانة (عبد الله بن سعود) ، وأربعة قتلهم أقاربهم من آل سعود (تركي بن عبد الله ، مشاري بن عبد الرحمن ، وعبد الله بن ثنيان الذي مات في سجن فيصل بن تركي ، والملك فيصل بن عبد العزيز) .

وبين الأئمة المعزولين الستة ، فقد عزل محمد علي باشا الامام فيصل بن تركي (في دور امامته الاولى) ،واستسلم الامام الرابع عشر عبد الله بن فيصل لآل رشيد ومات في حائل ، وتنازل عبد الرحمن بن فيصل ، لابنه عبد العزيز . اما الائمة الثلاثة الآخرون ، وهم خالد بن سعود ، وعبد الله بن فيصل (في دور امامته الاولى) والملك سعود بن عبد العزيز فقد عزلهم أقاربهم من آل سعود .

ونلاحظ ان هذه الصراعات العائلية الحادة حول الامامة ، ثم الملك ، استمرت واستفحلت مع وجود عدو خارجي يهدد البلاد .

اجتاحت الجيوش المصرية الجزيرة العربية ، من البحر الاحمر الى الخليج ، وبسطت سلطانها عليها ، في زمن محروم من المواصلات الحديثة ، كان فيه الجنود يقطعون هذه الصحارى مشياً على الاقدام ، ولولا تدخل الدول الاجنبية ضد والي مصر محمد علي باشا ، لسياسات لا علاقة للجزيرة العربية بها ، لاستقر الحكم المصري في الحجاز ونجد والاحساء . وفي مرحلة أخرى استولى مدحت باشا والي بغداد ، على الاحساء وبقي فيها الى قبيل الحرب العالمية الأولى .

الدعوة الوهابية كحركة سلفية

تولى آل سعود الدعوة الوهابية في نجد ، وهي محيط اسلامي صرف ليس فيه سكان غير مسلمين ، وتوسع حكمهم بالقوة والبطش في مناطق اسلامية خالصة (نجد والحجاز وتهامة وعسير والاحساء) وعلى شعوب اسلامية سنية وشيعية ليس فيها مسيحي او يهودي او وثني .

ونرى أنه في المرحلة ما بين ١٧٤٥ الى ١٨٨٧ من تاريخ آل سعود كان اول ما فعله الشيخ محمد بن عبد الوهاب بعد ما تحالف مع محمد بن سعود انه دعا اتباعه الى الجهاد والغزو وحضهم عليه[٤٤] . وبقيت هذه السياسة هي المتبعة بلين احيانا ، وبقسوة أحياناً أخرى ، حسب ظروف كل امام .

مراجع الفصل الرابع

التوسع العسكري السعودي

١ ـ إبن خلدون ، عبد الرحمن ،كتاب العبر ، ج ٢ ، ص ٦٣٦ و٦٣٨ .
٢ ـ إبن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٧ .
٣ ـ الريحاني ، أمين ، تاريخ نجد الحديث ، ص ٢٥٩ـ ٢٦٠ .
٤ ـ قاموس «المنجد» .
٥ ـ عبد الرازق ، علي ، أصول الحكم ، ص ١٢١ نقلاً عن ابن خلدون .
٦ ـ المصدر السابق ، ص ١١٦ و١١٧ .
٧ ـ المصدر السابق ، ص ١١٦ .
٨ ـ أبو عليه ، عبد الفتاح ، محاضرات في تاريخ الدولة السعودية الأولى ، ص ١٦ .
٩ ـ المصدر السابق ، ص ١٩ و٢٠ .
١٠ـ المصدر السابق ، ص ١٢ .
١١ـ المصدر السابق ، ص ٢٣ .
١٢ـ المصدر السابق ، ص ٢٤ .
١٣ـ المصدر السابق ، ص ٢٥ .
١٤ـ المختار ، صلاح الدين ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، ج ١ ، ص ٧٢ .
١٥ـ ابن بشر ، عثمان ، عنوان المجد في تاريخ نجد ، ص ١٢١ـ ١٢٢ .
١٦ـ المصدر السابق ، ص ١٢٣ .
١٧ـ غالب ، محمد أديب ، أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي ، ص ٩٣ .
١٨ـ المصدر السابق ، ص ١١٦ و١١٨ .
١٩ـ السعدون ، خالد ، العلاقات بين نجد والكويت .

٢٠ـ المختار ، صلاح الدين ، سبق ذكره ، ج ١ ، ص ١١٠ .
٢١ـ الزركلي ، خير الدين ، شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز ، ج ١ ، ص ٣٩ .
٢٢ـ الريحاني ، أمين ، تاريخ نجد الحديث ، ص ١٦٠ .
٢٣ـ ابن بشر ، عثمان ، سبق ذكره ، ص ١٦٠ .
٢٤ـ الريحاني ، سبق ذكره ، ص ٧٧ .
٢٥ـ أبو عليه ، عبد الفتاح ، الدولة السعودية الثانية ، ص ٢٤ .
٢٦ـ المصدر السابق ، ص ١٠٩ .
٢٧ـ الريحاني ، أمين ، سبق ذكره ، ص ٩٥ .
٢٨ـ أبو عليه ، عبد الفتاح ، الدولة السعودية الثانية ، ص ٤١ .
٢٩ـ المصدر السابق ، ص ٨٢ .
٣٠ـ ارنولد توينبي ، تاريخ البشرية ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ .
٣١ـ المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٣٧ .
٣٢ـ الريحاني ، أمين ، سبق ذكره ، ص ٩٥ .
٣٣ـ أبو عليه ، سبق ذكره ، ص ١٣٠ .
٣٤ـ المصدر السابق ، ص ١١٢ .
٣٥ـ Encyclopedia Brittanica, Trucial Coast.
٣٦ـ من تقرير المعتمد البريطاني في الخليج عام ١٨٥٠ .
٣٧ـ أبو حاكمة ، أحمد ، تاريخ الكويت ، ج ١ ، ص ١٤٤ .
٣٨ـ Philby, Harry St. John, Saudi Arabia, p. 159.
٣٩ـ وهبة ، حافظ ، خمسون عاما في جزيرة العرب ، ص ٢٤٠ .
٤٠ـ الريحاني ، أمين ، سبق ذكره ، ص ٩٩ .
٤١ـ المصدر السابق ، ص ٣٠٤ و٣٠٥ .
٤٢ـ المصدر السابق ، ص ٢٩٦ .
٤٣ـ المصدر السابق ، ص ٢٩٧ .
٤٤ـ إبن بشر ، سبق ذكره ، ص ١٤ .

٥

آل سعود في المنفى

توفي الامــام عبـد الله الفيصـل في حائـل عام ١٨٨٩ ، فانتقلت الامـامـة الـوهـابيـة وزعـامة آل سعود الى أخيه عبد الرحمن الذي بقي في الرياض . وقد حاول عبـد الـرحمن استعـادة السيطـرة على البلدة من حاكمهـا الشمـري سالم السبهـان ، فحصلت منـاوشات بينهما في الرياض وحولها ، انهزم عبد الرحمن في أوائل ١٨٩١ ، وهام على وجهه مع عائلته . وفي رواية أخرى انه نمى اليه أن سالم السبهان ينوي قتله مع سائر آل سعود فاشتبك معه ثم غادر الرياض .

تبـع ذلـك فترة مشـوشـة . فقـد قصـد عبد الرحمن بني مرة في أطراف الربع الخالي وأقام بينهم مدة ثم ارسل نساءه الى البحرين للاقامة عند الشيخ عيسى آل خليفة .

وأقـام هو في الاحسـاء مدة ثم استضـافـه حاكم قطـر أربعـة اشهـر في نهايـة ١٨٩٢ . ثم عاد الى الاحسـاء وبقي يسعى مع الـدولـة العثـمانيـة ويستعطفها حتى سمحت له بالاقامة في الكويت ، وهو ما كان يتمناه ، فوصلها مع عائلته في تاريخ غير مؤكد ما بين ١٨٩٣ و١٨٩٦ .

وعيّنت له الـدولـة العثـمانيـة معـاشاً شهرياً ستين ليرة ذهبية لم تكن تدفع له بانتظام . وبقي آل سعود في حالة فقر شديد .

آل سعود في الكويت

لم يكـرم الشيـخ مبـارك الصبـاح ضيـافة آل سعود في الكويت فسكنوا ثلاث غرف من طين في أحد أزقة الكويت[1] .

كان الامام عبد الرحمن يميل ضمناً الى الشيخ محمد بن صباح والى صهره يوسف الابراهيم ، فلما استولى الشيخ مبارك على الحكم ، بعد مقتل محمد وأخيه جراح ، زادت الشقة بينهما[٢] . لكن ابنه عبد العزيز كان معجباً بشخصية الشيخ مبارك وكان يتردد على مجلسه . «ويبدو ان أول ما جذب الشاب الى الشيخ الكهل هو سحر شخصيته . اذ كان مبارك محدثا لبقاً بارع النكتة ، غني التجارب حافظا لأخبار التاريخ ، فحرص عبد العزيز لذلك على حضور مجالسه وسماع أحاديثه . وسر الرجل لأنه وجد مستمعا شديد الانصات لما يروي . وتطور هذا السرور الى اهتمام حين لاحظ علائم النجابة على ضيفه الشاب»[٣] .

صفات الشيخ مبارك (١٨٩١- ١٩١٥)

يقول عبد العزيز الرشيد مؤرخ آل صباح[٤] : مبارك هو الكويت بأسرها ، وهو الذي رفعها على ما سواها من أترابها ، واطار صيتها في سائر الاقطار ، فيه اشتهرت وبه زهت . وكان عصرها في يومه عصر الأمن والدعة ، عصر القوة والهيبة ، أصبحت درة في تاج الخليج العربي ، وامتدت اسطورتها في الفيافي والقفار ، وصارت تساوي البصرة في الشهرة .

اما أمين الريحاني المعجب بآل سعود فقد قال فيه[٥] : كان حاد المزاج شديد البأس كثير التقلب ، فيه شيء من الأسد وأشياء من الحرباء . بدوي الطبع حضري الذوق ، تارة يجبه الخصم وطورا يجامله ، كان كريما جوادا بل كان مسرفاً . يحب نواعم العيش ويقدمها على كل شيء الا حبه للمجد والسيادة . كان أميرا مجيداً لقب «بالحداقة» أي من يلف ويدور . نصف عمله سر والنصف الآخر خدعة (لعل ذلك لأنه محاط بقبائل وحكام أكثر عدداً ، وأوسع أرضاً ، كعشيرة المنتفق ، وآل رشيد ، وآل سعود) . لاعب العشائر وغالبها ، وما كان دائما من الفائزين . خطب ود الدولة العثمانية فماشته ، ثم انقلبت عليه . وغازل الدولة البريطانية فحمته من الطامعين . أحب آل سعود فطوقهم بذراعيه - أنتم أعز من أولادي - ثم ضرب بهم عدوه ابن الرشيد . أحب العجمان ثم حاربهم ثم اشعلهم حربا على ابن سعود . (انتهى الريحاني) .

لقد تبسطنا في وصف الشيخ مبارك نظرا للدور الكبير الذي لعبه في مصير آل سعود ، الى حين وفاته عام ١٩١٥ ، فقد كان آل سعود ، خلال اقامتهم في الكويت مدة سبعة أو ثمانية أعوام متعاونين مع الشيخ مبارك حسب ما تمليه مصالحهما . «وبعدما استولى عبد العزيز على الرياض بقي محتاجا الى

المساعدات الكويتية ، لتوطيد حكمه . ودامت هذه الفترة التي يسميها خالد السعدون «مرحلة التحالف المطلق» الى عام ١٩٠٤ .[٦] تلتها مرحلة «الاختلاف ضمن اطار التحالف» دامت الى حين وفاة الشيخ مبارك عام ١٩١٥ .

لقد كانت مجالس الشيخ مبارك بالنسبة للشاب عبد العزيز مدرسة . تلقى ، مما يدور فيها من أحاديث ، خبرة وتجارب في طريقة التعامل مع العرب والاجانب «ولعل أهم درس وعاه هو الحذر عند التعامل مع القوى الدولية والنظر بعين الاعتبار لمركز بريطانيا المتفوق في الخليج »[٧] .

وليس من المستبعد ، أن يكون مبارك ، قد رأى في عبد العزيز عنصرا يستطيع الاستفادة منه مستقبلا ، كما أن عبد العزيز حرص على صداقة مبارك ، أملا في الحصول على عونه ودعمه في تحقيق آماله . وهكذا كانت علاقة الرجلين مزيجاً من الصداقة والمنفعة المتوقعة .

سياسة مبارك

كان الشيخ مبارك يعتقد ان سلامة الكويت تقتضي ان يبقى وسط الجزيرة مقسما وموضع تنازع بين قبائلها ، فلا تظهر فيه قوة مسيطرة سواء كانت آل رشيد في حائل أو آل سعود في الرياض . وبقي هذا المبدأ الركن الأساسي الذي لا يتحول في تعامله مع القوى المحيطة به ، وهو يفسر تصرفاته وتحالفاته المتقلبة .

لذلك لم يكن مرتاحاً لاستيلاء ابن الرشيد على الرياض ، وبسط سيطرته على سائر نجد . فعمد الى مقاومته بتبادل الغزوات وبتقريب عبد العزيز آل سعود اليه ، واشراكه بغزواته على حائل ، ثم بمساعدته على احتلال الرياض وانتزاعها من آل رشيد .

وقد توثقت العلاقة الشخصية بين الكهل والشاب ، فكان مبارك يخاطب عبد العزيز ويكاتبه بقوله «ولدي» ، وكان عبد العزيز يبدي له احتراماً فائقاً ، ويخاطبه باسم «والدي» . واستمرا على ذلك رغم ما بدا بينهما من اختلافات سياسية لاحقة ، حتى وفاة الشيخ مبارك عام ١٩١٥[٨] .

يضاف الى ذلك ان اقامة عبد العزيز في الكويت ، الميناء المفتوح على العالم الخارجي ، أثرت في شخصيته ، فصار اكثر مرونة في التعامل مع الآخرين ، ومع الأحداث مما لو عاش تلك السنوات الست في بيئة نجد المغلقة . كما انها افادته في تبين أهمية الكويت الاقتصادية في المنطقة ، والتأثير السياسي الذي تمتعت به في المناطق المجاورة[٩] .

أثنـاء اقـامتهم في الكـويت ، كان آل سعـود يلحـون على الشيـخ مبـارك بتأييـدهم لاستعـادة سلطتهم في نجـد ، ويمنونه بوقوف أنصارهم الكثيرين في نجد الى جانبه حين يسلك ذلك السبيل[١٠] .

وكان العداء مستفحلا بين آل رشيد وآل صباح . فعندما توفي محمد بن رشيد عام ١٨٩٨ أوصى خلفه عبد العـزيـز الـرشيد بمقاومة مبارك الصباح باعتباره العدو الأول لأسرتهم[١١] .

كان عبد العزيز بن متعب الرشيد شاباً قوي العزم يميل الى القوة في تعامله السياسي[١٢] . فاتجه الى حسم علاقته مع الكويت مدفوعا بعدة عوامل . منها تقـريبـه ليـوسف الابـراهيم عدو الشيخ مبارك واستماعه الى نصائحه ، وطمعه بالاستيلاء على الكويت وثروتها التجارية ، وحاجة أراضي شمر الواسعة لمنفذ بحـري ، وتخـوفـه من عودة آل سعود الى الرياض بمساعدة الشيخ مبارك وهم مقيمـون عنـده . وكـان تخوفـه هذا في محله ، اذ أن مبـارك استفاد من وجود آل سعود لديه فشاركهم في غزواته ضد آل رشيد .

من ذلـك ان الامـام عبـد الـرحمن اتجه الى اقليم سدير في خريف ١٩٠٠ ، واغار على قبيلة قحطان الموالية لابن رشيد ، كما قام في الوقت نفسه رجال من المنتفق وقبائل أخرى مقيمة شمال الكويت بغزو أراضٍ تابعة لحائل . ورد عبد العـزيـز الـرشيـد على ذلـك بحشد نحو عشرة آلاف مقاتل توجه بهم ضد شيخ المنتفق الـذي انسحب الى ما وراء الفـرات . وطلب هذا النجـدة من الشيـخ مبارك فسار اليه مصطحبا عبد الرحمن وعبد العزيز آل سعود الا ان الاصطدام لم يحصـل لأن القـوات العثمانية فصلت بين الجيشين ، ثم أجريت تسوية بينهما في البصرة ، وانسحبت الجيوش الى بلادها . الا ان مبارك ارسل ابن سعود وابنه سالم مع قوة فتعقبـوا جيش ابن رشيـد واغـاروا على مؤخـرتـه غارة لم تسفـر عن شيء[١٣] .

معركة الصريف (فبراير ١٩٠١)

لم يدم الهـدوء الـذي اعقب تسـويـة البصـرة الا حوالي شهـر انصرف مبارك خلالـه الى حشـد قوة كبرى استعدادا لمهاجمة ابن رشيد في دياره وانجده حليفه سعدون المنصور من العراق ، وجند القبائل المحيطة بالكويت ، والحق بجيشه آل سعود وآل سليم وآل مهنا أمراء بريدة وعنيزة واتباعهم من النجديين المقيمين في الكـويت ، كما استمال العجمان ، وقبـائـل اخرى ، فتألف جيش من نحو عشرة آلاف مقاتل[١٤] .

وصلت الحملة في فبراير ۱۹۰۱ الى قرب القصيم فاستقبلها زعماء المنطقة ومنحوا تأييدهم لمبارك .

كان غرض الشيخ مبارك من اصطحاب آل سعود وآل سليم وآل مهنا معه توجيههم لاحتلال الرياض وعنيزة وبريدة ليشغلوا الشمريين عنه . ونجحت الخطة في بادىء الامر ، فاحتل آل سليم وآل مهنا بريدة وعنيزة . وهاجم عبد العزيز الرياض فتحصن أميرها عبد الرحمن بن ضبعان في قصرها . فشرع عبد العزيز بحفر خندق يصل الى القصر لينسفه بالبارود .

جرت المعركة الرئيسية بين الجيشين في الصريف في السابع عشر من مارس ۱۹۰۱ . وابتدأ عبد العزيز الرشيد بالهجوم . وقبل انتهاء النهار كانت قوات مبارك قد انهزمت هزيمة شنيعة ولم ينج مبارك شخصيا الا بجهد كبير . ولما بلغت اخبار المعركة الرياض سارع عبد العزيز الى فك الحصار والانسحاب ، وكذلك فعل أمير بريدة وعنيزة .

وكان ابن رشيد قاسيا منتقماً ، فقتل جميع الاسرى وسار الى البلدان النجدية التي رحبت بالحملة الكويتية فنكل برؤسائها ونزع السلاح من أهلها وفرض عليهم الضرائب الفادحة[١٥] .

كانت نتيجة معركة الصريف ان ابن رشيد فرض سيطرته على كل التخوم المحيطة بالكويت اضافة الى سيطرته التامة على نجد . ، فانتكست آمال آل سعود ، وتأثر بذلك اقتصاد الكويت المعتمد على التجارة تأثراً بليغاً حيث أصبحت الطرق التي تصلها بالداخل تحت رحمة ابن رشيد[١٦] .

وفي خريف تلك السنة (۱۹۰۱) غزا ابن رشيد الكويت ، فاستنصر الشيخ مبارك بسعدون باشا شيخ المنتفق ، الذي لباه ، كما استنصر بالانكليز . رأت بريطانيا في نجاح آل رشيد تعزيزا واضحاً للنفوذ العثماني وانتقاصاً لهيبتها في الخليج ، مما قد يساعد على تحقيق المشروع الألماني الذي بدأ يدور اللغط حوله ، ويرمي الى مد خط حديدي من برلين الى بغداد ، تكون نهايته على الخليج في الكويت حيث يسهل نقل الجيوش الالمانية من وسط أوروبا الى شاطيء الخليج لتهديد مواصلات بريطانيا مع الهند .

وكان لبريطانيا اسطول في الخليج وبارجة راسية امام الكويت . فلما اقترب الغزو الشمري نصبت بريطانيا مدافعها في البر اضافة الى مدافع الاسطول . وكان الشيخ مبارك قد حصن المدينة وبنى خندقا حولها . فحاصرها ابن رشيد لكنه لم يستطع دخولها واكتفى بنهب ثمانية الاف من الغنم والفين وسبعمائة من

الابـل للكـويتيـين . وأتلف كثيرا من مزارعهم وبساتينهم ثم انسحب وعسكر قريبا من الكويت .

الانكليز والعثمانيون يتفقون على استمرار «الوضع الراهن» في الكويت

بعـد معـركـة الصـريف ، همت الحكـومـة العثمانية بضم الكويت باعتبارها قائممقامية تابعة لمتصرفية البصرة، وخيرت الشيخ مبارك بين ثلاثة أمور: اما ان يسـافـر الى الاسـتـانة ، فيعين عضوا في مجلس الشورى . أويسكن في أية بلدة عثمانية يختارها ، والحكومة تقوم بما يحتاجه ، أو تستولي الدولة على الكويت بالقـوة .(١٧) وكـان الشيـخ مبـارك ينكـر حتى ذلـك التاريخ ان تكون بينه وبين بريطانيا معاهدة حماية ، فلما تلقى التهديد العثماني اضطر الى اعلان المعاهدة ، فانذر القائد البريطاني الوفد العثماني الذي جاء من البصرة بالرحيل . ثم اتفقت الحكومتان البريطانية والعثمانية على ابقاء الوضع الراهن على حاله فيما يتعلق بالكـويت .(١٨) لكن التـوتـر استمـر بين مبـارك والحكـومة العثمانية ، فارسلت بريطـانيـا خمس سفن حربيـة رابطت امـام الكـويت ، وضغطت على وزارة الخارجية العثمانية التي لم ترغب بالتورط في صدام مع بريطانيا ، بسبب خلافات قبـائـل ، فطلبت من ابن رشيـد العـودة الى بلاده ، وقـدمت له ترضيـة ماليـة مقدارها أربعة آلاف ليرة ذهبية .(١٩)

بقيت قضيـة الخـط الحديدي تتفاعل . ففي عام ١٩١٠ زار قنصل المانيا في الاستـانـة مدينة الكويت ، وغرضه البحث عن موضع صالح لنهاية خط حديد برلـين ـ بغـداد ، وقد رفض الشيخ مبارك العرض الألماني لارتباطه بمعاهدة مع بريطانيا تمنعه من أن يبيع او يؤجر شيئاً من أراضي الكويت قبل استشارة حليفته .

عندها حرض الالمان الاتراك فاستولوا على جزيرة بوبيان الواقعة عند مصب شاطيء العـرب وحصنـوهـا وبقيت بيـدهم الى نهايـة الحرب العالمية الاولى . وجزيرة بوبيان هي نفسها التي طالب العراق بملكيتها أو استئجارها قبل انشغاله بالحرب القائمة مع ايران ، ليجعل فيها مصب أنابيب بترولـه ، نظرا لانفتاحها على مياه الخليج ، وسهولة وصول السفن الكبيرة اليها .

آل سعود والعثمانيون أيام النفي

تتبين العلاقة بين الطرفين من رسالتين كتبهما الامام عبد الرحمن بن فيصل من الكويت الى السيد رجب النقيب نقيب اشراف البصرة يطلب منه التوسط في امره لدى متصرف البصرة .

كتب الرسالة الاولى يوم خروجه بالحملة مع الشيخ مبارك الصباح ضد آل رشيد عام ١٩٠١ وقال فيها : «ما يخفى عليكم قدم خدماتنا للدولة العلية ، أدامها الله رب البرية ، من وقت الآباء والأجداد وتعديات ابن رشيد على بلداننا وعشائرنا . وبسبب ظلمه لهم اكثر علينا أهل نجد الالحاح أن نتوجه لانقاذهم منه ، وقد لبينا طلبهم . فنرجو منكم ان تسترحموا لنا من حضرة والي البصرة وتعلموه سبب قيامنا ونحن خدام الدولة ، وعلى هذا عهد الله وميثاقه . أننا لا نزال نؤدي الخدمات لحضرة أمير المؤمنين أدام الله مجده وعزه» .[٢٠]

اما الرسالة الثانية فقد كتبها الامام عبد الرحمن عندما غادر الكويت للالتحاق بابنه عبد العزيز بعدما احتل الرياض وتاريخها صفر ١٣٢٠ (١٩٠٣) م قال فيها : «قبل هذا ارسلنا لكم كتابا شرحنا فيه أحوالنا . اننا خدام محسوبون على الدولة العلية . ولما صار علينا ما صار من غدر ابن رشيد ، لم نلجأ الى أحد الا الى الله تعالى ، ثم الى عدالة أمير المؤمنين أدام الله مجده . وقد طالت المدة علينا ، وأخذنا ننتظر تعطفاته الملوكية ، بأن نعطى من المعاش ما يقوم بأحوالنا وننصف ممن ظلمنا ، فلم يحصل لنا من آمالنا الا هذا المعاش القليل ، الذي لا يقوم ببعض أحوالنا . ومع ذلك لم يحصل لنا فيه شيء كل خمسة أشهر أو ستة أو شهرين . فلما ضاقت بنا الحال ، وتراكمت الديون علينا ، لم نعد نجد في الكويت ما نعيل به أنفسنا وأطفالنا واتباعنا ، فتوجهنا الى بلدتنا وعشائرنا . ونحن في كل حال ومكان لا نزال نؤدي الخدمات لحضرة أمير المؤمنين ، باذلين الجهد فيما يحصل به رضاه ، منقادين الى أوامر الدولة العلية . فنرجو من مراحم وتفضلات واحسان حضرة أمير المؤمنين ، أن ينظر الى وضعنا ، ويرفع عنا تعديات ابن رشيد ، واجراء ما تفضل به من معاش» .[٢١]

وروى السيد عبد العزيز الرشيد قول البعض في الكويت ، ان الامام عبد الرحمن ، عندما هم بالخروج من الكويت ، كتب بمثل ذلك الى المقيم

البر يطاني في بوشير ، يرجو فيه أن تضع الحكومة البر يطانية انظارها عليه ، وان تشمله بعطفها . ويخبره ان السفير الروسي في بغداد عرض عليه استعداد حكومته لتقديم المساعدات التي يحتاجها ، وتلبية جميع طلباته ، لكنه رفض ذلك رغبة منه بالحكومة البر يطانية .[٢٢]

آل سعود في المنفى

١ ـ Lacy, Robert, The Kingdom, p. 33.
٢ ـ حمزة ، فؤاد ، البلاد العربية السعودية ، ص ١٧ و١٨
٣ ـ السعدون ، خالد ، العلاقات بين نجد والكويت ، ص ٦٦ .
٤ ـ الرشيد ، عبد العزيز ، تاريخ الكويت ، ص ١٤٦ـ ١٤٧ .
٥ ـ الريحاني ، أمين ، تاريخ نجد الحديث ، ص ١٠٩ و١١٠ .
٦ ـ السعدون ، خالد ، سبق ذكره ، ص ٦٣ .
٧ ـ المصدر السابق ، ص ٦٧ .
٨ ـ الريحاني ، أمين ، سبق ذكره ، ص ١٥١ و١٥٢ .
٩ ـ السعدون ، خالد ، سبق ذكره ، ص ٦٨ .
١٠ـ المصدر السابق ، ص ٥٤ .
١١ـ الرشيد ، عبد العزيز ، تاريخ الكويت ، ص ١٦٠ و٢٠٩ .
١٢ـ حمزة ، فؤاد ، قلب جزيرة العرب ، ص ٣٥٤ .
١٣ـ السعدون ، خالد ، سبق ذكره ، ص٥٠ .
١٤ـ المصدر السابق ، ص ٥٣ .
١٥ـ الريحاني ، سبق ذكره ، ص ١١٩ .
١٦ـ السعدون ، خالد ، سبق ذكره ، ص ٦٢ .
١٧ـ المصدر السابق ، ص ٦١ .
١٨ـ المصدر السابق ، ص ٦٢ .
١٩ـ المصدر السابق ، ص ٦٢ .
٢٠ـ الرشيد ، عبد العزيز ، سبق ذكره ، ص ١٦٢ (الهامش) .
٢١ـ المصدر السابق ، ص ١٧٩ .
٢٢ـ المصدر السابق ، ص ١٧٩ .

٦

عــودة آل ســعــود

رأينـا أن ابن رشيـد اقـام بجـوار الكـويت مدة من الزمن حتى أقنعه الاتراك بالانسحـاب . ورأى الشيـخ مبـارك الفـرصـة مناسبة لانهاك خصمه ، فقوات حائـل أبعـد ما تكـون عن الـريـاض موجهـة اهتـامها نحو الكويت ، وحامية الـريـاض مطمئنـة لا ترى خطـرا يتهـددهـا ، والظروف مناسبة لأن ابن رشيد غضب على اهـل الـريـاض وعنيـزة وبـريـدة لفتح أبوابهم أمام آل سعود ومهنا وسليم قبل معركة الصريف ففرض عليهم ضرائب فادحة نفرتهم منه .

لذلك لبى الشيخ مبارك رغبة عبد العزيز آل سعود بمفاجأة الرياض فمنحه «أربعـين ذلـولا ، وثـلاثـين بنـدقية ومائتي ريال وبعض الزاد»[١] . ورافق عبد العـزيـز أخـوه محمـد ، وابن عمه عبد الله بن جلوي وبعض أتباعهم وعددهم نحو أربعين رجلا .

احتلال الرياض (١٩٠٢)

سارت الجـماعـة متخفية حتى وصلت ضواحي الرياض ، وغافلت حراسها ليـل ١٥ ينـايـر ١٩٠٢ ودخلت المـدينة خلسة وقتلت قائد الحامية الشمري عبد الرحمن ابن ضبعان فاستسلم رجاله وخضعت الواحة لآل سعود .

وكان عبد العزيز عندما تقدم به السن يرتاح الى التبسط في الحديث عن هذه الغزوة[٢] .

كان أول عمل أتاه عبد العزيز ارساله ناصر بن سعود الى الشيخ مبارك مبشرا وطالبا المدد[٣] . كما أعلم حاكم البصرة بأنه سيحكم الرياض باسم السلطان العثماني[٤] . ليحول دون مساعدة الدولة العثمانية لابن رشيد .

لبى الشيخ مبارك طلب المعونة ونصح عبد العزيز ببناء سور حول الرياض ففعل . ويقول عبد العزيز الرشيد :[٥] «في ذلك الوقت كان الشيخ مبارك ركن عبد العزيز الأعظم ، الذي عليه يعتمد ، فتراه يبعث اليه الامدادات بسخاء وكرم ويخرج اليه الحملات الواحدة تلو الثانية ، والقافلة أثر اختها ، تحمل الأطعمة والذخيرة ، والحقيقة أن مساعدات مبارك كانت حيوية لعبد العزيز في ذلك الوقت ، لأن الكويت كان صلته الوحيدة بالعالم الخارجي» .

عبد الرحمن يتخلى عن الامامة لابنه

بعد ذلك تخلى عبد الرحمن عن الامامة لابنه عبد العزيز واستمر الأمر على هذه الحال الى وفاة الامام عبد الرحمن .

ما بين آل عثمان وآل وندسور

قبل أن نتابع تطورات عهد عبد العزيز ، الذي تأرجح من عام ١٩٠٢ الى عام ١٩١٥ ما بين انتصار وهزيمة من دون حسم واضح ، في الحروب القبلية التي دارت خصوصا بين آل سعود وآل رشيد ، يحسن بنا أن نستعرض علاقة عبد العزيز بالقوى الفاعلة في الجزيرة العربية . فقد أدرك عبد العزيز بعد استيلائه على الرياض ، أن لا سبيل لترسيخ سلطته وتوسيع رقعته الا بالتعاون مع احدى الدولتين اللتين تؤثران في مجرى احداث الجزيرة ، وتمولان الفرقاء المحليين المتصارعين بالسلاح والعتاد والمال ، وهما الامبراطورية العثمانية والامبراطورية البريطانية .

كانت الامبراطورية العثمانية تسيطر على المشرق العربي بكامله بما فيه الجزيرة العربية وتبسط سيادتها على الحجاز وعسير ونجد واليمن والاحساء متعاونة مع حكام محليين كآل الرشيد في حائل وجبل شمر ، والشريف حسين بن علي في الحجاز والادارسة في عسير والامام يحيى حميد الدين في اليمن .

اما بريطانيا ، فحصرت اهتمامها بشواطيء الجزيرة العربية لتأمين خطوط مواصلاتها البحرية الى الهند واهملت ما يجري في صحارى الجزيرة الداخلية . وزاد اهتمامها بالشواطيء بعد فتح قنال السويس سنة ١٨٦٩ ، ثم بعد احتلالها لمصر سنة ١٨٨٢ .

في المجال الدولي كانت سياسة الدولتين البريطانية والعثمانية منسجمة الى حد كبير . فقد دافعت بريطانيا عن كيان الامبراطورية العثمانية وسيادتها

وتماسك اجزائها لتقف حائلا دون امتداد الامبراطورية الروسية جنوباً . وقد رأينا كيف احبطت بريطانيا ودول أوروبية أخرى مطامح محمد علي باشا والي مصر ، وأدت الى انسحاب القوات المصرية من الجزيرة العربية ، ومن بلاد الشام عام ١٨٤٠ .

وبقي المبدأ الرئيسي للسياسة البريطانية في الجزيرة العربية الاعتراف بالسيادة العثمانية وعدم الانغماس داخل الجزيرة بالخلافات والمنازعات القبلية . وقد التزمت بريطانيا بهذه السياسة بحزم تاركة شؤون الجزيرة ، عدا الشاطىء المتصالح ، للادارة العثمانية ، الى ان دخلت تركيا الحرب الى جانب المانيا سنة ١٩١٥ ، فسارعت بريطانيا تفتش عن حلفاء لها في الحجاز ونجد .

تجاه السياسة البريطانية الممالئة لآل عثمان والمتعاونة معهم ، وجد عبد العزيز مجال المناورة ضيقا ، خصوصا وأن آل رشيد كانوا الحلفاء التقليديين للعثمانيين في وسط الجزيرة . ومع ذلك لم يكف عن السعي ليحصل على مرتبة مساوية لشيوخ الشاطىء المتصالح(٦) .

وعاد عبد العزيز يحاول اكتساب الانكليز عن طريق التلويح بالخطر الروسي ، اذ ابلغ الانكليز عن طريق الشيخ مبارك في مايو ١٩٠٤ نص رسالة وصلته من الروس عام ١٩٠٣ ، يعدونه بكل مساعدة يحتاجها ويلمح للانكليز بأنه قد يضطر الى القبول بذلك اذا لم تنجده بريطانيا(٧) .

لم ينجح هذا التهديد الودي المبطن لأن بريطانيا لم تجد لها فائدة من علاقة كهذه مع عبد العزيز ، تورطها في صراع مع الأتراك وليس في صحارى نجد ما يغريها ، عدا أنه كان بوسع تركيا الرد على عمل كهذا ، بخلق مشاكل لبريطانيا في الشرق الأوسط وأوروبا ، هي بغنى عنها . لذلك بقيت عروض عبد العزيز من دون رد .

نعود الى تطور الأحوال الداخلية في نجد .

لم يبق ابن رشيد مكتوف اليدين ، امام الحليفين مبارك وعبد العزيز ، فتحرك في أواخر ديسمبر ١٩٠٢ نحو الكويت ، لكن الحكومة العثمانية تقيدت باتفاقها مع بريطانيا ، على احترام الوضع الراهن في الكويت ، فاكتفى ابن رشيد بغزو بعض القبائل على اطرافها . ويبدو أن مبارك استنجد بعبد العزيز ، الذي وصل الى الكويت في أوائل مارس ١٩٠٣ سواء لنجدة الشيخ مبارك او بسبب حاجته لسد النقص في ذخيرته كما قال جون فيلبي(٨) . وتشكلت أثر ذلك قوة سعودية ـ كويتية مشتركة قوامها نحو عشرة آلاف رجل من أهدافها

مطاردة ابن رشيد المعسكر قريبا من الكويت . ومن الطبيعي ان تمويل هذه القوة وقع على عاتق الشيخ مبارك .

زحفت القوة المشتركة نحو معسكر ابن رشيد ولما لم تدركه اكتفت بالهجوم على قبيلة مطير ورئيسها فيصل الدويش «فغنمت منها أموالا كثيرة من ضمنها خمسة آلاف رأس من الأبل نال عبد العزيز منها خمسماية»[٩] .

بعد انتهاء المعركة ورد رسول الى عبد العزيز يخبره ان ابن رشيد يحاصر الرياض ، فتوجهت القوة المشتركة نحوها لكن ابن رشيد أسرع بالانسحاب .

في تلك الاثناء (١٩٠٣) تعززت مكانة الشيخ مبارك في الجزيرة العربية ، بزيارة حاكم الهند اللورد كورزن للكويت . وقد كانت زيارة محفوفة بالأبهة والعظمة وأقام له الشيخ مبارك احتفالا عظيماً .

ظلت الحرب سجالا بين حائل والرياض وتركز الصراع خلال الفترة الممتدة الى عام ١٩٠٤ حول منطقة القصيم الفاصلة بين البلدين .

اتكال عبد العزيز على المساعدة الكويتية

اعتمد عبد العزيز في حربه على مساعدة حليفه مبارك الذي وقف وراءه بكل قوة وأمده بجميع ما احتاجه من سلاح وذخيرة . وأكد ذلك تقرير للوكيل السياسي البريطاني في الكويت نوكس قال فيه : «إن إبن سعود لا يستطيع تثبيت نفسه من دون مساعدة خارجية . وحيث أنه لا يستطيع طلب المعونة من الاتراك المتحالفين مع ابن رشيد ، فليس له ملجأ الا الشيخ مبارك»[١٠] .

وقد طال أمد القتال بين الفريقين ، من دون ان يستطيع احدهما حسمه لصالحه . فقرر العثمانيون مساعدة حليفهم ابن رشيد بصورة فعالة تشمل القوات والسلاح والعتاد والمال . وسارت تلك القوة من بغداد والبصرة وعدة أماكن أخرى في العراق الى مدينة السماوة على نهر الفرات في أواخر ابريل ١٩٠٤ حيث التقت بقوات ابن رشيد ورافقتها الى عنيزة . كما التحق بالقوة اعداد كبيرة من شمر العراق .

التقى الجيشان في وقعات تعرف عند أهل نجد بوقعة البكيرية ووقعة الشنانة وكان الهدف من هذه الحرب الاستيلاء على منطقة القصيم .

وقعة البكيرية والشنانة (١٩٠٤)

اصطدم الجيشان صدمة هائلة في البكيرية فقتل من جيش ابن سعود تسعمئة ، وقتل من الاتراك نحو الف وفيهم اربعة من كبار الضباط ، وخسر

اهل حائل نحو ثلاثمائة وفيهم اثنان من بيت رشيد هما ماجد بن حمود وعبد العزيز بن جابر . واصيب عبد العزيز آل سعود بشظايا قنبلة في يده . ولم تكن معركة البكيرية فاصلة ، اذ تعادل الفريقان في الاصابات وفي المنهوبات . وانتقل عبد العزيز الى الرس في حين عسكر ابن رشيد في الشنانة . وعرض عبد العزيز الصلح فرفضه ابن رشيد .

التحم بعدها الخصمان في نهاية سبتمبر ١٩٠٤ فانهزم ابن رشيد . وأراد عبد العزيز تعقيبه ، لكن رجاله انشغلوا بنهب أموال الحملة التركية بالاضافة الى الأبل والغنم . ووجدوا بين تلك الاحمال صناديق ذهب فحملوها الى عنيزة مقر ابن سعود فوزعها مثل بقية الغنائم على رجاله وكانت قسمة الواحد من الذهب والجمال فقط تتراوح بين المئة والمئة والخمسين ليرة عثمانية وبين العشرة والعشرين بعيراً[١١] .

الاتراك يساعدون ابن رشيد

بعد معركة البكيرية والشنانة ذهب ابن رشيد الى جبل حائل واستنجد مرة اخرى بالاتراك فقرروا مساعدته وارسلوا اليه حملة بقيادة كبار رجالهم المشير احمد فيضي باشا الذي جاء من بغداد بثلاثة طوابير ، والفريق صدقي باشا ، الذي جاء بطابورين ، فالتقوا وعسكروا قرب القصيم . ولم تكن الدولة العثمانية تقصد الحرب ، بل كانت تريد المفاوضة من أجل السلم عن طريق اظهار القوة .

اتفاق مع العثمانيين (١٩٠٥)

اتصلت الدولة العثمانية بعبد العزيز ابن سعود بواسطة الشيخ مبارك ودعته لارسال والده عبد الرحمن لمفاوضة والي البصرة ولبى عبد الرحمن ا لدعوة ووصل الى الكويت ومنها الى الزبير برفقة الشيخ مبارك حيث عقدت الجلسة الأولى من المباحثات في الثامن من فبراير ١٩٠٥ .

توصل الفريقان الى اتفاق تضمن :

١- اعتراف عبد العزيز بالسيادة العثمانية على نجد .

٢- اقرار العثمانيين بسيطرته على مناطقه لكن بصفته موظفا عثمانياً برتبة قائممقام ، وهي ثاني أدنى رتبة في التسلسل الاداري العثماني .

٣- تعهد العثمانيون بمنع آل رشيد عن التدخل في شؤون امارة آل سعود .

٤- تصبح القصيم منطقة عازلة بين آل سعود وآل رشيد وتقيم الدولة

العثمانية حامية عسكرية في بريدة وعنيزة للفصل بين الجانبين.
ارتاحت بريطانيا لهذا الاتفاق لأنه انهى النزاع بين صديقتها تركيا وبين آل سعود أصدقاء آل مبارك المتمتعين بحمايتها دون تدخل ظاهر منها.
أما عبد العزيز الرشيد فقد غضب من هذا الاتفاق، وعمت الفوضى بين أهل القصيم، ففريق يريد بقاء الأتراك للتخلص من حكم آل سعود وآل رشيد على السواء، وفريق مع آل سعود، وآخر مع آل رشيد.

بداية الفراق بين عبد العزيز والشيخ مبارك

تطوران أنهيا مرحلة «التحالف المطلق» بين عبد العزيز والشيخ مبارك.
حدث التطور الأول حين لمس مبارك تعاظم أهمية ابن سعود لما طلبت منه الدولة العثمانية أن يتوسط بينها وبينه، وهو التوسط الذي انتج اتفاق ١٩٠٥ الذي ذكرناه.
أما التطور الثاني فكان انتصار عبد العزيز على ابن رشيد في موقعة الشنانة (١٩٠٤)، فرأى مبارك أن ميزان القوى في نجد بدأ يميل الى كفة الأول فازدادت مخاوفه من قوة حليفه[١٢] وهو الذي يرى سلامة الكويت في بقاء الخصمين متعادلي القوة في نجد.

مبارك يحالف عبد العزيز الرشيد (١٩٠٥)

سعى مبارك الى اعادة التوازن في نجد فقبل وساطة خالد باشا العون بينه وبين عبد العزيز بن رشيد التي اثمرت عام ١٩٠٥ عن اتفاق الطرفين على طي صفحة العداء، وتعهد مبارك بالوقوف على الحياد في الصراع بين آل سعود وآل رشيد. وتوطدت العلاقات اكثر بين الكويت وحائل بعد وفاة يوسف الابراهيم في يناير ١٩٠٦، الذي كان يشكل عنصراً رئيسياً من عناصر الخلاف بين مبارك وآل رشيد. وقد قابل ذلك مزيد من الفتور في علاقات مبارك وابن سعود.

تتابعت الاحداث التي تزيد في شعور عدم الثقة. فبعد المهادنة مع العثمانيين حاول عبد العزيز إحياء السلطة الوهابية في شرق الجزيرة. فزار منطقة الاحساء في صيف ١٩٠٥ عارضا على رؤساء القبائل مغانمه من الأتراك في معركة الشنانة فانبهروا بها. وكتب من هناك الى مشايخ الشاطىء المتصالح يخبرهم بعزمه على زيارتهم في العام التالي. وقد اعتبر هؤلاء ذلك تهديدا خطيراً لهم فاجتمع كبيرهم شيخ أبو ظبي مع سلطان مسقط وبادر الاثنان

بعرض مخاوفهما على السلطات البريطانية . فارسل المعتمد البريطاني في بوشير الماجور برسي كوكس ، الذي أصبح بعدئذ المندوب السامي في العراق ، رسائل الى شيوخ الخليج يحذرهم فيه من التعامل او الاتصال مع عبد العزيز فاستجابوا لتحذيره . وكرر بذلك ما فعله المقيم البريطاني مع عبد الله بن ثنيان عام ١٨٤٢ .

من جهته ، إعتقد الشيخ مبارك ان مشروع الزيارة غايته حصول عبد العزيز على المال من شيوخ الخليج ، لكنه كانت لديه ايضا اعتراضات قوية على استخدام عبد العزيز لأي ميناء آخر في الاحساء غير الكويت . لذلك كتب لعبد العزيز يقول له انه اذا تابع سياسته هذه في الاحساء فستكون أول ثمارها قطع العلاقات بين الكويت والرياض[١٣] فألغى عبد العزيز زيارته المزمعة .

أسباب الخلاف بين عبد العزيز ومبارك

اما الاسباب المباشرة للخلاف بين مبارك وعبد العزيز ، فيقول أنصار آل سعود : إن الشيخ مبارك هو المبتديء بالعداء لأنه عقد اتفاقاً مع عبد العزيز الرشيد عام ١٩٠٥ بواسطة خالد باشا العون أثناء زيارته للكويت تلك السنة ، كان من مواده أن مبارك يلتزم الحياد فيما يدور بين ابن الرشيد وعبد العزيز من حروب ويتمنى فوز ابن الرشيد . ثم كتب الى أهل نجد يخبرهم بتخليه عن نصرة عبد العزيز[١٤] .

ويقول أنصار الشيخ مبارك عن سبب الخلاف : ان عبد العزيز ارسل معتمدين لقبض الرسوم على الأموال التي تخرج مع القوافل النجدية من سوق الكويت ، وهذا مجحف بحق الكويت واعتداء على سلطة حاكمها ، ومنع عبد العزيز رجاله عن الاتجار مع أهل الكويت ، وهي البلد الذي يعتمدون عليه لاستيراد ما يلزمهم ، فأوقعهم وأهل الكويت في ضيق ، واشترط ان لا يزيل المنع الا اذا قبل الكويتيون بأحد ثلاثة شروط : اما ان يجروا له راتبا سنوياً يسد حاجته ، اويسمحوا باقامة موظف سعودي في سوق الكويت لقبض الرسومات من رعاياه ، اويقوموا هم بقبض تلك الرسوم ثم يرسلونها اليه[١٥] . وقد رفض الكويتيون هذه المطالب .

وفي أوائل ١٩٠٦ وقعت في يد عبد العزيز رسالة بعثها مبارك لابن رشيد يحرضه فيها على قتال ابن سعود . كما كتب لعبد العزيز في الوقت ذاته يقول : «يا ولدي . أنا معك في كل حال وحين قواك الله وتولاك ، لا تترك هذا الكلب

ولا تدعه يستريح ولا تصالحه . أنا أبوك مستعد لمساعدتك في كل ما تريد[١٦]" .

وكان غرضه ان يحرض الاثنين على بعضهما فيضعفهما . وكان قد قام حلف معادٍ لعبد العزيز سنة ١٩٠٦ مؤلف من فيصل الدويش زعيم المطير ، ونايف الهذال شيخ العمارات من عنزة ، ومحمد أبا الخيل من آل مهنا أمير بريدة والشيخ مبارك الصباح .

لكن مبارك كان يعرف كيف يرضي صديقه عبد العزيز ويزيل من نفسه أي سوء تفاهم يحدث . من ذلك أنه أمدّه خلال سنة ١٩٠٦ بثلاثة آلاف بندقية تقدر قيمتها بماية وخمسين ألف دولار[١٧] . وكان عبد العزيز يسكت عن سياسة مبارك لحاجته الى المساعدة والمال .

مقتل عبد العزيز الرشيد في روضة مهنا (١٩٠٦)
وإخراج الاتراك من نجد

لم يكن التفاهم الذي تم بين عبد العزيز والعثمانيين عام ١٩٠٥ حول العلاقة مع حائل اكثر من هدنة ، اذ فاجأ السعوديون آل رشيد في روضة مهنا شمال بريدة في ربيع ١٩٠٦ وتغلبوا عليهم وقتلوا أميرهم عبد العزيز الرشيد . ولم يعد عبد العزيز بحاجة الى حياد السلطة العثمانية بعد هذا الانتصار ، فعادت القبائل التابعة له الى مهاجمة الحامية التركية في بريدة وعنيزة ، والى قطع خطوط تموينها مما اضطرها الى الانسحاب من نجد في العام نفسه واستولى عبد العزيز على القصيم .

لكن مقتل ابن رشيد لم يحقق لآل سعود التفوق الذي يطلبونه .

خلف متعب بن عبد العزيز الرشيد والده . ومال ميزان القوى لصالح الرياض . وسعى أمير حائل الجديد الى السلم ، فوسط الشيخ مبارك بذلك لدى عبد العزيز الذي استجاب للمسعى وعُقد الصلح بين الطرفين في يوليو ١٩٠٦ .

لكن هذا الصلح لم يدم طويلا ، اذ قتل متعب على يد أقاربه أبناء حمود بن عبيد الرشيد في يناير ١٩٠٧ ، وتولى الامارة سلطان بن حمود الذي نقض الصلح وانضم الى الجبهة المعادية لعبد العزيز التي ذكرناها ، والمؤلفة من فيصل الدويش زعيم قبيلة المطير ونايف الهذال زعيم قبيلة العمارات من عنزة ، ومحمد أبا الخيل أمير بريدة[١٨] ، برعاية الشيخ مبارك الصباح .

ثم قتل سلطان الرشيد على يد أخيه سعود في ربيع ١٩٠٨ فارسل حاكم

بريدة محمد أبا الخيل من آل مهنا رسولا الى مبارك يرجو توسطه لدى عبد العزيز لاجراء مصالحة . وقبل عبد العزيز بذلك بعدما كان قد احتل بريدة يوم ٢٣ مايو ١٩٠٨ وتغلب على محمد أبا الخيل .

وهكذا نرى أن الاطراف المتقاتلة في نجد ، كانت غالبا ما تلجأ الى وساطة الشيخ مبارك لفض النزاعات بينها ، وكان هذا يستغل هذه المناسبات لتقوية نفوذه وتحقيق أغراضه .

في أيام سعود الرشيد الذي تولى امارة حايل تحت وصاية أخواله آل سبهان في أغسطس ١٩٠٨ ، أمكن الرجوع الى حالة من توازن القوى بين آل سعود وآل الرشيد[١٩] . وهو ما كان يسعى اليه الشيخ مبارك . وكان الطرفان حريصين على ود مبارك يراسلانه باستمرار .

وقعة هدية (١٠ يونيو ١٩١٠)

تأزمت العلاقة بين مبارك وسعدون المنصور شيخ قبائل المنتفق في أوائل ١٩١٠ لخلافات على أمور قبلية تتعلق بغزوات العربان المتبادلة ورد المنهوبات . ويقول الريحاني غير ذلك ، فينسب حركة السعدون الى أنه كان مواليا لحكومة الاتحاد والترقي التركية ، في حين كان مبارك وطالب النقيب والشيخ خزعل يطالبون باللامركزية بل وباستقلال العراق . فدفعت الحكومة السعدون للتحرش بأقواهم وهو الشيخ مبارك[٢٠] .

وكانت تلك السنة (١٩١٠) سنة جدب في نجد وعرفت باسم «الساحوق» فخسر عبد العزيز عدداً كبيراً من الأبل والمواشي ، ولم يبق لديه ما يمكنه من الحرب والغزو[٢١] .

جهز منصور السعدون حملة من العشائر على الكويت ، وانفض حلفاء مبارك عنه ، فأرسل يستنجد بعبد العزيز آل سعود قائلا : أنت ولدي وهل يقبل الولد أن يهان أبوه . وأجاب عبد العزيز : لا والله . ولك ما تريد . اني ملبي الطلب إن شاء الله ولكني أسأل والدي أن يمهلني لاستنجد أهل نجد ، فليس معي الآن الا مئتان من رجالي ، أما العشائر فلست مركناً اليها في القتال[٢٢] . لكن مبارك أصر فخرج عبد العزيز مع الحملة وكانت مؤلفة من سبعة آلاف مقاتل بقيادة جابر بن مبارك .

اشتبك الفريقان فانهزم آل سعود وجيش الكويت هزيمة شنيعة ، وتركوا وراءهم كثيرا من الأمتعة والابل والخيل غنمها ابن السعدون ومقاتلوه ، فكانت له هدية من أهل الكويت ولذلك دعيت هذه الوقعة «بوقعة الهدية» .

قبل وصوله الى الكويت كان عبد العزيز قد عقد حلفا مع ابن هذال شيخ العمارات ، وابن شعلان شيخ الرولة للعمل معاً ضد ابن رشيد[٢٣] .

وبينما هو في حملة الكويت هاجمهما ابن رشيد وتغلب عليهما . وخشي عبد العزيز ان يحتل ابن رشيد القصيم .

أول اجتماع لعبد العزيز مع مسؤول بريطاني (١٩١٠)

انتهز عبد العزيز فرصة وجوده في الكويت فاجتمع لأول مرة في فبراير ١٩١٠ برسمي بريطاني هو المعتمد في الكويت الكابتن ويليام شكسبير ، ونشأت بينهما مودة وتقدير متبادل . واجتمعا ثانية سنة ١٩١١ ، وكذلك في ربيع ١٩١٣ ، حيث شرح له عبد العزيز بأن الوقت مناسب لتخليص نجد والاحساء نهائيا من السيطرة العثمانية . وكان جواب الممثل البريطاني في كل مرة ان بريطانيا لن تقدم اية مساعدة سياسية ومالية لعمل موجه ضد الحكومة العثمانية .

سوء حالة عبد العزيز (١٩١٠-١٩١٢)

يقول أمين الريحاني : «عاد عبد العزيز من الكويت في أواخر ١٩١١ متشائما بعد اجتماعه بالمعتمد البريطاني ويليام شكسبير ، فتصالح مكرهاً مع ابن رشيد وأرسل أخاه سعد الى قبيلة العتيبة عام ١٩١٢ يستنجد بها لهذه الغاية . لكن عتيبة انحازت الى حسين شريف مكة فقبضوا على سعد وأخذوه أسيرا الى الشريف الذي لم يفرج عنه الا بعد ان افتداه اخوه بستة آلاف مجيدي يدفعها سنوياً[٢٤] .

يقول الريحاني في وصف وضع عبد العزيز : كان حاله ما بين ١٩١١ و١٩١٢ حال المصارع الذي يستوي واقفاً ، قبل أن تلمس يده الأرض . فلم يستطع أخصامه ، على ضعفه ، أن يغيروا هدفه وان انهكوه . وبقي يضرب من حين لآخر ضربات مدوخة[٢٥] . من ذلك استيلاؤه على الاحساء عام ١٩١٣ .

احتلال الاحساء

احتل العثمانيون الاحساء سنة ١٨٧١ ، وكان يتولى ادارتها متصرف تركي تابع للبصرة . لكن سيطرتهم الفعلية لم تكن تتعدى اسوار المدن ، بينما ظلت الصحراء الواسعة مسرحا لنفوذ القبائل مثل بني خالد وبني مرة والعجمان وبني

هاجر ، مما أتاح لعبد العزيز آل سعود ان يحاول مد سلطانه عليها ، باعتبارها جزءاً من اراضي آل سعود التي آلت اليه بالوراثة من دون أن يعترض العثمانيون على ذلك .

وكان عبد العزيز يحتاج إلى موانىء الاحساء لتصبح متنفساً لنجد . ولعله فكر بالاستعاضة بها عن الكويت ليتخلص من نفوذ آل صباح . لذلك استقر رأيه على ازالة الوجود العثماني من المنطقة .

اهتم عبد العزيز بمعرفة رد الفعل البريطاني باعتبار ان احتلال الاحساء سيجعله مطلا على الخليج وهو منطقة نفوذ بريطانية . ويبدو أنه استعان بالشيخ مبارك ليعرف له موقف الانكليز . كما اجتمع بالوكيل السياسي البريطاني في الكويت في ابريل ١٩١١ وبحث معه الفكرة فلم يلق منه تشجيعاً .

بقي عبد العزيز يتحين الفرص . فقد بدأ رجال الاتحاد والترقي يسحبون جيوشهم من البلاد العربية نتيجة هزائمهم في مناطق أخرى (احتلت ايطاليا طرابلس الغرب وبرقة عام ١٩١١ ، واستولت اليونان على جزيرة كريت ومقدونيا عام ١٩١٢ ، وسبق ذلك استقلال بلغاريا والبوسنة والهرسك بمساعدة روسيا) ، فوجد عبد العزيز الظرف مناسباً فهاجم الاحساء في مايو ١٩١٣ .

وهكذا استولى السعوديون مرة ثانية على شاطيء من الخليج طوله نحو ثلاثمائة كيلومتر ، وهي المنطقة التي تضم حاليا منابع البترول .

اما الحامية التركية فقد صادر عبد العزيز خزينتها وأسلحتها وسمح لها بالانسحاب بحرا الى البصرة .

معاهدة مع الاتراك ـ مؤتمر الصبيحة (مايو ١٩١٤)

مال الاتراك الى تصفية ذيول خسارة الاحساء ودياً لكثرة مشاكلهم في ذلك الوقت . فتوسط في الأمر عبد اللطيف المنديل والشيخ مبارك واجتمع عبد العزيز مع المندوبين الاتراك في الصبيحة قرب الكويت . وبعد مفاوضات وقع الجانبان اتفاقية تعهد فيها عبد العزيز ان يضع قواته المسلحة تحت تصرف الدولة التركية وعند طلبها في حالة نزاعها مع دولة اجنبية ، او حصول اضطراب داخلي في أية ولاية تركية[٢٦] . وبالمقابل رفعته الدولة من رتبة قائممقام الى رتبة والي عثماني على نجد . ومتصرف على الاحساء تحت السيادة العثمانية . وجاء الاتفاق الجديد تجديدا لاتفاق ١٩٠٥ . وكان عقده في الكويت دليلاً على موافقة بريطانيا على مضمونه[٢٧] .

الاتراك يوثقون تحالفهم مع آل رشيد

في الـوقت الـذي كان الاتراك يعقدون اتفاقهم من ابن سعود في الصبيحة ، اجتمـع سعـود بن رشيـد بوالي البصـرة شفيق كمالي باشـا قرب الـزبير واتفقا أن تسـاعـده الـدولـة على محاربـة ابن سعود . وقدمت له تركيا عشرة آلاف بندقية وكثيراً من الذخائر ، وشيئا من المال .

علم عبـد العـزيـز بهذا الاتفـاق بعـد رجـوعه من الصبيحة الى الرياض ، فكتب الى ابن رشيـد يذكـره بالصلح الـذي بينهـما وينتقـد اتفاقه مع الاتراك . فأجـابـه سعـود الـرشيد «إني من رجال الدولة ، ومصالحتي إياك لا تكون الا أن رضيت الدولة بها»[٢٨] . وكان ذلك كافيا لتجدد النزاع بين آل سعود وآل رشيد .

تبدل السياسة البريطانية

دخلت تركيـا الحـرب العـالميـة الاولى الى جانب المـانيا في اكتوبر ١٩١٤ ، وصارت بريطانيا بحاجة الى حليف في وسط الجزيرة لاشغال الاتراك وحليفهم ابن رشيد . فأرسلت الى عبد العزيز آل سعود صديقه الكابتن ويليام شكسبير في شهر يناير ١٩١٥ ، فوجد عبد العزيز متقبلا لفكرة التعاون مع بريطانيا .

في برهة أسبوعين اتفق الطرفان على صيغة تعترف بعبد العزيز حاكماً مستقلاً على نجـد ، وتعـده بالمسـاعـدة المـاليـة والعسكـرية . وارسل شكسبير مسودة الاتفاق الى المعتمد البريطاني في الخليج للتوقيع .

معركة جراب (يناير ١٩١٥)

حشـد عبـد العزيز ستة آلاف من رجاله ، تحف بهم آلاف من البدو وزحف بهم ، يرافقه الكابتن شكسبير كمراقب ، لملاقاة سعود بن رشيد حليف الاتراك الذي هدده بالعشرة آلاف بندقية التي استلمها حديثا .

التقى الفـريقـان في جراب ، على بعـد أربعـمايـة كيلومتر شمال الرياض ، قرب بلدة الزلفى في القصيم ، واشتبك الجيشان في ٢٤ يناير ١٩١٥ .

لم تصمـد قوات عبـد العـزيـز والاخـوان بوجـه الهجوم الشمري فانهزمت ، وصمد الكابتن شكسبير في موقعه قرب المدفعية فقتل . ونهب العربان ما وجدوه

من اسلحـــة وعتـاد في مخيم ابن سعـود . ونسب آل سعـود هزيمتهم الى تخاذل العجمان ونقموا عليهم . فقد كان هؤلاء أول المنسحبين من المعركة ، لما مالت الكفة لصالح سعود بن رشيد .

لقـد كانت هزيمـة جراب نكسة قوية لعبد العزيز ولمطامحه ، وتبين أن جيشه من «الاخوان» لم يكن كفؤاً لمقارعة شمر المدعومة بالسند التركي .

من ناحيـة أخـرى ، فان مقتـل الكـابتن شكسبير أبلغ الحكومة البريطانية بطـريقـة دراماتيكيـة ، انهـا لم تعـد تستطيـع الـوقـوف على الحيـاد فيما يتعلق بالاحـداث الـداخليـة في قلب الجزيرة، لأن أي نجاح جديد لقوات ابن رشيد المتحـالف مع الاتـراك يضعف مركـزها في بلاد الشرق الأوسط . ولم يتردد عبد العـزيـز في الاستفـادة من الـوضـع الجـديد ، فكتب في يوليو ١٩١٥ الى السير برسي كوكس طالبـاً المعـونـة ، فارسـل له ثلاثـمايـة بـندقية وعشرة آلاف روبية كمسـاعـدة مؤقتة وأردفها بعد بضعة أشهر بألف بندقية مع ذخيرتها ، وعشرين ألف جنيه[٢٩] .

انتصار العجمان ، معركة كنزان (صيف ١٩١٥)

لم يكن عام ١٩١٥ عامـا موفقـا لآل سعـود . فقـد أراد عبـد العـزيز معاقبة العجـــمان فجـرّد عليهم حملة في صيف ١٩١٥ ، وكـان قد انضم اليهم بنـومرة الذين نشأ عبد العزيز بينهم .

اشتبـك الطـرفـان قرب الهفوف في الاحساء فدارت الدائرة على عبد العزيز والاخـوان ، وجـرح عبد العزيز في المعركة وقتل أخوه سعد . فلجأ الى الهفوف وتحصن بها . وكـانـت من أشـد الهـزائم التي حلت بعبد العزيز ، خصوصا وانها جاءت بعــد بضعـة أشهـر من هزيمـة جراب ، وأصبـح وضـع عبـد العـزيـز العسكري ضعيفاً .

العلاقة مع الكويت بعد وفاة الشيخ مبارك

خلف جابـر الثـاني والده ، وبقيت الصلة متينة بين الكويت وحائل . وتوفي عام ١٩١٨ وخلفه أخوه الشيخ سالم بن مبارك آل صباح . وقد اشتد العداء مع الامام عبد العزيز خلال ولاية سالم[٣٠] . فقد وقف سالم بوجه عبد العزيز لما أراد الاجهاز على العجمان فآواهم وحماهم . وكان يستقبل وفود آل الرشيد ويكرمهم فيغيظ ذلك عبد العزيز .

بقيت العلاقات عدائية بين آل سعود وآل مبارك طيلة امارة سالم بن مبارك .

وعـادت العـلاقـة فتحسنت بعض الـوقت بعد وفاته عام ١٩٢٠ ، عندما تولى خلفـه الشيـخ احمـد جابر الصباح ، ثم ساءت لما منع عبد العزيز أهل نجد من الاتجار مع الكويت كما سنرى .

معاهدة القطيف أو معاهدة دارين (٢٦ ديسمبر ١٩١٥)

قلنـا ان بريطـانيـا ادركت بعـد معـركـة جراب ، أن أي انتصـار آخـر لابن رشيـد ، وهـو حليف لتركيـا ، يعتبر هزيمة لها . فاجتمع المعتمد البريطاني في الخليج السيد برسي كوكس بعبد العزيز في القطيف (وقيل في دارين وهي جزيرة مقابل القطيف) ، وكانت الاحساء لا تزال بأكثرها في يد العجمان ، ووقعا يوم ٢٦ ديسمبر ١٩١٥ الاتفاقية التي كان وضع أسسها الكابتن شكسبير .

اعـترفت بريطـانيـا في المعـاهدة بعبد العزيز وذريته حاكما مستقلا على نجد وتوابعها ، له حرية التصرف ضمن مناطقه .

ودفعت له مساعدة سنوية مالية وعسكرية أسوة بشيوخ الشاطىء المتصالح ، بلغت بعد فترة من الزمن ستين ألف جنيه ذهبا بالاضافة الى الاسلحة والذخائر .

تعهـد عبـد العـزيـز بالمقابل ، بعدم التدخل في اراضي محميات بريطانيا . ونصت المادة السادسة من المعاهدة : «تعهد عبد العزيز ، كما تعهد والده قبله ، بأن يمتنـع عن أي تجاوز وتـدخّـل في أراضي الكـويت والبحـرين ، وأراضي مشـايـخ قطر وعُـمان وسواحلها ، وكل المشايخ الموجودين تحت حماية انكلترا ، والذين لهم معاهدات معها»[٣١] . أي أنه تنازل عن أية ادعاءات توسعية على حدوده الشرقية .

ثم عقـد برسي كوكس مؤتمـرا في الكـويت في شهـر نوفمـبر ١٩١٦ دعا اليه الشيوخ المتمتعين بالحماية البريطانية ليدعموا مجهودها الحربي . فكنت اول مرة يجتمـع فيهـا عبد العزيز بشيوخ المحميات ، وبالمعتمدين البريطانيين في الخليج كمجموعة . وترك انطباعا طيبا لديهم .

شكلت المنحـة المـاليـة البـريطانية السند المالي لحكم عبد العزيز الذي طالما تمنـاه . حيث تمكن من اخضـاع قبيلة العجـمان والثـائرين عليه ، واعاد سلطته على الاحسـاء ثم احتـل جبـل شمر في وقت لاحق ، وبعدها شن حملاته على عسـير والحجـاز لازالـة الحكم الهاشمي . وقد بقيت هذه المعاهدة عماد التوسع السعـودي وسـاريـة المفعـول الى ان استبـدلت بمعـاهدة جدة بتاريخ ٢٠ مايو ١٩٢٧ ، التي وقعها عبد العزيز والجنرال كلايتون .

ويلاحظ ان عبد العزيز سبق الهاشميين بمدة شهر في التعاقد مع الانكليز ضد الدولة التركية .

وهكذا بعد ثلاثة عشر عاما من السعي المتواصل منذ غزوة الرياض اصبح عبد العزيز قادراً بعد هذا التعاون على انهاء ادعاءات السيادة التركية على أواسط الجزيرة وعلى اخضاع خصومه بين القبائل .

لقد شكلت معاهدة القطيف نهاية عهد وبداية عهد جديد بالنسبة لآل سعود .

اما العهد الذي انتهى فقد حفل بالقلاقل والفتن وبمعارك خاضها عبد العزيز ولم يكن دائما موفقا بها . فقد كان مهددا باستمرار من آل رشيد في حائل ، الذين لم يستطع ان يتغلب عليهم ، ومن شيخ الكويت مبارك الصباح ، ومن آل سعدون شيوخ عشائر المنتفق حول البصرة ، ومن العجمان في الاحساء ، ومن شرفاء الحجاز ، ومن قبائل مطير وعتيبة بقيادة فيصل الدويش ، الذي كان يهاجم القوافل المتجهة الى الرياض (١٩٠٧) وهو حفيد فيصل الدويش الذي تعاون مع الحملة المصرية على تلمير الدرعية عام ١٨١٨ .

في معاركه مع آل رشيد ، شيوخ شمر وامراء حائل الى عام ١٩١٦ ، خسر عبد العزيز معركة الصريف لكنه احتل الرياض . وربح وقعة الشنانة ووقعة روضة مهنا التي قتل فيها عبد العزيز الرشيد لكنه خسر وقعة الهدية . وفتح الاحساء لكنه خسر معركة جرّاب ثم استولى العجمان على الاحساء . وبقيت منطقة القصيم موضع تنازع بين الطرفين الى ان رجحت كفة عبد العزيز . هكذا نرى ان الحرب بقيت سجالا بين آل سعود وآل رشيد مع رجحان خفيف للأولين لم يبلغ حد الانتصار الحاسم ، وبقيت نجد موضع تجاذب بين الفريقين . ولم يحسم الموضوع الا انتصار بريطانيا المتعاونة مع عبد العزيز على تركيا حليفة آل رشيد في ميادين بعيدة عن الجزيرة العربية .

وكان اقسى ما صادفه عبد العزيز في هذه الفترة ، قبل تعامله مع بريطانيا ، حاجته الشديدة للمال «حاول ان يستدين من أهل الكويت ، فمنعهم شيخهم مبارك الصباح . ثم ارسل عبد العزيز الى نسيبه ووكيله في البصرة عبد اللطيف باشا المنديل ، يطلب منه الفي ليرة يستوفيها مما تبقى عند الدولة العثمانية من معاش والده عبد الرحمن بن فيصل[٣٢] .

عهد ما بعد القطيف

اما في عهد ما بعد القطيف ، أي ما بعد التعامل مع بريطانيا ، فقد ارتاح عبد العزيز ماليا لدرجة كبيرة ، كما توافرت لديه الأسلحة . ولم تطلب منه بريطانيا الاشتراك في معارك الحرب العالمية الأولى في العراق والشام ، كما طلبت من الهاشميين ، فتفرغ لبسط نفوذ آل سعود وسيطرتهم على الجزيرة . وكان من نتيجة التعامل ان بريطانيا امنت له خطر الكويت ، وقبائل المنتفق ، بعد احتلالها للبصرة ، وخطر الهاشميين في الحجاز ، واطلقت يده في اخضاع قبائل نجد ، وعلى رأسها آل رشيد ، الذين خسروا سندهم بانكسار الدولة التركية ، فأصبح مصيرهم محتوما ، ثم توجه عبد العزيز ضد الهاشميين في الحجاز . وهكذا نرى ان جميع معارك آل سعود بعد التعامل مع بريطانيا اصبحت انتصارات .

يقول السيد حافظ وهبه إن فؤاد حمزة من مستشاري عبد العزيز حاول أثناء الحرب العالمية الثانية ان يغير موقف عبد العزيز لمصلحة المانيا فلم يفلح . «وقدر له الانكليز هذا الموقف الودي فأعانوه منفردين بما لا يقل عن أربعة ملايين جنيه كل سنة ، ثم انضم اليهم الامريكان فوصلت الاعانات الى ثمانية ملايين قسم منها اغذية وبضائع ، وقسم ذهباً[٣٣] .

لكن هذا التعامل مع بريطانيا لم يخل من الخطر . فقد كان عبد العزيز في هذه الاثناء ينمي قوة «الاخوان» كما سنرى على اساس ديني متعصب . فأنشأ في القرن العشرين دولة دينية مماثلة للدولة السعودية الأولى (١٧٤٤-١٨١٨) .

التوسع السعودي بعد التعامل مع بريطانيا

ترافقت هذه الفترة مع تطورات دولية عملت لمصلحة آل سعود ، فقد انتهت الحرب العالمية الاولى ، واستسلمت تركيا في شهر اكتوبر ١٩١٨ ، وتبعتها المانيا في نوفمبر . وافتتح مؤتمر الصلح في فرساي بشهر يناير ١٩١٩ . وبذلك لم يعد لتركيا دور في الجزيرة العربية ، وانفردت بريطانيا بالتحكم بشؤون المنطقة .

من ناحية أخرى نجد بريطانيا قد خانت وعودها للهاشميين بانشاء الدولة العربية الكبرى في الشمال وصارت تسعى للتخلص منهم ومن وعودها لهم ، فتوجه عبد العزيز ضدهم .

في هذه الفـترة التي شهـدت احتـلال آل سعـود للحـائل ثم للحجاز وعسير اختلطت السياسة بالدين ، وبرزت قوة «الاخوان» مما سيكون موضوع الفصل التالي .

الزواج سياسة ومتعة

جعـل عبـد العـزيز من الزواج ، طيلة حياته ، وسيلة سياسية لكسب تأييد القبـائـل والانصـار ، بالاضافة الى المتعة الشخصية ، فتزوج في الكويت امرأة من عرير من بني خالد هي وضبة بنت هزام والدة تركي وسعود (الملك) .

وبعـد فتـح الـريـاض تزوج من طرفة بنت قاضي المدينة الشيخ عبد الله بن عبـد اللطيف ، من أحفـاد الشيخ احمد بن عبد الوهاب ، التي ولدت له فيصل (الملك) فجدد التحالف الوثيق بين السلطتين المدنية والدينية باعتباره إماماً للوهابية .

وتـزوج جوهـرة بنت مساعد من عائلة جلوي فأحبها كثيرا وهي والدة محمد وخالد (الملك) .

بعـد مقتـل أخيـه سعـد في الحـرب مع العجـمان ، تزوج عبد العزيز أرملته واسمهـا ايضـاً جوهـرة ، وهي بنت سعـد السـديـري ، فولدت له ابنين سعدا ومسـاعـدا وتـوفيت وهي تلد عبـد المحسن . وبعد وفاتها تزوج اختها حية التي انجبت له بدراً وعبيد الله وعبد المجيد وعبد الاله . وتزوج سديرية أخرى هي حصـة بنت أحمـد السـديـري وكـان عمرها ثلاثة عشر عاماً ، وولدت له سعدا الذي توفي طفلاً . ثم طلقها لأسباب غير معروفة فتزوجها أخوه محمد بن عبد الرحمن وولدت له عبد الله ثم طلقها فعاد عبد العزيز وتزوجها وأنجبت له خمس بنـات وسبعـة اولاد هم فهـد (الملك) وسلطـان (وزيـر الـدفـاع) وعبـد الرحمن وتـركي . وبلغ بذلـك عدد اولاد عبد العزيز من زوجات سديريات أربعة عشر ولداً وعشر بنات .

بعد احتلال حائل سنة ١٩٢١ تزوج عبد العزيز فهدة بنت عاصي الشريم ارملة ابن رشيد فولدت له عبد الله ولي العهد الحالي . ومن نساء عبد العزيز بزة والـدة ناصـر وبنـدر وفـواز ، وشهيـدة والدة منصور ومشعال ومتعب ، ومنير ، ويقال إنها أرمنية والدة طلال ونواف . وبشرى والدة مشاري . وبنت الشعلان من قبيلة الـرولـة والـدة ممدوح ومشهـور ، وسيدة اليمنية والدة هذلول ، وبركة اليمنية والدة مقرن ، وفطيمة اليمنية والدة حمود .

١ ـ الريحاني ، أمين ، تاريخ نجد ، ص ١٢١ .
٢ ـ Lacy, Robert, The Kingdon, P. 47
٣ ـ حمزة ، فؤاد ، البلاد العربية السعودية ، ص ٢٤ ، والرشيد ، عبد العزيز ، تاريخ الكويت ، ص ١٧٤ .
٤ ـ السعدون ، خالد ، العلاقات بين نجد والكويت ، ص ٧٥ .
٥ ـ الرشيد ، عبد العزيز ، تاريخ الكويت ، ص ١٧٥ .
٦ ـ خالد السعدون ، سبق ذكره ، ص ١٦٥ .
٧ ـ المصدر السابق ، ص ١٦٦ .
٨ ـ Philby, Harry St. John, Arabia, p. 242
٩ ـ الرشيد ، عبد العزيز ، سبق ذكره ، ص ١٨٢ .
١٠ـ السعدون ، خالد ، سبق ذكره ، ص ١٠٠ .
١١ـ الريحاني ، أمين ، سبق ذكره ، ص ١٤٠ـ ١٤٧ .
١٢ـ السعدون ، خالد ، سبق ذكره ، ص ١١٤ .
١٣ـ المصدر السابق ، ص ١٠٨ و١٠٩ .
١٤ـ الرشيد ، عبد العزيز ، سبق ذكره ، ص ٢١٠ .
١٥ـ المصدر السابق ، ص ٢١١ ـ ٢١٢ .
١٦ـ الريحاني ، أمين ، سبق ذكره ، ص ١٥٢ .
١٧ـ السعدون ، خالد ، سبق ذكره ،ص ١١٨ .
١٨ـ المصدر السابق ، ص ١٢٠ .
١٩ـ المصدر السابق ، ص ١٢٣ .
٢٠ـ الريحاني ، أمين ، سبق ذكره ، ص ١٨٤ .
٢١ـ المصدر السابق ، ص ١٨١ .

٢٢ـ المصدر السابق ، ص ١٨٥ .
٢٣ـ المصدر السابق ، ص ١٨٢ .
٢٤ـ المصدر السابق ،ص ١٩٠ و١٩٣ .
٢٥ـ المصدر السابق ، ص ١٩٧ .
٢٦ـ السعدون ، خالد ، سبق ذكره ، ص ١٦٠ .
٢٧ـ أبو عليه ، عبد الفتاح ، دراسة في مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، ص ١٩٩ .
٢٨ـ الريحاني ، أمين ، سبق ذكره ،ص ٢١٧ـ٢١٨ .
٢٩ـ Holden, David, Johns, Richard, The House of Saud, p 50
٣٠ـ الرشيد ، عبد العزيز ، سبق ذكره ، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ .
٣١ـ خالد السعدون ، سبق ذكره ، ص ١٨٣ .
٣٢ـ الريحاني ، أمين ، سبق ذكره ، ص ١٨٩ .
٣٣ـ وهبة ، حافظ ، خمسون عاما في الجزيرة العربية ،ص ٤٩ـ ٥٠ .

٧

عبد العزيز، الأخوان، وضم الحجاز

مع أفول نجم آل سعود في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، خبا أيضاً وهج الدعوة الوهابية وضعف أثرها في نجد واستمرت الدعوة على ضعفها ، الى ان استولى عبد العزيز على الرياض وبدأ يجهد لاستعادة المناطق التي دانت بالطاعة لاسلافه في فترات متقطعة .

بعد ذلك بسنوات ظهرت حركة وهابية جديدة سمي أتباعها «الاخوان» واعتبرت احياء للدعوة السابقة تدين بالعقيدة نفسها لكنها تختلف عن سالفتها بأنها ظهرت بين البدو وتوجهت باهتمامها الى القبائل . في حين كانت دعوة محمد بن عبد الوهاب موجهة بالأساس الى سكان الواحات .

هناك خلاف على تاريخ قيام الدعوة . بعضهم يقول إنها ظهرت عام ١٩١٢ في الارطاوية التي تبعد أربعماية كيلومتر شمال الرياض في منطقة عشيرة المطير ، التي يرأسها فيصل الدويش حفيد فيصل الدويش ، الذي تعاون مع الحملة المصرية ضد آل سعود ، وبعضهم يقول انها قامت بعد سنة ١٩١٣ بدليل ان الاخوان لم يلعبوا أي دور في استيلاء الامام عبد العزيز على الرياض عام ١٩٠٢ ثم على الاحساء سنة ١٩١٣ . [١]

برز في زعامة الاخوان الى جانب فيصل الدويش زعيمان آخران هما سلطان بن بجاد في قرية غطغط وهو شيخ عشيرة العتيبة التي تقع منازلها ما بين نجد والحجاز . وضيدان بن حثلين شيخ قبائل العجمان في الاحساء .

كما ثار تساؤل حول الذي أسس حركة الاخوان ، وهل كان الامام عبد العزيز صاحب الفكرة ام أنها نشأت بين البدو فاحتضنها الامام ووضع نفسه على رأسها .

يقول هـ . ديكسون الوكيل السياسي البريطاني في البحرين والمعاصر للحركة ، انها لم تكن من تأسيس ابن سعود وبالتالي ليس هو صاحب الفكرة الاولى لهذه الحركة وانما استهوته بعد دخوله الاحساء عام ١٩١٣ فوضع نفسه على رأسها .(٢)

وقد اختلف وضع عبد العزيز عن اسلافه . فأولئك اعتمدوا على السكان نصف الحضر من أهل الواحات ، الذين فقدوا عصبيتهم القبلية ، واستطاع هؤلاء بوجاهة الامام ان يسودوا أهل الواحات ، وشكلوا منهم قوة تغلبت على بعض القبائل البدوية ، والتحقت بها قبائل أخرى عن قناعة دينية ، او بما وفروه للبدو من فرص الغزو .

اما عبد العزيز فقد وجد امامه حركة دينية قامت بها عشائر بدوية من أقوى عشائر نجد ، كعتيبة ومطير والعجمان . ويتزعم كل عشيرة شيخها الذي لا ينازعه الزعامة أحد . وهكذا تحققت شروط ابن خلدون : عصبية دينية ، تدعمها عصبية بدوية ، مستندة الى قرابة الدم ، يتولى قيادتها في كل من القبائل الثلاث ، أقواها وأثبتها نسبا .

جلب عبد العزيز لهذا الجهاز القبلي ـ الديني القائم ، فائدة معنوية باعتباره أمام الوهابية بالتوارث ، وسليلا للعائلة التي نشرت الدعوة في القرن السابق . اما من ناحية القوة الفاعلة فقد كان آل سعود هم المستفيدون من قوة عتيبة والمطير والعجمان لا العكس .

ومما يجب الانتباه اليه ، ان زعماء القبائل الثلاث ، التي شكلت عماد حركة الاخوان طيلة خمس عشرة سنة ما بين ١٩١٤ ـ ١٩١٩ ، حين قضى عبد العزيز على الحركة ، بقوا متساندين ومتكاتفين .

فهل كان ذلك تضامنا بدويا تلقائيا ضد سكان الواحات انصاف الحضر ؟ ان الذين كتبوا عن عهد عبد العزيز لم يفسروا هذه الظاهرة ، لكننا نعتقد ان هذا هو الواقع .

تطور حركة الاخوان ، تأسيس الهجر

نعود الى بحث التطور التاريخي لحركة «الاخوان» .

في سنة ١٩١٦ امر عبد العزيز القبائل البدوية التابعة له بالانضمام الى «الاخوان» واعتناق الدعوة الوهابية ، ودفع الزكاة له ، وترك حياة البداوة والتنقل ، والاستيطان في الهجر . فاطاعته بعض القبائل ورفضته قبائل

اخرى ، كالرولة والعجمان ، لأنهم رأوا في الاستيطان تفكيكا لمجتمعهم القبلي .(٣)

أنشأ عبد العزيز الهجر (جمع هجرة) وهي مستوطنة غايتها توطين البدو والصاقهم بالأرض ، ليتخلوا عن حياة التنقل ، ويتحولوا الى مزارعين مع تلقينهم الدعوة الوهابية ، بأمل أن تحل العصبية الدينية محل العصبية القبلية ، ويتجه ولاء «الاخوان» الى امام الحركة لا الى شيخ العشيرة .

ترافق انشاء الهجر مع عقد معاهدة القطيف - دارين في ديسمبر ١٩١٥ وبدء المساعدات الانكليزية المالية له .

وهكذا تمكن عبد العزيز من تمويل عملية الاستيطان «ففرض» على كل قبيلة بدوية ان تهجر بيوت الشعر وتبني الى جوار الماء حيثما وجد . وأن تزرع وتحصد وتستقر ، ولها من بيت المال المساعدة على البناء والزراعة .(٤)

وقد نشأت خلافات بين المؤرخين العرب حول غاية عبد العزيز من بناء الهجر . فبعضهم ، كالسيد خير الدين الزركلي والاستاذ أمين الريحاني ، والسيد فؤاد حمزة ، نسبوها الى رغبة الامام عبد العزيز «بتحضير» البدو ، أي نقلهم من حياة التنقل الى حياة الاستقرار والالتصاق بالارض عن طريق الزراعة . فهي برأيهم عملية اقتصادية - اجتماعية تدل على تطلعات الامام عبد العزيز الحضارية .(٥)

لكن السيد حمد الجاسر يقول : «ان الهجر لم تكن هجراً زراعية بالمعنى الحقيقي ، وانما هي على شكل وحدات سكنية بناها البدو حول بئر ماء وبجانبها مسجد . وكان جل اعتماد سكان الهجر على عطايا الدولة(٦) ، ويدل على ذلك ان اكثر البدو الذين سكنوا الهجر لم يتخلوا عن الترحال وحياة البداوة في فترات من كل سنة ، كما أن بعضهم هجر الهجر كلياً وعاد الى البداوة .

ويقول الاستاذ عبد الفتاح أبو عليه ان الاخوان اسموا قراهم بالهجر نسبة الى هجرة الرسول وصحبه من مكة الى المدينة .(٧)

وللسيد محمد جلال كشك رأي مماثل ، فهو يستنكر ان تكون الغاية من الهجر نقل البدو الى الحياة المدنية ، أي غاية اقتصادية - اجتماعية ، ويعتبر أنها كانت عملية ثورية لاحياء الدين فيقول : لا تعني «الهجرة» الانتقال من حياة البدو الى حياة الزراعة ، وانما هي هجرة تستوحي الهجرة الاولى اي الهجرة الى الله ورسوله .(٨) ويقول : تحدث عبد العزيز نفسه عن الهجرة فلم يشر الى مشروعات الزراعة او بناء المدن بل شرح طبيعتهم التطوعية او الندائية فقال :

يجيئوننا في السلم فنعطيهم كل ما يحتاجون اليه من كسوة ورزق ومال لكنهم في أيام الحرب لا يطلبون منا شيئاً .[٩]

لكن حركة توطين البدو في الهجر ، سواء كانت الغاية منها اجتماعية ـ اقتصادية ، أو كانت تستوحي الهجرة الى الله ، فانها لم تنجح ولم تستمر على الصورة التي أريدت لها ، فكثير من البدو الذين سكنوها في البداية ، عادوا الى ديارهم البدوية الاولى . وبعضهم كان يعيش في البادية طوال العام ولا يعود للهجر الا أثناء الزرع والحصاد . اما الذين بقوا مقيمين ، فما كان اعتمادهم على الزراعة بل على معونات ابن سعود ، مما يعني عدم اعتمادهم على جهودهم .[١٠]

عقيدة الاخوان

يقول الدكتور عبد الفتاح ابو عليه : (تشترك حركة «الاخوان» مع الحركة السلفية الأولى بطابعها الديني . فالتعصب الديني الشديد الذي تميز به «الاخوان» كان يماثله التشدد الديني عند السلفيين القدامى . والشدة القاسية التي عامل بها السلفيون الأوائل ، سكان العراق وبلاد الشام اثناء غزواتهم الاولى «الفتح الاسلامي» تتشابه الى حد كبير مع القسوة التي عامل بها «الاخوان» سكان المناطق نفسها على اعتبارهم ليسوا سلفيين او اخواناً . و«الاخوان» والسلفيون يكنون كرها شديدا للافرنج المسيحيين . وقد لمست بنفسي أثناء اقامتي في السعودية كره السعوديين وخصوصاً المتقدمين في السن منهم ، للاجانب المسيحيين) .[١١]

استخدم الامام عبد العزيز وسائل الاغراء والتبشير والتهديد لنشر دعوة «الاخوان» . فالاغراء بالعطايا تمثل باعطاء شيوخ القبائل بيوتا في الرياض ، واموالا وثيابا وارزا وتمرا وشايا وقهوة وطحينا . وكان التبشير من نصيب أفراد القبائل العاديين ، وكان التهديد والارغام من نصيب من لا ينفع معه الاغراء والتبشير .

أقنع الامام عبد العزيز رؤساء القبائل ، بالحضور الى الرياض ودراسة الامور الدينية ، على يد مشايخ وهابيين أعدهم لهذه الغاية ، مغرياً اياهم بالهدايا والعطايا والبيوت التي وهبها لهم في الرياض .[١٢] وقد تلقوا تعليما دينيا بدائيا فاعلنوا انتسابهم للوهابية وخضوعهم للامام عبد العزيز . «وأرسل عبد العزيز الى الهجر والقبائل عددا كبيرا من «المطاوعة» بقصد التثقيف الديني .

وأهم ما يقوم به المطوع «الارشاد الى الطاعات» . وهو الخطيب في القرية يصلي بأهلها ، ويعلم أبناءها ، ويفتي كبارها ، ويعقد لها في الزواج ، ويقسم مواريثها ، ويتوسط في حل مشكلاتها . وللمطوع سلطة الجزر عن المعاصي» .[١٣]

ويقول الاستاذ عبد الفتاح ابو علية : «وضع الامام عبد العزيز كل ثقله لانجاح مشروعه ، فركز على أهمية العطايا ، وأهمية تثقيف البدو الثقافة الدينية ، الا ان بعض أدعياء العلم ثقفوهم تعاليم دينية ناقصة ، وغرسوا في نفوسهم حب الامام ، وقالوا ان لبس العقال حرام ، ويجب لبس العمامة ، وعليهم دفع الزكاة للامام» .[١٤]

وقال عنهم السيد حافظ وهبة مستشار الملك عبد العزيز : «ان العلماء الجهلة انتشروا في قرى «الاخوان» وعلموهم التعاليم الدينية الناقصة . وزاد الطين بلة جهل «الاخوان» ، اذ ان القليل والنادر منهم يقرأ ويكتب . هذا ما جعلهم متعصبين ومتزمتين لما تلقوه من انصاف المثقفين الدينيين . حتى اعتقدوا ان هذه التعاليم هي الدين وما سواها ضلالة . كما أساءوا الظن بغيرهم من حضر نجد (وفي وقت لاحق) تولى أمرهم الامام عبد العزيز . وقالوا بغزو الحضر سكان المدن النجدية والحجازية لأنها بلاد الكفار» .

وتابع السيد وهبة قائلا : «اعتقد «الاخوان» ان العمامة هي السنة ، وان العقال من البدع المنكرة ، بل غالى بعضهم فجعله من لبس الكفار ويجب مقاطعة لابسيه . وقضوا بحلق الشوارب واطلاق اللحى ، واعتبروا ذلك من السنة . ونال بعضهم من الامام عبد العزيز نفسه فرموه بموالاة الكفار (الانكليز) والتساهل في الدين ، وانكروا عليه ألقاب السلطان والملك ، وتطويل شاربه وثوبه ، ولبس العقال» .[١٥]

وقال الاستاذ احمد عبد الغفور العطار في كتابه «صقر الجزيرة» : ان اكثر الاخوان كانوا جامدين يعيشون فيما يشبه الجب لا يبرحونه . وبلغوا من الشدة والعنف والجهل ان حرموا ما أحله الله ، وافتوا بغير ما أنزل ، وكفّروا المسلمين واعلنوا الحرب على كل ما انتجته الحضارة ، وانكروا على المصلحين اصلاحهم .

وقال إن فيصل الدويش وسلطان بن بجاد وضيدان بن حثلين (زعماء الاخوان الذين قادوا غزوات عبد العزيز) وأتباعهم يعيشون عيشة بدوية فظة غليظة . وهم اعداء الحضارة والمدنية ، وكانوا متساوين في الجلف والشدة والنقمة العارمة على المتمدنين والمدنية . وهم وحوش ضارية مفترسة ينساقون

مع غرائزهم المتوحشة . وكان سلطان بن بجاد الذي لقب نفسه «سلطان الدين» سفاحاً قاتلاً .[١٦]

وقال السيد محمد المانع الذي عمل مترجما في ديوان الملك عبد العزيز ما بين ١٩٢٦ ـ ١٩٣٥ : «ان الاخوان اشتهروا بتعصبهم الديني ، وكانوا تواقين الى شن الحروب على الكفار . والكافر بنظرهم كل من ليس من الاخوان . وكانوا يحرمون الموسيقى ، ويكرهون الشعر والشعراء ، ويصرون على لبس الملابس الخشنة ، اذ يعتبرون لبس الحرير بذخاً محرماً . وكانوا لا يحبون اي نوع من أنواع الحلي ، ويستنكرون استعمال العطور . وحين تصاعدت قوتهم ازداد نفوذهم في الحياة اليومية للناس العاديين ، لدرجة ان الذين لم يمروا بتلك التجربة ، يصعب عليهم تصورها . وقبيل وصولي الى الرياض ، أول مرة عام ١٩٢٦ ، أجلد الاخوان علناً رئيس الديوان الملكي بمجرد الشك أنه لم يؤد الصلاة مع الجماعة . وكانت جماعات منهم تجوب الشوارع وتتصرف بوصفها شرطة دينية عينت نفسها لتعاقب كل شخص لا يتبع تعاليمها » .

واضاف السيد محمد المانع : «كانوا يمسكون في الشارع أي رجل وشارباه غير محفوفين ، أو ثوبه أطول من المقبول لديهم فيقصوا الزائد من شعره وثوبه . ولم يسلم عبد العزيز من هذا . فقد قيل أنه زار مرة فيصل الدويش في الارطاوية فحياه مضيفوه بأن ثوبه أطول مما ينبغي واحضروا مقصا فأزالوا من الثوب ما يتجاوز «حد الدين» . وكانت رؤية سيكارة في يد انسان تعني جلده على الاقل .

«وكان الاخوان كارهين للعلم وللتقدم فاعتبروا أي نوع من أنواع التقنية الحديثة شرا وكفرا ، كالتلفون والتلغراف والسيارات والساعات والكهرباء .

«وكان الاخوان كارهين للعلم وللتقدم فاعتبروا أي نوع من أنواع التقنية الحديثة شرا وكفرا ، كالتلفون والتلغراف والسيارات والساعات والكهرباء .
وقالوا عنها إنها سحر من عمل الشيطان لأنه لم يرد لها ذكر في القرآن ، فقاوموا استخدامها ونشرها وأخروا تقدم البلاد» .[١٧]

ويروي السيد جلال كشك إنه في العقد الثاني من القرن العشرين ، أعلن الاخوان ان المندوب السامي البريطاني نجس وان النجاسة تنتقل منه الى كل من يؤاكله ، وهذا ينقلها بدوره الى غيره مما يحتم كسر الزير او الابريق اذا لمسه كل من أكل مع مسيحي» .[١٨]

وقال أمين الريحاني : «ان الاخوان في ما ظهر من بسالتهم وبطشهم وهول استشهادهم ، أورثوا عبد العزيز مشكلا آخر . فقد طغى الاخوان وتجبروا

فضـح النـاس . راح الاخـوان يحاربـون من لم يتبعهم من البـدو ، فيكفـرون وينهبـون ويقتلون . أنت يا بدوي مشـرك والمشـرك حلال الـدم والمـال . وقـد انتشـرت من جراء ذلـك الفـوضى في البـلاد ، وكـاد يقطـع حبـل الأمن والسلام» .[١٩]

وقـال حافـظ وهبـة : ان الاخـوان تمادوا في قصـاص النـاس خصـوصا بعد دخـولهم الحجـاز . وكـانـوا ينفـذون القصـاص في الحال ولأبسط الأمور . فقد جلدوا رئيس الـديـوان الملكي كما رأينـا . وحاولوا قتل ثلاثة قناصل مسلمين في جدة هم قنصـل روسيـا وايـران وجـاوة . وهـاجمـوا المحمل المصري لأنه برأيهم بدعـة ، وأزالـوا الكثـير من القبـاب والأضرحة المرتفعة عن سطح الارض على اعتبارها من البدع . ولو تركوا على هداهم لدمروا كل ما أقامه الفن العربي في الجزيرة . واضطر الملك عبد العزيز الى فرض ضرائب غير الزكاة لتنظيم الدولة بعد فتح الحجاز . الا ان الاخوان تصدوا له وطالبوه بالغائها .[٢٠]

وقـال عبـد الفتاح ابو عليه : «احتج الاخوان على الملك لارساله ابنه سعود لزيـارة مصـر للعـلاج لأنها بلد الكفار . واحتجوا على ارسال ابنه فيصل لزيارة البلاد الاوروبية لأنها اكثر كفرا . وطالبوه بمنع قبائل العراق والاردن من الرعي في أراضيهم على اعتبارهم كفرة ويحرم عليهم دخول ارض المسلمين . وطالبوه بعدم التجارة مع العراق وايران على اعتبارها بلاد الكفار» .[٢١]

وعـارض الاخـوان بنـاء المخـافر العراقية على الحدود السـعودية ، وهاجموها وطالبوا الملك عبد العزيز بقطع علاقاته مع بريطانيا .

ورأوا أن استخـدام السيـارات والـلاسلكي والهـاتف بدع لأنهـا من صنـع الفـرنـج . وكـانـوا يرون ضرورة محاربـة الـدول المجـاورة كالعـراق والاردن واحتلالها ، ونشر الوهابية بين سكانها .

لقـد منـع الاخـوان الموسيقى بمختلف أنواعها ، والرقص والتصوير والرسم والنحت والغنـاء والتمثيـل ، وزرع الـزهـور والورود ، وبناء العمارة الاسلامية المميـزة ، وكـل ما له صلة بالفنـون الجميلة ، فزادوا في قساوة الصحراء وحرموا النفس البشـريـة من تعـابـير الجـمال التي تسمـو بها الى العـلاء ، وكبتـوا ملكة الابداع والخلق والتعبير ، وهي سمات التقدم والرقي في كل مجتمع بشري . ولما زار الـريـاض الفيلسـوف اللبنـاني أمين الريحاني سنة ١٩٢٢ لم يجد في شرفاتها او ساحاتها أو بيوتها نبتة ورد أو زهر . كما حرم الاخوان لعب الاطفال البريئة ، وما زالوا ينظرون شذرا الى من يضحك علناً وكأن البشاشة وسماحة الخلق عندهم نقيصـة ، كما أن تدينهم لم يشمـل فضيلة التسـامـح والمحبة والرفق والدعوة الى

الدين بالتي هي أحسن ، وقد قال الشاعر عبد العزيز ابن العيثمين أبياتا وصف فيها الاخوان ، بعدما نكل بهم الامام عبد العزيز جاء فيها :

حسبوا الحقد والتعصب ديناً — أي دين يبقى مع البغضاء
يا غلاة الاخوان ضيقتم الدين — ورغبتم عن منهج الحنفاء
ما رأيتم منه سوى الكبت — والحقد وإبداء نقمة وازدراء
وانتقاصا من الشوارب — والثوب وميلا لغزوة وعداء
قد عرفناكم جنود مليك — فمتى صرتم جنود السماء

سبق ابن العيثمين الى المعنى ذاته حاكم البحرين الشيخ خليفة بن حمد آل خليفة الذي قال :

لك الحمد يا مولاي حمداً مؤ بداً — على نعم جلى واعظمها الهدى
ويا بدعة ما قد سمعنا بمثلها — تكفر كل الناس حتى الموحدا

الامام عبد العزيز و«الاخوان»

حفلت علاقة عبد العزيز بالاخوان بالتناقضات منذ بدايتها . اي أن اتفاقه معهم حمل منذ نشوئه بذور الفشل والصراع .

كان عبد العزيز يدرك بوضوح ، منذ أن كان منفياً في الكويت ، قوة بريطانيا في الخليج ونفوذها في المحميات ، وأن لا أمل له بتحقيق ملك واسع الا بمساعدة دولة قوية ، وحيث ان تركيا كانت متحالفة مع ابن رشيد ، فليس له الا الدولة البريطانية .

ومع ذلك ، «كان يعطي توجيهاته للعلماء ، وهم بدورهم يلقنونها للبدو في المساجد عن طريق ا لخطب في الصلاة والارشادات والدروس الدينية ، بوجوب طاعة الامام ودفع الزكاة وتلبية أوامره من أجل الجهاد ضد من لم يعتنق المذهب السلفي» .[٢٢]

والحقيقة ان الفراق بين الامام والاخوان لم يأت من جانبه بل من جانب

الاخوان ، فهم الذين ثاروا عليه ، لتقويم أمره ، حسب اعتقادهم ، معتزين بعصبيتهم البدوية وقوة عشائرهم ، وليس هو الذي تخلى عنهم .

فتوحات الامام عبد العزيز

مع حلول عام ١٩١٧ بلغ عدد الهجر نحو مائتين منتشرة في انحاء نجد ، فتشكلت بذلك شبكة عسكرية قوية تضم نحو ١٠ـ١٢ الف مقاتل يتضاعف عددهم عند اعلان النفير العام . ولم تخف الغاية العسكرية من حركة الاخوان ، فوصفهم الملك حسين ابن علي بأنهم «مجتمع سياسي متلبس برداء الدين» .

وخلافاً لما توحيه مؤلفات معظم الكتاب العرب الذين صوروا الاخوان كقوة حربية لا تقهر في الجزيرة العربية ، فان الوقائع التاريخية تبين أن «جهاد» الاخوان كان فاشلا . فما بين نشوء الهجر بعد ١٩١٣ والى عام ١٩١٦ خاض الاخوان معركتين قاسيتين فقط ، احداهما ضد آل رشيد في جراب حيث هزمتهم شمر هزيمة شنيعة ، والثانية ضد العجمان في الاحساء حيث انهزم الاخوان ايضا واستولى العجمان على معظم ارجاء المنطقة . مما دل على انه لم تكن للاخوان قوة ذاتية منبعثة من تنظيمهم الخاص .[٢٣]

ونلاحظ انه لم يصبح للاخوان شأن عسكري ، وتبدأ انتصاراتهم المتلاحقة ضد آل رشيد والهاشميين والادارسة الا بعد هزيمة الدولة العثمانية وانقطاع دعمها المالي والعسكري فضعفوا .

اما بالنسبة لغزوات الاخوان في هذه الفترة خارج حدود نجد ، ضد بدو العراق والاردن والشام ، وهي الغزوات ضد المصالح البريطانية التي ضخمها مؤرخوا آل سعود تكبيرا القيمة عبد العزيز ، فجعلوها تصل الى قرب عُمان والشام . فقد كانت غزوات للتأديب ، لم تستمر اي منها اكثر من يومين او ثلاثة ، وانتهت كلها بالهزيمة والتراجع السريع امام القوات العراقية والاردنية النظامية . وهي غزوات لم تستهدف بأي حال الاحتلال والبقاء او نشر الدعوة الوهابية لقصر مدتها .

وقعة الجهرة مع الكويت (١٠ اكتوبر ١٩٢٠)

توفي جابر الصباح في فبراير ١٩١٧ وخلفه أخوه سالم بن مبارك وكان عثماني الميول متطرفاً في دينه. وكان توليه مشيخة الكويت ايذانا بعودة التوتر بين نجد والكويت وتصاعده حتى وصل الى مرحلة الصدام، كما فترت علاقاته مع الانكليز لأنه مال ضمناً الى الاتراك أيام الحرب.

برزت بين الرياض والكويت ثلاث قضايا رئيسية: قضية العجمان، وقضية الرسوم التي طالب بها عبد العزيز على البضائع المباعة الى أهل نجد، وخلافات الحدود.

فقد كان العجمان المقيمون في العراق يهاجمون قبائل نجد مارين بالكويت، فطلب عبد العزيز من سالم منعهم فلم يستجب له. وتوالت الغزوات بين قبائل البلدين.

اما قضية الرسوم، فان عبد العزيز كان بأشد الحاجة الى زيادة موارده المالية من أي مصدر. وكانت الكويت، ميناء نجد كما ذكرنا. تسير منها القوافل محملة بالبضائع الى أرجاء نجد سالكة مختلف السبل الصحراوية بمجرد مغادرتها لمدينة الكويت، فكان يصعب على عبد العزيز تحصيل الرسوم منها. لذلك طلب ان يعين جباة سعوديين في الكويت يجبون الرسوم على البضائع المتجهة الى نجد، أو ان تتكفل الكويت بدفع مبلغ مساوي له. ورفضت الكويت ذلك وبقيت القضية تتفاعل.[٢٤]

وبالنسبة لخلافات الحدود، فقد جاءت نتيجة للعلاقة العدائية بين عبد العزيز وسالم، عندما رد عبد العزيز على موقف سالم من العجمان بجباية الزكاة من قبيلة الهوازم الكويتية. وتفاقم الخلاف لما قام فخذ من قبيلة نظير يقودهم ابن شقير في ابريل ١٩٢٠ بتأسيس مستوطنة اخوانية في اراض يزعم الكويتيون ملكيتها في موقع يدعى «قرية».

طالب سالم من ابن شقير ان ينسحب، فلم يستجب له، فسير عليه حملة كويتية، فاستنجد ابن شقير بفيصل الدويش زعيم مطير الذي زحف من الارطاوية واشتبك بالقوة الكويتية في ٢٠ مايو فهزمها وغنم منها أموالا كثيرة.

خشي أهل الكويت من هجوم الاخوان فبنى سالم سورا حول المدينة وحصنها، ورفع الفريقان خلافهما للمعتمد البريطاني. وادعى عبد العزيز ان هجوم فيصل الدويش جرى خلافا لرغبته، فيما قال الكويتيون انه هو الذي أمر بالهجوم. وتراسل الفريقان لكنهما فشلا في التفاهم. وسعى الانكليز لاجراء

تحكيم يتولونه ، لكن الوقت طال لانشغالهم بثورة العراق وداهمتهم معركة الجهرة .

فقد اتجه فيصل الدويش من الارطاوية الى داخل اراضي الكويت ووصل الى الصبيحة في ١٨ اكتوبر على رأس اربعة آلاف مقاتل بينهم خمسمائة خيال ، وتوجه سالم الى الجهرة في ضواحي الكويت التي توقع ان يقع الهجوم عليها .

شن الاخوان هجومهم على الجهرة صباح العاشر من اكتوبر في ارض مكشوفة فقتل منهم عدد كبير ، وانسحب سالم واتباعه وتحصنوا في حصن قريب من الجهرة فحاصرهم الاخوان وضغطوا عليهم . وتفاوض الفريقان فطلب الاخوان من اهل الكويت الدخول في المذهب الوهابي فرفضوا . عندها طلب الشيخ سالم معونة بريطانيا بموجب معاهدة الحماية من أنه كان معادياً للانكليز اثناء الحرب العالمية الثانية ويميل بوضوح الى الاتراك .

لبى الانكليز اشتغاثته فوجهوا سفينتين حربيتين رابطتا امام ساحل الكويت ، كما ارسلوا طيارتين من العراق لقصف معسكر الاخوان اذا لم ينسحبوا ، ونصبوا مدافع على سطوح بعض بيوت المدينة ، واصدر الانكليز انذارا للقوات الوهابية بالانسحاب ، كما ابلغوا ذلك لعبد العزيز الذي أجاب أنه سبق وأصدر أمراً للاخوان بالانسحاب وهذا ما جرى . واعتبرت الجهرة هزيمة للقوات الوهابية بفضل التدخل الانكليزي .

عاد الشيخ سالم من الجهرة بحالة صحية سيئة وتوفي في ٢٧ فبراير ١٩٢١ وخلفه عمه احمد الجابر فاعلن عبدالعزيز انه لم تعد هناك حاجة لشروط بين البلدين وأمر بفتح الحدود .

وعادت قضية الرسوم الجمركية تتفاعل . فقد طلب عبد العزيز من احمد الجابر تعيين موظف من قبله ، ليستوفي الرسوم على البضائع الذاهبة الى نجد ، فرفض شيخ الكويت ذلك . وقابل عبد العزيز هذا الرفض بمنع رعاياه من التموّن من سوق الكويت . وحولهم الى القطيف والاحساء وجبيل . وبقيت المشكلة قائمة زمناً وتضرر منها أهل الكويت وأهل نجد على السواء . (٢٥)

عبد العزيز «سلطان نجد» (١٩٢١)

في صيف ١٩٢١ عقد عبد العزيز مؤتمراً في الرياض دعا اليه رؤساء القبائل والعلماء تقرر فيه ان يحمل لقب «سلطان نجد» ولم يكن هؤلاء ليخالفونه . وحدث ذلك بعدما ارتقى فيصل بن الحسين عرش العراق . وقد كتب عبد

العزيز الى المفوض السامي البريطاني في العراق يخبره بقرار مؤتمر الرياض «ويرجو أن يكون ذلك مستحسناً لدى الحكومة البريطانية البهية»[٢٦] على أثر ذلك اعترفت بريطانيا بتاريخ ٢٢ اغسطس ١٩٢١ لعبد العزيز ولمن يخلفه من ذريته بلقب «سلطان» .

التغلب على آل رشيد
سقوط حائل (نوفمبر ١٩٢١)

ذكرنا في فصل سابق نسب آل رشيد وتتابع أمرائهم على حكم حائل .

وكانت علاقة آل رشيد بالوهابية فاترة في هذا الوقت . فعبد الله بن رشيد الذي ساعد الامام فيصل بن تركي على استعادة الرياض تبع المذهب الوهابي ، لكنهم لم يتعصبوا له فسمحوا للشيعة وغيرهم بسكنى حائل ، وخففوا كثيرا من أوامر ونواهي المذهب الوهابي ، كما تخلوا عن نشر الدعوة . وفي عهد محمد آل رشيد تخلت شمر عن تطبيق الشريعة ، وعادت تسير بموجب القانون العرفي القبلي ، لأن روح الوهابية كانت قد ماتت في النفوس وان بقيت بعض شكلياتها .

كان آل رشيد حلفاء مخلصين للدولة العثمانية ، يعترفون بسيادتها وتمدهم من ناحيتها بالمال والسلاح . فشكلوا بذلك قوة قادرة على صد التوسع الوهابي وايقافه ، وكانت المعارك سجالا بين الطرفين طيلة عشرين عاما .

لكن الحال اختلف بعدما انهزمت تركيا في الحرب العالمية الاولى ، فضعف موقف آل رشيد وتعزز موقف عبد العزيز حليف بريطانيا المنتصرة ، فكان لا بد أن يعمد هذا الى السعي للاستيلاء على جبل شمر والقضاء على القوة الوحيدة الباقية التي تتصدى له في نجد . وساعده على ذلك التقاتل ضمن عائلة آل رشيد . فقد قتل عبد الله بن طلال ، سعود بن عبد العزيز عام ١٩١٩ وهذا بدوره قتله عبد من عبيد سعود . وتولى بعده عبد الله بن متعب ، لكن محمد بن طلال نازعه على الامارة فالتجأ عبد الله الى عبد العزيز بن سعود ، وأقام في الرياض . لكن المقاومة الشمرية استمرت بقيادة محمد بن طلال .

وكان عبد الله بن متعب قد حاول ان يتصالح مع عبد العزيز آل سعود ، فاشترط هذا عليه ان يتولى هو علاقات شمر مع جيرانهم ، فرفض عبد الله . عندها جهز عبد العزيز قوة كبيرة بقيادة اخيه محمد وابنه سعود فحاصر حائل اكثر من شهرين ثم ارتد عنها . واستمرت الحرب مدة طويلة . وفي خلالها نفد ما لدى قوات عبد العزيز من أطعمة وزاد ، فضاق به الحال ، واستنجد بشيخ الكويت احمد جابر الصباح فأنجده .(٢٧)

جند عبد العزيز آل سعود ، حملة ثانية على حائل في خريف ١٩٢١ . مسلحا بالمال والعتاد الانكليزي . فدخل الاخوان حائل واحتلوها وكان ذلك نهاية آل رشيد ، كقوة سياسية وعسكرية في أواسط الجزيرة .

على أثر هذا الاحتلال هاجر اعداد كبيرة من شمر الى العراق ، خصوصا من قبيلة (عبده) الشهيرة وانضموا الى (الجربا) الذين سبقوهم في القرن الثامن عشر . وقد رحب العراق بهم واسكنهم الاراضي الخصبة غرب الموصل ، حيث ما يزالون الى الآن . وفي الاعوام التي تلت سقوط حائل ، شارك الشمريون في الغارات التي شنتها القبائل العراقية على الاراضي النجدية ، وقد طالب عبد العزيز مراراً الحكومة العراقية باعادة شمر الى نجد ، متوسطاً المندوب السامي البريطاني ، فلم تستجب الحكومة العراقية له .

حدود التوسع السعودي

باحتلال جبل شمر اتسعت مناطق عبد العزيز نحو خمسماية كيلومتر شمالا وصارت متصلة بحدود العراق والاردن ، أي أنه وصل الى حدود المناطق المشمولة بانتداب بريطانيا ، وبالتالي بحمايته .

ادعى عبدالعزيز بأن وادي سرحان (وادي الازرق) هي اراضٍ سعودية . وكانت غايته من ذلك ان يفصل ما بين العراق والاردن ، وان تتصل حدوده مباشرة بسوريا . لكن بريطانيا لم تمكنه من ذلك وضمت هذه المناطق الى الاردن . كذلك رفضت ادعاءه بملكية العقبة وابقتها ميناء للاردن .

بطبيعة الحال لم يكن الاخوان وزعماؤهم مدركين لهذا الوضع السياسي الجديد ، فاندفعوا يتابعون غزواتهم لفرض دعوتهم ولنهب القبائل والمناطق المجاورة ، وكان توسعهم مضمون النجاح ما داموا لا يصطدمون بالمصالح

البريطانية ، وكان فاشلا في كل مرة خرجوا عن النطاق المعين لهم ضمناً . فكانوا كالاعشى يخبط في الظلام .

ونظرا لمعرفة عبد العزيز بصورة عامة بالحدود المرسومة ، ولجهل قادة الاخوان بها ، فكان لا بد ان يحصل التصادم بينهما عندما يحاول كبح جماحهم .

استطاعت قوات عبد العزيز مثلا ، ان تهزم قوات الشريف عبد الله بن الحسين ، في تربة يوم ٢٥ مايو (ايار) ١٩١٩ وهي تقع على بعد ماية كيلومتر من مكة ، لكن الزحف توقف رغم ممانعة «الاخوان» .

ويقول الاستاذ حافظ وهبة في ذلك : «لا ينتقص من قدر عبد العزيز المبالغة في مجاملة الانكليز في مختلف المسائل . فقد سبق ان انذره الانكليز عام ١٩١٩ بعد واقعة تربة . وهم الذين اجبروه على التراجع عنها» . [٢٨]

وعندما اتجه الاخوان لمهاجمة الكويت في شتاء ١٩٢١ بقيادة فيصل الدويش ، بحجة ان الكويت أزالت مستوطنة وهابية لقبيلة مطير ، تصدى لهم الانكليز بعنف وردوهم مستعينين بالاسطول البريطاني ومهددين باستخدام الطائرات دفاعاً عن المحمية البريطانية . [٢٩]

وفي مارس ١٩٢٢ اتجهت قوة من الاخوان تقدر بألفي مقاتل بقيادة فيصل الدويش نحو الحدود العراقية للغزو لكن الطائرات البريطانية والقوات العراقية تصدت لها وردتها .

احتلال عسير

في يونيو ١٩٢٢ ارسل عبد العزيز جيشا بقيادة ابنه فيصل ضد آل عائض في جبال عسير ، فاستولى على أبها ، وبيشة وخميس مشيط ، وولى على المقاطعة ابن عفيصان . [٣٠] فلم تحرك بريطانيا ساكنا لأن عسير خارج مناطق مصالحها وحمايتها .

وفي صيف ١٩٢٢ دخلت قوة من «الاخوان» تقدر بألف وخمسماية رجل حدود الاردن ووصلت الى بعد عشرين كيلومترا من عمان ، وتغلبت على قريتين من بني صخر ، ثم تغلبت عليها القوات الاردنية وارجعتها . فكانت آخر غزوة وهابية للأردن .

معاهدة عقير (٢٨ نوفمبر ١٩٢٢)

شعرت بريطانيا بحرج من الغزوات المتبادلة بين القبائل النجدية وقبائل

الكويت والعراق والاردن ، اذ ان الجميع يتمتعون بحمايتها وبصداقتها ، فقررت وضع نهاية لذلك بتعيين الحدود بين المتنازعين ، وكلفت مندوبها السامي في بغداد السير برسي كوكس بذلك .

وكان كوكس يشغل سابقا منصب المقيم البريطاني العام في الخليج . وقد تعامل بهذه الصفة مع عبد العزيز مدة طويلة من الزمن ونشأ بينهما تقدير متبادل .[٣١]

اشترك بالمفاوضات وفود عن ثلاث دول ، فقد مثل الامام عبد العزيز نجد . وحضر السير برسي يرافقه وفد العراق برئاسة صبيح بك نشأت . اما الكويت فقد مثلها الوكيل السياسي البريطاني الميجور مور ، فكان أول مؤتمر دولي يعقد على الارض السعودية .

توصل الفرقاء الى حلول حول الحدود ، ولا تزال هذه الحدود على حالها الى الآن . وقد وقعت اتفاقية الحدود بين نجد والكويت في ٢ ديسمبر ١٩٢٢ ، وقعها عن الجانب السعودي الدكتور عبد الله الدملوجي ، وعن الجانب الكويتي الميجور مور . واقترنت الاتفاقية بمصادقة فورية من عبد العزيز الذي وضع عليها ختمه . اما الشيخ احمد الجابر فقد وقعها بامتعاض في ٢٨ ديسمبر ١٩٢٢ .

لاتفاقية عقير أهمية كبرى ، لأنها فرضت على البدو مفهوم الحدود الوطنية التي لا يمكن تجاوزها ، كما ادخلت البلاد السعودية في مفهوم الدولة ، بعد ما كانت مجموعة قبائل متحركة . الا انها خلقت لعبد العزيز بالمقابل ، مشاكل داخلية مع «الاخوان» .

بنتيجة الاتفاقية وجد عبد العزيز نفسه ، محاطا بحدود يتوجب عليه احترامها ، فهو محاط من الشمال بالملك فيصل في العراق ، والامير عبد الله في شرق الاردن ، وهو محاط من الشرق بمشيخات «الشاطيء المتصالح» المتمتعة بالحماية البريطانية ، ولم يبق له متنفس الا غرباً باتجاه الحجاز .

انصرفت بريطانيا بعد ذلك ، الى تنظيم دفاع العراق والاردن ، ضد احتمال الغزوات «الاخوانية» فأنشأت «قوة الحدود الاردنية» وقوة مماثلة في العراق من بدو الفرات ، تدعمها مصفحات وطائرات صارت أكثر من كفؤ لرد الاخوان .

دخول الحجاز (١٩٢٤)

خلال هذه الفترة والى عام ١٩٢٤ كانت تتنازع الحكومة البريطانية سياستان بالنسبة للجزيرة العربية . فالمكتب البريطاني في القاهرة كان عموما اكثر تأييداً للشريف حسين ولاولاده ، فيصل (ملك العراق لاحقاً) وعبد الله (امير شرق الاردن لاحقاً) ، في حين كانت الحكومة البريطانية في الهند التي تشرف على امور الخليج الفارسي اكثر تعاطفاً مع آل سعود .

بعد التغلب على آل رشيد ، بقي الشريف حسين في مكة ، العدو الاول الذي يخشاه الامام عبد العزيز ، وبقيت الحجاز المجال الوحيد للتوسع السعودي «وكان الملك حسين لا ينظر الى سلطان نجد اوغيره من الحكام الآخرين ، الا كما ينظر السيد الى تابعه» .[٣٢]

زاد في حدة النزاع بين الهاشميين وآل سعود ، أنه عندما اعلنت تركيا الغاء الخلافة عام ١٩٢٤ سارع الشريف حسين الى اعلان نفسه خليفة على المسلمين ، دون أن يضمن تأييد أية مجموعة اسلامية ذات شأن . وقد استنكر عبد العزيز والاخوان ذلك . كما أن حسين منع «الاخوان» من الحج بحجة المحافظة على سلامة الحجاج من اعتدائهم .

اجتمع على الاثر في الرياض مؤتمر برئاسة عبد الرحمن والد عبد العزيز في شهر يونيو ١٩٢٤ ضم العلماء وشيوخ القبائل والاخوان . وقرر المجتمعون ان منعهم من الحج ، احد اركان الاسلام الخمسة ، يشكل سببا كافيا للحرب .[٣٣]

دخول الطائف (١٩٢٤)

على اثر ذلك هاجم نحو ثلاثة الاف من الاخوان بقيادة سلطان بن بجاد وخالد بن لؤي امير الخرمة مدينة الطائف في ٢٦ سبتمبر وتغلبوا على حاميتها .

وقالت الاميرة موضى بنت منصور آل سعود : «اصبح الحجاز بعد معركة الطائف مفتوحا امام عبد العزيز لكنه تباطأ بالزحف على مكة حتى يستكشف نوايا الانكليز الذين كانوا انذروه وطلبوا منه التوقف عن القتال بعد معركة تربة قبل خمس سنوات . وهم الآن مصدر قوته الحربية من حيث المال والسلاح ، لا يستقيم له أمر اذا قطعوا عنه هذين الموردين .[٣٤] لكن سياسة بريطانيا كانت

قد تغيرت خلال هذه المدة ، واصبحوا يريدون التخلص من الملك حسين واولاده في الحجاز حتى يكفوا عن مطالبتهم بتنفيذ تعهداتهم لعرب الشمال . وكانت وسيلتهم المفضلة ان يضربوا العرب بالعرب . وكان عبد العزيز أداتهم في تلك السياسة .

دخول مكة (١٦ اكتوبر ١٩٢٤)

توقف الزحف في الطائف وارسل ابن بجاد وابن لؤي الى الامام عبد العزيز ، وهو لا يزال في الرياض ، ينتظران اذنه بالزحف على مكة . فلما جاءهما الاذن دخلوها في ١٦ اكتوبر .

ذكر السيد حافظ وهبة تدليلا على عقلية الاخوان البدائية انهم عندما احتلوا الطائف ومكة حطموا جميع المرايا في البيوت لأنهم لم يروا مرآة في حياتهم من قبل ، وظنوا ان انعكاس صورة وجوههم من عمل الشيطان ، وقسموا المنهوبات من أبواب وشبابيك واثاث وسجاد فيما بينهم . فكان احدهم يحصل على جزء من شباك او باب او مقعد او فراش يعود به الى كوخه . ويقول بعض من زاروا هذه الاكواخ في قرية خرمة انهم وجدوا الشباك مركزا محل الباب ، ونصف باب بدل باب كامل ، وقطعة من سجادة اقتسموها اثناء النهب .(٣٥)

تنازل الملك حسين (٥ اكتوبر ١٩٢٤)

استعملت بريطانيا جميع وسائل الضغط لتجبر الملك حسين على التنازل عن العرش واهمها قطع المساعدات المالية عنه حتى عجز عن دفع رواتب الضباط والجنود . فانصاع لها وتنازل لابنه علي في ٥ اكتوبر ١٩٢٤ ثم غادر جدة الى العقبة بحرا يوم ١٥ اكتوبر واقام فيها مدة .

لكن الحكومة البريطانية تضايقت من وجوده هناك وبقيت تلاحقه حتى تتخلص من الرمز الذي يذكرها بخيانتها للعرب ، فأرسلت اليه انذارا عن طريق المدرعة البريطانية الراسية في العقبة بمغادرة المدينة تلبية لطلب عبد العزيز . وأبلغه قائد المدرعة البريطاني بأن عليه أن يسافر الى قبرص .(٣٦) وقد بقي الملك حسين في قبرص الى حين وفاته عام ١٩٣١ لكنه دفن في المسجد الاقصى في القدس وانتهت بذلك حقبة محزنة من تاريخ العرب .

الى جدة في شهر اكتوبر ١٩٢٥ ، لا ليتباحث مع الملك علي، بل ليتفاوض مع

خلف علي بن الحسين والده على عرش الحجاز لكن بريطانيا تخلت عنه ، وقطعت مساعدتها المالية ، ثم جاء المندوب الانكليزي السير جلبرت كلايتون الى جدة في شهر اكتوبر ١٩٢٥ لا ليتباحث مع الملك علي ، بل ليتفاوض مع

عبد العزيز المعسكر الى جوارها ، بشأن ميناء العقبة ومنطقة معان ، ومساحتها نحو ستة آلاف ميل مربع ، أرادت بريطانيا ضمها للاردن ، وبشأن المشاكل بين القبائل النجدية والعراقية .

وقد أثمرت هذه المفاوضات فوقع عبد العزيز وبريطانيا اتفاقية حداء .[٣٧] بتاريخ ٢ نوفمبر ١٩٢٥ تنازل فيها عبد العزيز عن العقبة ومعان .

ووقع الطرفان عبد العزيز وجلبرت كلايتون ، يرافقه السيد توفيق السويدي ، اتفاقية بحره[٣٨] بتاريخ ١٩٢٥/١٢/١ لتسوية المشاكل القائمة بين الاخوان والقبائل العراقية .

تنازل الملك علي وسقوط جدة (٢٣ ديسمبر ١٩٢٥)

بدأ حصار الاخوان لجدة في ٣ يناير ١٩٢٥ واستمر الملك علي يقاوم سنة كاملة . خلال ذلك سقطت المدينة المنورة بيد الاخوان يوم ٢٥ ديسمبر ١٩٢٥ .

ويقي جيش الملك علي يحارب سنة دون ان يحصل على رواتب . وأخيرا اضطر الملك الى الانسحاب بعدما ضاق به العيش واغلقت في وجهه الابواب .

اما جدة فلم تستسلم الى عبد العزيز دون شروط ، فلما أبلغها الملك علي عن نيته على التنازل في ١٧ ديسمبر ١٩٢٥ ذهب وفد من تجار المدينة برئاسة الحاج عبد الله علي رضا الى معسكر عبد العزيز في الرغامة خارج جدة على طريق مكة واتفقوا معه على الشروط التالية :[٣٩]

١- ان يكون اهل الحجاز احرارا بادارة بلادهم تحت حكم عبد العزيز .
٢- اعلان العفو عن جميع من ناصروا الحكومة الشريفية واطلاق سراح المعتقلين منهم .
٣- ابقاء الموظفين المدنيين في مراكزهم .
٤- دفع مصاريف اعادة الجنود الغرباء الى بلادهم ودفع تعويضات للجنود الذين لم يتقاضوا رواتبهم .
٥- احتفاظ افراد العائلة الهاشمية بأملاكهم الحجازية الموروثة .

غادر الملك علي جدة بحرا متوجها الى العراق يوم ٢٠ ديسمبر فدخل عبد العزيز المدينة يوم ٢٣ ديسمبر واصبح الحجاز كله بقبضته .

وكان الخلاف قد تفاقم خلال ذلك ما بين عبد العزيز وزعماء الاخوان اثناء حصار جدة . فقد أصر هؤلاء على اجتياح المدينة وفتحها عنوة ، طمعا في نهب

اموال التجار فحال عبد العزيز دون ذلك ، لأنه خشي من تدخل الاسطول الانكليزي لحماية الاجانب المقيمين في «بلد القناصل» ولا بد ان الانكليز انذروه بذلك ، وهكذا دخلها سلما بعدما اتفق مع أهلها .

مبايعة عبد العزيز ملكا على الحجاز
(٨ يناير ١٩٢٦)

بذلك تشكلت البلاد التي عرفت باسم «المملكة الحجازية والنجدية وملحقاتها» وكانت هذه البلاد مؤلفة من الوجهتين الحقوقية والقانونية ، من مملكتين مستقلتين لكل منهما اوضاعها وحكوماتها وطرز ادارتها ، تجمع بينهما فقط رابطة العرش المشترك وشخص الجالس على العرش ، كما كانت الحال في بعض الممالك الاوروبية مثل النمسا والمجر .

مجلس الشورى

تنفيذا لما تم عليه الاتفاق اصدر الملك عبد العزيز قرارا سنة ١٩٢٦ بتشكيل «مجلس شورى» مؤلف من علماء الحجاز وتجارها واعيانها ليشارك في ادارة المنطقة ، وليكون وسيطا بينه وبين الشعب ، كما وعد بوضع دستور للبلاد .

عقد المجلس أولى جلساته في بداية١٩٢٧ وخطب الملك في افتتاحه فقال : ان امامكم اليوم أعمالا كثيرة من موازنة لدوائر الحكومة ، ونظم من اجل مشاريع عامة . ولقد أمرت ان لا يسن نظام في البلاد وجيري العمل به قبل ان يعرض على مجلسكم فتناقشونه بمنتهى الحرية . انكم تعلمون ان اساس نظامنا واحكامنا هو الشرع الاسلامي ، وانتم ضمن تلك الدائرة احرار في سن كل نظام واقرار العمل الذي ترونه موافقاً لصالح البلاد ، على شرط ان يكون متوافقاً مع الشريعة الاسلامية .

«التعليمات الاساسية» للمملكة الحجازية (اغسطس ١٩٢٦)

اصدر الملك عبد العزيز في ٣١ اغسطس ١٩٢٦ ما عرف باسم «التعليمات الاساسية للمملكة الحجازية» يقوم مقام الدستور باعتبار أن القران هو دستور

البلاد ، تولت صياغته جماعة عرفت باسم «الجمعية العمومية» مؤلفة من ممثلين عن مختلف البلاد الحجازية وقررت ان الدولة الحجازية دولة ملكية ، شورية ، اسلامية ، مستقلة في داخليتها وخارجيتها ، وان عاصمتها مكة ، وادارتها موكولة لعبد العزيز بن عبد الرحمن وهو مقيد بالشرع الاسلامي : وله ان يعين نائبا عنه في الحجاز[41] (تعين الامير فيصل بن عبد العزيز نائبا عاما على الحجاز) . ونصت التعليمات على اقامة المجالس في المملكة ، وهي مجالس الشورى بمكة ، ومجلس المدينة ، ومجلس جدة ، ومجالس النواحي والقرى والقبائل[42]

تغيير اللقب

كان أول التعديلات على نظام التعليمات تغيير لقب عبد العزيز فأصبح سنة ١٩٢٧ «ملك الحجاز ونجد وملحقاتها» ثم تغير اسم مديرية الشؤون الخارجية الى وزارة عام ١٩٢٨ وتولاها الامير فيصل الى حين وفاته سنة ١٩٧٥ .

مجلس وكلاء

عبد العزيز يحكم حكماً شخصياً مطلقاً

في عام ١٩٣١ صدر نظام خاص بتأليف «مجلس وكلاء» وهو أشبه بمجلس وزراء ناسخا اومعدلا لاحكام كثيرة من «التعليمات الاساسية» . وتوالت التعديلات بعد ذلك ، وكل منها تلغي صراحة او ضمنا بعض مواد «التعليمات» .[43]

على كل حال وسواء بقيت «التعليمات» نافذة او الغيت ، فالحقيقة التي يجب ان تذكر هي ان الملك عبد العزيز كان كل شيء في الدولة الحجازية ، ليس لأحد من اخوته او ابنائه اووزرائه او امرائه في الاقاليم ، اومجالسه ، ان يتصرف أو يبت في شأن داخلي او خارجي قبل عرضه عليه ، فاذا لم يقره يذهب مع الريح» .[44]

وشرح فؤاد حمزة وكيل وزارة الخارجية السعودية ، سلطة الملك عبد العزيز المطلقة فقال : «كان الملك مصدر السلطات جميعها . وفي يده تصريف شؤونها على النحو الذي يريده . وقوله هو القول الفصل في جميع الامور . ولا يقيد

هذه السلطة المطلقة الا احكام الشرع . ولا توجد الى جانب الملك هيئة وزارية تعاونه في تصريف الامور وادارة البلاد ، بل للملك ديوان فيه موظفون دائمون لانجاز الاعمال ، وعرضها على الملك وتلقي اوامره . وليس لهذه الاعمال اشخاص مسؤولون عن تصريفها وتحمل نتائج اعمالهم فيها على هيئة وزراء او مديرين . اما ادارة المقاطعات فتتم على يد امراء يعينهم الملك لمدة غير محدودة ويستمدون سلطتهم منه» .(٤٥)

تهامة وعسير تحت الحماية السعودية (٢١ اكتوبر ١٩٢٦)

قبيل ذلك ، وقع امام عسير ، حسن بن علي الادريسي معاهدة مع الملك عبد العزيز بتاريخ ٢١ اكتوبر ١٩٢٦ عرفت «بمعاهدة مكة» اعترف فيها بسيادة آل سعود على عسير وتهامة «على ان تبقى ادارة بلاد عسير الداخلية ، والنظر في شؤون عشائرها ، من تنصيب وعزل وغير ذلك ، من حقوق امام عسير» .(٤٦)

معاهدة جدة (٢٠ مايو ١٩٢٧)

بعد انتهاء حرب الحجاز وتغير وضع عبد العزيز شعر الانكليز والسعوديون ان معاهدة القطيف - دارين المعقودة عام ١٩١٥ لم تعد تصلح لتنظيم العلاقات بين البلدين . وكانت بريطانيا قد ألغت مساعداتها المالية الرسمية للحكومة السعودية بشهر مارس ١٩٢٤ .

جرت مفاوضات تمهيدية بين الفريقين في وادي العقيق قرب المدينة المنورة ، ثم وصلت الى جدة بعثة برئاسة الجنرال جلبرت كلايتون انتهى البحث معها الى وضع «معاهدة جدة» التي وقعها الامير فيصل بتفويض من والده ، كما وقعها الجنرال كلايتون عن الحكومة البريطانية بتاريخ ٢٠ مايو ١٩٢٧ . وتبودلت قرارات ابرامها في تاريخ توقيعها . وقد حلت هذه المعاهدة محل معاهدة القطيف - دارين ونظمت العلاقة بين البلدين على اساس من الصداقة وحسن التفاهم .(٤٧)

تمدد أمد المعاهدة سنة ١٩٣٦ سبع سنوات أخرى . وفي ٣ اكتوبر ١٩٤٣ اتفق الفريقان على تمديدها سبع سنوات ثانية ، واتفق انه «إذا لم يعلم احد الفريقين الآخر قبل انتهاء اي سابع من السنوات المقبلة ، بستة اشهر رغبته بتعديلها او الغائها ، فانها تتجدد سبع سنوات أخرى ، وهكذا دواليك» .(٤٨)

قيام «المملكة العربية السعودية» (١٩٣٢)

تطورت الامور بعد ذلك نحو دمج نجد والحجاز ، فقدم عدد من الحجازيين عريضة بتاريخ ١٠ اغسطس طالبوا فيها بما أفاد الرغبة الملحة بضم الحجاز الى نجد تحت اسم «المملكة العربية السعودية» كما طالبوا «بسن نظام خاص بالحكم ونظام لتوارث العرش» .

وتجاوب عبد العزيز مع هذه المطالب ، فأصدر مرسوماً بتاريخ ٢٢ سبتمبر ١٩٣٢ بتغيير اسم البلاد «وتكليف مجلس وكلائنا الحالي بالشروع حالا بوضع نظام اساسي للمملكة (دستور) ونظام لتوارث العرش ، ونظام لتشكيلات الحكومة ، وعرضها علينا لاستصدار اوامرنا فيها» .

اجتمع مجلس الوكلاء يوم ١١ مايو ١٩٣٣ وبايع الامير سعود ولياً للعهد . اما الدستور ونظام التوارث ونظام التشكيلات فلا يزال تحت البحث .

اوضاع الحكم في عهد الملك عبد العزيز

يخبرنا السيد محمد المانع الذي كان رئيس المترجمين في ديوان الملك من سنة ١٩٢٦ - ١٩٣٥ عن تنظيم الحكم وعن النمط المبسط الذي كان عليه فيقول : «كان الملك نفسه هو الذي نظم الديوان بالطريقة التي تريحه . وكان شعبتين ، احداهما تهتم بالشؤون الخارجية ، والثانية تعنى بالامور الداخلية . وكانت شعبة الشؤون الخارجية مؤلفة من رئيس الديوان ، ورئيس المترجمين (وقد شغل محمد المانع هذه الوظيفة) ومحرر للرسائل ، وطابع على الألة الكاتبة . وحين توفي الملك عام ١٩٥٣ كانت الشعبة السياسية على هذا الوضع .

وكانت هناك وزارة خارجية منفصلة عن الديوان يتولاها الامير فيصل . اما شعبة الامور الداخلية فكان لها رئيس وستة كتاب ، وموظف مسؤول عن استلام العرائض المرسلة للملك وتلخيصها ، بالاضافة الى عدد من الكتاب

وحين التحقت بخدمة الملك عام ١٩٢٦ لم يكن بين موظفي الديوان من يتسلم راتبا منتظما . كان جلالته يدفع لنا بالاسلوب نفسه الذي يدفع به لجنوده من البادية ، فكان يمنحنا هدايا دورية من النقود والملابس . وعند نهاية كل سنة كنا نتسلم هدية اضافية من النقود . وكانت عائلات موظفي الديوان تكسى على نفقة الملك . اما موظفو الحجاز فكانوا يتسلمون رواتب منتظمة كما كانت عليه الحال زمن حكم الاشراف . بعد مدة طلبنا من الملك ان يعاملنا مثلهم فوافق .

بالاضافة الى الديوان وشعبتيه الداخلية والخارجية كانت توجد الشعبة السياسية المؤلفة من رجال بارزين من اقطار عربية مختلفة ، عددهم نحو ثمانية رجال كانم منهم المستشار حافظ وهبة من مصر ، وخالد الحكيم من سوريا ، ويوسف ياسين من سوريا ايضا ، وفؤاد حمزة من لبنان وهو السكرتير الاول لوزير الخارجية الامير فيصل ، وعبد الله فيلبي (الانكليزي الاصل) واخو الملك الامير عبد الله بن عبد الرحمن ، والشيخ عبد الله السليمان الذي تولى عملياً وزارة المالية الى ما بعد وفاة الملك عبد العزيز ، وهو من عنيزة تدرب على التجارة في بومباي في مؤسسة الشيخ عبد الله الفوزان احد وجهاء التجار النجديين .

قبل الاستيلاء على الحجاز لم يكن لعبد العزيز قناصل رسميون او ممثلون دبلوماسيون في الدول الاجنبية . وكان التجار النجديون المستقرون في تلك الدول يعملون بصفتهم وكلاء له . ، وقد اشتهر منهم الشيخ فوزان السابق في القاهرة ، وعبد اللطيف باشا المنديل في بغداد والبصرة ، والشيخ عبد الله النفيسي في الكويت ، والشيخ عبد الله الفوزان في بومباي ، والشيخ ابن ليلى في دمشق ، والشيخ عبد الرحمن القصيبي في البحرين .

كان الملك يستقبل في مجلسه العام كل صباح نحو مماية وخمسين شخصا من البدو ، فيستمع الى مطالبهم او شكاواهم . وكان من العادة ان يأتي جميع البدو الذين حاربوا مع الملك الى مجلسه العام مرة كل سنة لتلقي الهدايا لقاء ما قاموا به من خدمات . وكان معدل ما يعطى لكل بدوي ثلاثة جنيهات ذهبية وثوب ، بالاضافة الى كمية من الرز والتمر والسكر والشاي والقهوة . وكانت هذه الهبات تشكل للبدو مصدرا مهماً من مصادر دخلهم السنوي .

اما الجنود من البدو فكان الملك يمدهم طيلة العام بالاطعمة كالتمر والرز والطحين اضافة الى ما يعطيهم حين يفدون اليه . اما اذا ذهبوا الى معركة فكان الجند يمونون انفسهم . ومن هنا كان عبد العزيز يستطيع ان يجمع بسرعة قوة كبيرة من دون مصاريف تعبئة وتموين اضافية .

كانت فترة عمل الملك الصباحية تنتهي عادة بنهاية مجلسه العام . ثم يتناول غداءه ويستريح لدى اهله حتى اذان الظهر . وبعد الصلاة يجتمع بالشعبة السياسية التي كانت وظيفتها ابداء المشورة للملك ، من دون ان تكون لها اية سلطة تنفيذية ، كما لم يكن لاعضائها حق اقتراح مواضيع المناقشة بل كانوا يناقشون ما يسألهم الملك عنه .

بعـد ذلـك يذهب الملك بنـزهة في السيارة . ويجلس بعد العشاء جلسة غير رسمية مفتوحة للوجهاء وكبار الموظفين والزوار البارزين ثم يعود للاجتماع بمستشاريه » . (٤٩)

ويكشف لنـا محمـد المـانـع ناحية من الطبيعة البدوية لادارة الملك فيقول : «من سمات الديوان الفريدة ان كل افراده تقريباً ، وعددا من مستشاريه ، كانوا يرافقون الملك في كل حملاته العسكرية وجولاته السياسية . وكنا نأخذ معنا كل السجلات والاضابير والمراسلات الموجودة في الديوان . وكانت هذه تشحن في صناديق كبيرة من الخشب تحمل على ظهر الابل ، عبر الاف الاميال حيثما يذهب الملك . وكان محتما ان تزداد كمية الاوراق كل سنة ، حتى لم يعد يمكن نقلها كلها ، فأصبحت الاضابير الاساسية فقط هي التي تحمل معنا . وبعد وقت اختفت الابـل من قافلة الملك وحلت محلها السيارات وصارت القافلة تتكون سنة ١٩٣٥ مما يزيد على مائتي وخمسين سيارة .

ولم تكن هناك طرق معبدة بين الرياض ومكة . بل لم تكن هناك طريق معبدة في أي مكان من المملكة ، فكانت السيارات تسير في الصحارى يرافقها الادلاء .

وكنا اذا توقفنا ليلة في الصحراء اقيمت خيمة كبيرة للملك اما باقي المرافقين فكـانـوا ينامون فوق الارض في العراء على طريقة البدو . وكان كل واحد منهم يحمل طعامه الخاص .

ومن الجـديـر بالـذكر ان الديوان المتنقل ، الذي كان اعضاؤه لا يتجاوزون ثلاثين رجلا ، كان قبل خمسين سنة فقط مسؤولا عن الادارة المركزية للمملكة العربية السعودية بكاملها» . (٥٠)

ثورة الاخوان

تابعنـا فيـما سبق تطـورات فتـح الحجـاز ثم اعـلان قيـام «المملكـة العـربية السعـوديـة» عام ١٩٣٢ ، فضم الحجـاز الى المنـاطق الاخـرى وحكمهـا على الشكل الذي شرحناه في الصفحات السابقة .

وقـد تجاوزنـا في سردنـا التسلسـل الزمني لتطورالعلاقة بين الملك عبد العزيز والاخوان ونعود اليها الآن .

كان احتلال الحجاز نقطة تحول خطيرة في مصير الوهابية ، التي خرجت من صحاريها النجدية ، واصطدمت بالعالم الخارجي ، سواء في جدة بلاد القناصل والتجـارة ، اوفي مكـة حيث تتجمـع حشـود الحجاج من بلاد العالم المختلفة .

وكان على «الاخوان» ان يتكيفوا مع مقتضيات العالم الخارجي والعالم الاسلامي بصورة خاصة ، ولم يكونوا مهيئين لذلك .

بدأت تظهر خلافات واضحة بين الملك عبد العزيز والاخوان على امور شتى يمكن تجزئتها الى خلافات حجازية ونجدية .

الخلافات الحجازية

قضية حصار جدة

اصر زعماء الاخوان على فتح جدة عنوة ، طمعا بنهب اغنى المدن الحجازية ، فعارضهم الامام عبد العزيز خوفا من تدخل الاسطول الانكليزي المرابط على الساحل لحماية الرعايا الاجانب .

خلال الحصار طالب فيصل الدويش وسلطان بن بجاد بتعيينهما اميرين على مكة والمدينة . وفي رواية اخرى انهما طلبا امارة المدينة لفيصل الدويش لانه هو الذي فتحها ، وامارة الطائف لابن بجاد .[51] وقد رفض الامام عبد العزيز ذلك مراعاة لشعور الحجازيين .

غضب الزعيمان لحرمانهما ، فانسحبا مع قواتهما الى نجد حيث بدءا يعملان ضد الامام عبد العزيز . انضم اليهما ضيدان ابن حثلين شيخ العجمان الناقم على عبد العزيز ، لأنه منعه من الاشتراك بحرب الحجاز بعدما تقاعس عنها ، فحرمه بذلك من مغانم الغزو .

قضية المحمل

شهد صيف ١٩٢٥ اول موسم حج بعد احتلال مكة ، فكانت المدينة مليئة بالاخوان الذين جاءوا للحج . وحرص المصريون على اعطاء انطباع جيد عنهم ، لدى ملك الحجاز الجديد ، فدخل المحمل تتقدمه فرقة موسيقية يحيط بها حراس المحمل من المصريين .

غضب الاخوان ، لأنهم كانوا يعتبرون عزف الموسيقى علنا تدنيسا للحرمات ، فطلبوا من الموسيقيين ان يوقفوا عزفهم ، فلم يلتفتوا اليهم ، وتابعوا مسيرتهم ، كما اعتادوا ان يفعلوا في المواسم السابقة . فهاجمهم الاخوان واطلقوا النار عليهم ، وقتلوا بعضهم ، ولم ينفع تدخل الامير فيصل بن عبد العزيز . وكان من نتيجة ذلك ان المصريين قطعوا علاقتهم مع العهد الجديد ،

ورفضوا ان ينسجوا الكسوة بعد ذلك ، وتوقف مجيء المحمل المصري . وهكذا اورث الاخوان مشكلة سياسية لامامهم بمجرد احتكاكهم بأقوام اسلامية اخرى .

قضية التبغ

شكلت قضية التبغ الموجود في مخازن جدة لحساب التجار محكا لقدرة الواقع على التغلب . فقد كان الاخوان يحرمون تدخين التبغ ويكفرون المدخنين . فلما دخل الامام عبد العزيز جدة ، امر بحرق التبغ الموجود في الجمرك ، وفي مخازن التجار ، فجاء هؤلاء التجار اليه يخبرونه بأن في مخازن جدة تنباك بمائة الف جنيه ، ثم حدثوه عن ايرادات الحكومة من الرسوم المفروضة على الدخان ، وعن الرسوم المستحقة لحكومة الملك علي ، والتي اصبحت الآن من حق الامام ، وهي تشكل موردا رئيسيا من موارد الدولة المالية ، وعلى اثر الاجتماع صدرت فتوى من العلماء تقول : «ان الدخان مكروه ولكنه ليس من الكبائر» . فارتاح القوم ونفثوا الدخان من صدور ملهوفة ودخلت رسوم الدخان الى خزينة الامام .

قضية التلفون والتلغراف والسيارات

اعتبر الاخوان كل الاختراعات الحديثة من تلفون وتلغراف وسيارة ودراجة وساعة من اعمال السحر والشيطان فحرموها . وبلغ من نفوذهم انهم منعوا الامام عبد العزيز من استخدام التلغراف خلال حرب الحجاز . وفي اثناء حصار جدة لم يستطع الامام ان يمد التلفون من مكة الى معسكره . واضطر عام ١٩٢٦ الى الغاء تلغراف المدينة . وكان الاخوان يقطعون اسلاك التلفون لانه مكر يجب ازالته .[٥٢] وكما في حادثة التبغ ، تغلب الواقع ومقتضيات المدنية الحديثة ، فزال الاخوان وما يمثلون وبقيت السيارة والساعة والتلفون والتلغراف .

الخلافات النجدية

لم تكن الخلافات الحجازية بين الاخوان وعبد العزيز ، بل كانت بالحقيقة بين الاخوان وما يمثلون من تعصب ورجعية وجهل ، وبين بعض مظاهر المدنية الحديثة ، وكانت هزيمة الاخوان محتمة .

اما الخلافات النجدية فاتخذت شكلا اكثر حدة وخطرا لأنها تطورت الى ثورة واضحة هدفها خلع الملك عبد العزيز .

بداية الثورة

زار فيصل الدويش شيخ مطير هجرة غطغط لسلطان ابن بجاد شيخ العتيبة ، فبدأت المؤامرة على الملك عبد العزيز ، اذ اتفقا على عقد اجتماع سري في الارطاوية قاعدة فيصل الدويش يحضره ثالثهما ضيدان ابن حثلين شيخ العجمان وبعض زعماء القبائل الثلاث .

مؤتمر الارطاوية (١٩٢٦)

عقد المؤتمر واتخذ المجتمعون قرارات انكروا فيها على الامام عبد العزيز تصرفاته التالية :

اولا : تعامله مع الانكليز ومجالستهم وعقده المعاهدات ، وهي امور ينكرها الدين .

ثانيا : تنصيب نفسه ملكا فالاسلام يحرم الملكية .

ثالثا : ارسال ولده سعود الى مصر ، وهي من بلاد الكفار .

رابعا : ارسال ولده فيصل الى لندن بلد الشرك .

خامسا : استخدام السيارات والتلغراف والتلفون فهي من اعمال السحر .

سادسا : استعماله للعطور وسكناه في القصور . وكذلك لبسه وابناؤه الثياب واكلهم اطيب المأكولات .

سابعا : اخذه للضرائب والمكوس من المسلمين ، بينما ينكر ذلك على آل رشيد والشريف حسين ، وهو يدعي الاسلام ويتقاضى الاموال من الانكليز .

ثامنا : منعه اهل نجد من التجارة مع الكويت اوعن طريقها . فان كان الكويتيون مسلمين تعاملنا معهم ، وان كانوا مشركين حاربناهم .

تاسعا : سماحه بدخول المحمَلين المصري والشامي الى مكة بالسلاح والموسيقى .

عاشرا : سكوته عن شيعة الاحساء والقطيف .

حادي عشر : السماح لقبائل العراق وشرق والاردن بالرعي في مراعي المسلمين .

ثاني عشر : معارضته لهدم قبور الصحابة في مكة والمدينة .

لكـل ذلـك يقـرر الاخـوان أن لا عهد ولا طاعة لعبد العزيز لأنه خان العهد واخلف الوعد وعمل للمشركين .

مؤتمر عبد العزيز (يناير ١٩٢٧)

عنـد صدور هذه القـرارات كان الملك عبد العـزيـز في الحجـاز ، فسـارع بالـرجـوع الى الـريـاض لمعـالجة الامور . وما أن وصل حتى دعا الى مؤتمر في أواخـر ينـايـر ١٩٢٧ حضره شيوخ القبائل والعلماء وعدد من الاخوان ، وتغيب عنه سلطان بن بجاد الذي فتح الحجاز وبرر عدم حضوره بقوله : انه لم يعد يثق بعبد العزيز «بعدما اتخذنا قراراً بتجريمه وعزله» .

في بدايـة الاجتـماع اعلن عبـد العـزيـز انه خادم الشريعة ، يحافظ عليها ولم يتغـير كما اتهمـه البعض . ثم وبخ الاخوان المخالفين واستنكر اعتداءاتهم على الحدود العراقية والاردنية ، وغزواتهم على القبائل النجدية ، ومهاجمتهم لقوافل التجار .

ورد عليـه الاخـوان بأنهم لم يفعلوا الا ما يقتضي واجبهم الـديني من مهاجمة الكفـار واعـادتهم الى العقيدة الصحيحة حسبما لقنهم عبد العزيز من تعاليم . وكرروا عليه مطالبهم في مؤتمر الارطاوية .

وكان الامام عبد العزيز قد احال مقررات الارطاوية الى العلماء طالباً فتوى بشأنها . وجاء العلماء فقالوا : لقد ورد علينا من الامام عبد العزيز سؤال بعض الاخوان عن مسائل يطلب منا الجواب عنها فأجبناه بما نصه :

١ـ امـا مسألـة اقتنـاء عبد العزيز واولاده ورجال الدين للسيارات وغيرها ، فهـو امـر لا نعلم حقيقتـه ، ولا رأينـا فيـه كلاما لأحد من اهل العلم فتوقفنا في مسألة الافتاء به .

٢ـ اما مسجد حمزة وابي رشيد فافتينا الامام بهدمهما على الفور .

٣ـ اما القوانين (السابقة المطبقة بالحجاز) فان كان موجوداً فيها شيء فيزال فوراً .

٤ـ امـا دخـول الحج المصري بالسلاح والقوة فافتينا بمنعه من الدخول ومن اظهار الشرك وجميع المنكرات .

٥ـ امـا المحمَـل المصري والشامي فافتينا بمنعه من دخول المسجد الحرام ، ومن تمكـين احـد ان يتمسح به اويقبله . وما يفعله اهله من الملاهي والمنكرات (اي الموسيقى المرافقة للمحمل) يمنعون عنه .

٦ـ امـا الشيعـة فأفتينـا الامـام ان يلزمهم بالبيعـة على الاسـلام (الوهابي)

ويمنعهم من اظهار شعائر دينهم الباطل . وعلى الامام ايضا ان يلزمهم بالمبايعة على دين الله ورسوله وبترك دعاء الصالحين من آل البيت وغيرهم ، وترك سائر البدع من اجتماعهم على مآتمهم ، وغيرها مما يقيمون به شعائر دينهم الباطل . ويمنعون من زيارة المشاهد (كربلاء والنجف) ، ويلزمون كذلك بالاجتماع على الصلوات الخمس ، هم وغيرهم في المساجد ويرتب فيهم ائمة ومؤذنون من أهل السنة (الوهابية) ويلزمون بتعلم الاصول . كذلك تهدم محالهم المبنية لاقامة البدع في المساجد وغيرها . ومن أبى قبول ما ذكر ينفى من بلاد المسلمين .

٧ـ اما الشيعة من اهل قطيف فيلزم الامام الشيخ ابن بشر بأن يسافر اليهم ويلزمهم بما ذكرناه .

٨ـ اما البوادي والقرى التي دخلت ولاية المسلمين فافتينا الامام ان يبعث لهم دعاة ومعلمين والزامهم شرائع المسلمين (الوهابية) .

٩ـ اما رافضة (شيعة) العراق الذين انتشروا وخالطوا بادية المسلمين ، فافتينا بمنعهم من الدخول في مراتع المسلمين واراضيهم .

١٠ـ اما المكوس فافتينا أنها من المحرمات الطاهرة ، فان تركها الامام فهو الواجب عليه ، وان امتنع فلا يجوز شق عصا طاعة المسلمين عليه والخروج عن طاعته من اجلها .

١١ـ اما قضية الجهاد فهي محولة الى نظر الامام عبد العزيز وهو اعلم بما هو اصلح للاسلام والمسلمين (انتهت الفتوى) .

لعل اهم بند في هذه الفتوى هو ذلك المتعلق بحصر حق الدعوة الى الجهاد بالامام وحده ونزعها من معارضيه الذين كانوا يسمون جهاداً غاراتهم على اراضي الكويت والعراق والاردن ، حتى ضد قبائل نجدية . لكن الاخوان ورؤساءهم لم يقبلوا بهذه الفتوى .

واستمر الاخوان يهاجمون قبائل الكويت والعراق والاردن .

خلال ذلك كانت الحكومة العراقية تحصن حدودها مع نجد ، وكان الاردن ينشىء «قوات الحدود» . وأقام العراق سلسلة مخافر على آبار ماء منها مخفر بصَية ووضع فيه عددا من الجنود والعمال . ورأت الحكومة السعودية ان ذلك يخالف اتفاقية العقير فطالبت بازالة المخفر وبدأت تفاوض حوله .

لكن فيصل الدويش لم ينتظر انتهاء المفاوضات فهاجم المخفر سنة ١٩٢٧ وقتل الجنود والعمال واعلن عزمه على «الجهاد» . وكان من اهدافه اظهار عبد

العزيز امام الاخوان بمظهر المتخاذل بشؤ ون الدين ، واحراج موقفه مع العراق والانكليز .

تعقبت الطائرات الانكليزية المغير ين وقصفتهم ودمرت هجرة ومسجد لقبيلة مطير في اللصافة ، واصيب عدد كبير من سكانها .

استمر الاخوان يواصلون غزواتهم . وكانوا يجتازون حدود العراق والكويت والاردن ، فيهاجمون اية قبيلة يجدونها في طريقهم وينهبون المواشي ويقتلون اي انسان يقاومهم . وقد احتج العراقيون والبر يطانيون بشدة ، لدى ابن سعود على هذه الغزوات ، واعتبر وه مسؤ ولا عنها لأن معاهدة العقير جعلته مسؤ ولا عن الأمن في مناطقه . ومع ان عبد العزيز اعلن في مدن المملكة وقراها ان تلك الغزوات مخالفة لأوامره فان الدول المجاورة بقيت تشكك بنيته وتعتقد انه يشجعها سراً .[٥٣]

ارسلت الحكومة البر يطانية السير جيلبرت كلايتون للبحث مع عبد العزيز بهذا الامر ، فاجتمعا في جدة وعرف منه عبد العزيز اصرار الحكومتين العراقية والانكليزية على متابعة بناء مخافر الحدود فتوقفت المفاوضة .[٥٤] لكن هجمات الاخوان لم تتوقف ، فعاد الامام عبد العزيز الى الرياض وقد ضاقت به الامور . فالاخوان يتحدونه ، والانكليز يضغطون عليه ويطالبونه بتنفيذ تعهداته .

تجاوباً مع ذلك اصدر ابن سعود أوامره «بمنع الاعتداء على الجيران وانه لا يجوز ان ترفع راية الغزو والجهاد بغير أمره ، وان من فعل ذلك فقد حل دمه وماله» .[٥٥]

الجمعية العمومية (٥ نوفمبر ١٩٢٨)

تدارك عبد العزيز الامر فدعا الى مؤتمر عرف باسم «الجمعية العمومية» عقد في الرياض بتاريخ ٥ نوفمبر ١٩٢٨ وضم ثمانماية من رؤ ساء العشائر والعلماء ووجهاء نجد من الحضر للبحث بوضع البلاد المتأزم . وكان الامام عبد الرحمن والد عبد العزيز قد توفي قبل بضعة اشهر . لكن زعماء الاخوان فيصل الدويش وسلطان بن بجاد وضيدان بن حثلين قاطعوا الاجتماع .

خطب عبد العزيز في المجتمعين منددأ بالمعارضين ثم فاجأ الحضور بالاعلان انه مستعد للتنازل عن العرش لاي شخص يختارونه من آل سعود اذا كانت سياسته لا تعجبهم . فذهل الجميع بهذه المبادرة وانشغلوا بها عن الاهتمام بشكاوى الاخوان . وجدد الجميع ولاءهم لابن سعود ، وتعهدوا بمن فيهم

الاخوان الحاضرون ، ان يقاتلوا الى جانبه ضد فيصل الدويش ورفاقه .

ولما دارت المناقشة حول جواز استخدام المخترعات الغربية الحديثة ، كالسيارة والتلفون والتلغراف والساعة ، قال ابن سعود للثوار من الاخوان : تطالبونني بعدم استعمال هذه لأنها من صنع الافرنج . وأنا أوافقكم بشرط أن تحرقوا جميع بنادقكم لأنها من صنع الافرنج ايضاً .(٥٦)

وأجاب ابن سعود بشأن المخافر ان العراقيين يدعون انكم أنتم الذين بادأتوهم بالعدوان على مخفر البصية ، ثم غزوات الدويش التي تبعتها . ويزعمون ان هذه المخافر ما بنيت الا مخافة الخطر منكم .

وتصايح الاخوان المجتمعون : «اننا نبايعك على مقاتلة من ينازلك ومعاداة من عاداك» . ثم جدد له المجتمعون البيعة على السمع والطاعة ومحاربة الباغي . واعظم ما اسفر عنه الاجتماع ابطال ما كان يدعيه الغلاة من حق اعلان «الجهاد» بغير اذن الامام واصبح المخالف له ، حلال الدم والمال .(٥٧)

بعد انفضاض المؤتمر عاد زعماء القبائل الى أوطانهم محملين بالهدايا من سيوف وعطور واموال واطعمة بل وبحلي لنساء بعضهم .(٥٨)

اما الذين قاطعوا المؤتمر فتجاهلوا قراراته ، واستمروا يشنون الغارات في بادية الكويت والعراق ، بشكل ابعد عمقاً واشد خطراً . وكانت كل غارة تتبعها حملة تأديبية ، وتؤازرها الطيارات البريطانية ، فيقصفون الغزاة ويتعقبونهم احياناً الى نجد . ويقصفون مخيماتهم وموارد مياههم .(٥٩)

حصل الامام عبد العزيز من «الجمعية العمومية» على ما أراد ، وهو تجديد البيعة والطاعة له ، وحصر حق اعلان «الجهاد» بشخصه ، مما يعني أن غزوات الاخوان التي منعها ، صارت تعتبر مخالفة للدين ، وهكذا بدل وضع الاخوان من مجاهدين ، الى خوارج مهدوري الدم والمال .

معركة السبلة (٣٠ مارس ١٩٢٩)

سار الامام عبد العزيز على رأس قواته لتأديب الاخوان فتوجه من الرياض الى بريدة وعنيزة لتجنيد أهل الحضر ، فرحب به أهل المدن لأنهم رأوا في مقاتلة الاخوان ضماناً لمستقبلهم . وبذل عبد العزيز المال والعطايا للحضر وللبدو على السواء ، فمنح كل مقاتل انضم اليه ثلاثة جنيهات مع وعد بالمزيد ، فتجمع حوله عدد عظيم بحيث انه لما تلاقى مع قوات فيصل الدويش وابن بجاد في آخر مارس في موقع السبلة قرب الارطاوية كانت قواته تفوق خصومه بنسبة ثلاثة الى

واحـد . امـا زعيم الاخـوان الثـالث ، ضيدان بن حثلين فبقي في الاحساء ولم يشترك في المعركة .

ابتـدأت المعـركـة فجـر الثلاثين من مارس وانتهت بأقل من نصف ساعة ، وكان العامل الحاسم فيها اثني عشر مدفعا رشاشا نجح عبد العزيز باخفائها عن الاخـوان الى حين المعـركة ، فحصدتهم حصداً وولوا الادبار تتبعهم خيالة عبد العزيز ، وكان فيصل الدويش بين الجرحى المأسورين لكن عبد العزيز عفا عنه وسمح له بالعودة الى الارطاوية .

وجـاء سلطـان ابن بجـاد يعـرض الاستسـلام امـلا بأن يعاد الى هجرته في غطغـط ، لكن عبـد العزيز قبض عليه وارسله سجينا الى الرياض ودمر هجرته غطغـط . ثم كافأ المحـاربين وعوضهم عن خسائرهم وسرحهم ، وسار هو الى مكة للحج .(٦٠) .

اشتعال الثورة (١٩٢٩)

في مايـو ١٩٢٩ قتـل ضيـدان بن حثلين شيخ العجمان ، وانفجرت العجمان غضبـاً على ذلـك . وانضمت المطـير وفيصـل الـدويش ، وكان قد تعافى الى الثورة الجديدة ، وقامت عتيبة تناصرهم فاشتعلت نجد بكاملها .(٥٨) وتبين ان خطة الاخوان في ثورتهم الجديدة صارت تهدف الى اشاعة الفوضى الشاملة في نجد . تهديا لمكانة عبد العزيز وسلطته ، وليس فقط مهاجمة الحدود والقبائل المجاورة .

وقـد وصف محمـد اسـد حالـة نجد في صيف ١٩٢٩ فقال : «انفجر الهياج ضد ابن سعـود ، وانقلب الى ثورة علنيـة ضمت كثيرا من القبائل الاخرى ، الى جانب مطـير وعتيبـة والعجمان . فأصبحت اواسط الجزيرة العربية وقسمها الشمالي ، مسـرحـاً لحرب عصابات واسعة . واضطرب حبل الامن الذي كان يعتـز به ابن سعـود ، وحلت محله الفـوضى العـامة في انحاء نجد ، واكتسحته عصابـات الاخـوان الثـائـرين في جميـع الجهـات ، تهاجم القـرى والقوافل ، والعشائر ، التي بقيت مخلصة للملك ، واصبحت الرياض كجزيرة في بحر من الثورة .

من اعمال الفوضى هذه ان بعض الاخوان لم يعودوا يسترون شهوتهم للنهب والسلب ممن كان . فقـد هاجمـوا اهـل القصيم ، وهم وهـابيـون ، ونهبوهم ، واعتـدوا على قافلة كبـيرة للتاجر النجدي الوهابي ابن شريدة في أواخر ١٩٢٩

وهي متجهة من بريدة الى الشام فقاومتهم مع رجاله لكنهم قتلوا واخذت قافلتهم .(٦١)

ولم تكن هذه الاعمال غزوة بدوية ، أو جهادا ، بل كانت سرقة وقتلا .

في هذه المحنة تدبر عبد العزيز أمره وقوى جيشه . واصبح جيشه مجهزاً بالسيارات المصفحة والمدافع الرشاشة في حين لم يكن عند الثائرين الا البنادق القديمة .

وقد اتخذت بريطانيا موقفا متشددا ضد الثورة ، وساعدت الملك عبد العزيز في ضرب فرق الاخوان بقنابل طائراتها ، كما أنها رتبت تعاونا مع شيخ الكويت من اجل ان يستعمل القوة ضد الثوار اذا لجأوا الى حدوده من نجد ومن البلاد المجاورة مقابل ان تعمل على تسوية خلافاته مع الملك عبد العزيز . كما ان القائد الانكليزي السير جون غلوب (ابوحنيك) قدم خدمات عسكرية ضد الاخوان . وهكذا حاصر الانكليز الثوار من الحدود العراقية والكويتية بالاضافة الى حصارهم من الأراضي النجدية .

سار عبد العزيز من الحجاز بموكبه المدرع . تقدم عبد العزيز بسياراته ومدافعه فتراجع الاخوان امامه ، الى ان اصطدموا بالقوس الانكليزي المسلح على حدود العراق والكويت ، واصبحوا محاصرين .

وكان عبد العزيز قد ارسل ابنه سعودا الى الهفوف ، بعد معركة السبلة ، لتقوية الدفاع عن الاحساء ، فكتب له فيصل الدويش رسالة في أواخر عام ١٩٢٩ تبين وضع البدو اليائس جاء فيها : «ان الغزو هو مورد رزقه الوحيد مع عشيرته ، فاما ان يغزو المشركين (في العراق والاردن والكويت) ويأكل من الغنيمة ، اويغزو القبائل حوله ويعيش على السلب . «اما وقد منعنا الامام عبد العزيز من غزو القبائل فقد اصبحنا لا مسلمين ، نحارب الكفار ، ولا عربا بدوا يغير بعضنا على بعض ، ونعيش على ما ينهبه كل منا من الآخر . فمنعنا من ديننا ودنيانا» .(٦٢)

لم يقبل الامام عبد العزيز بهذا المنطق ، لانه اصبح مضطرا الى التصرف كحاكم دولة شبه مدنية ، وصار يسعى للحصول على اعتراف دولي بشرعيته . واول شروط الاعتراف أن يحفظ الامن في بلاده ، وان تتوقف الغزوات الداخلية وعلى الجيران .

ولهذه الرسالة مغزى مهم آخر ، فهي اقرار بأن فكرة «الهجر» لتوطين البدو لم تنجح ، اذ انه بعد اربعة عشر عاما من مشروع الهجر ، كان سكانها ما يزالون يعيشون على الغزو وعلى عطايا الحكومة ، لا من الزراعة .

اجتماع الشَعْراء (اكتوبر ١٩٢٩)

في الوقت الذي كان الحصار يشد خناقه على الاخوان ، دعا الامام عبد العزيز في اكتوبر ١٩٢٩ بعض ذوي الرأي والزعامة الى اجتماع في قريتي الشعراء بين الرياض ومكة ، تباحثوا فيها بأوضاع الثورة واتفقوا على ما يأتي :(٦٣) .

١- كل من اشترك بالفتنة وبقي حيا يؤخذ ماله وجميع ما لديه ، من ابل وخيل وسلاح ، وتحكم الشريعة في رقبته .

٢- كل من كان متهما بممالأة اهل الفساد ، ولم يجاهد مع المسلمين ، تؤخذ منه شوكة الحرب (الذلول والفرس والبندقية) .

٣- كل ما يؤخذ من الاشرار المفسدين ، يمنح للمجاهدين الصادقين ليتقووا به .

٤- يرسل الى الهجر التي فيها اناس من اهل الفساد امير معه قوة لينظر في أمر المفسدين بما تقضي به الشريعة والمصلحة العامة .

٥- كل هجرة غلب الفساد على اهلها يطردون منها ويفرقون بين القبائل ولا يسمح لفريق منهم بالاجتماع في مكان واحد .

٦- ترسل السرايا (الجنود) لانفاذ هذه المقررات خلال عشرة ايام .

تابع الامير عبد العزيز سيره واقترب من فيصل الدويش وبدأت جموع فيصل تنفض عنه . واستضعفه شيوخ بادية العراق كابن طوالة وابن سويط ، وهم موتورون من غزواته السابقة ، فاتفقوا مع عبد المحسن الفرم من شيوخ حرب ، وغزوه فنهبوا ما وجدوه ، ودخلوا خيمة الدويش نفسه فحملوا ما فيها واحرقوها . ومن جملة ما وجدوه نسخ من رسائل ارسلها فيصل الدويش الى فيصل ملك العراق ، والى الكابتن غلوب في العراق .(٦٤) .

في رسالته الى الملك فيصل التمس منه ان تكف القوات العراقية عن ملاحقته ومحاصرته .

اما في رسالته الى كابتن غلوب فجاء فيها : «أن ابن سعود ما وصل الى مركزه الحالي الا بفضلنا . ولما رأينا غدره وخيانته بنا وبالناس عامة فارقناه . واليوم نريد ان نصير رعية لكم ومأمير عندكم تحت يديكم وجنداً لكم لا نعصي لكم امراً»(٦٥) ثم سار فيصل الدويش بأهله ومن بقي معه الى بادية ا لعراق .

وكان عبد ا لعزيز قد وصل الى شعيب الباطن ، فزاره الكابتن غلوب واخبره ان الحكومة البريطانية لا تأذن بضرب الدويش لأن معه نساءه واطفاله لكنه أخرج من العراق عن طريق الجهرة الى اراضي الكويت .

استسلام زعماء الاخوان ونهاية حركتهم

التجأ فيصل الدويش حال وصوله الى الكويت الى المعتمد البريطاني الكولونيل ديكسون ، وخلع الدويش عمامته ووضعها على رأس ديكسون علامة على طلب الحماية .(٦٦) وقد اعتنت زوجة ديكسون بنساء الدويش اللواتي كن في حالة سيئة من الجوع والبؤس .

كانت المفاوضات جارية في الوقت نفسه بين ابن سعود والانكليز لتسليم الدويش ورفاقه جاسر بن لامي ، ونايف ابن حثلين زعيم العجمان ، وقد وافق الانكليز على تسليمهم بشرط أن يبقي ابن سعود على حياتهم .

تم تسليم زعماء الاخوان للملك عبد العزيز بالفعل يوم ١٩ يناير ١٩٣٠ على يد الكولونيل بيسكو رئيس قناصل الخليج والميجور ديكسون الوكيل البريطاني في البحرين . وعندما تقابل فيصل مع الملك قال له لقد فررنا من وجهك الى الكفار فحملونا اليك بطيارة . ثم نقلوا الى سجن الاحساء حيث كان رابعهم سلطان بن بجاد . وقد توفي فيصل الدويش في سجنه عام ١٩٣١ من ورم في حلقه ، اما الباقون فماتوا سنة ١٩٣٤ .

لقد كانت خاتمة مؤلمة لزعماء الاخوان ان تكون نهايتهم طلب حماية الدولة التي كفّروها هروبا من امامهم عبد العزيز . وتلقي هذه الحادثة شكاً على عقيدتهم . اذ لما وضعت عقيدتهم الدينية والنجاة بالروح في الميزان ، رجحت كفة السلامة الشخصية .

ثم طرد الانكليز بقايا العجمان ومطير من ملاجئهم في العراق والكويت ، فتجمعوا على حدود نجد بنسائهم واطفالهم وابلهم ، حيث تلقتهم سرية من جند ابن سعود . وادخل كبارهم على الملك فعفا عنهم ووزعهم على الهجر .(٦٧)

بعد ذلك سرح الملك عبد العزيز قوات الاخوان وشتتهم ودمر عددا من هجرهم ، من بينها غطغط قاعدة سلطان بن بجاد زعيم عتيبة ، فانتهوا كقوة محاربة وانحطت منزلتهم .

ولكي يدرك هذا الجيل فظاعة «الاخوان» ودرجة تعصبهم وشراستهم ، يكفي ان يطلع الناس على حادثة استيلاء جهيمان بن محمد العتيبي ورفاقه من «اخوان» هذا العصر على المسجد الحرام يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٧٩ . وسنطلع القارىء على تفاصيل الحادثة في موضع لاحق .

الحملة الدعائية على الاخوان

يلاحظ القارىء مما سبق ان معظم الذين كتبوا عن عهد الامام عبد العزيز ممن عملوا معه ، وتوظفوا عنده ، اوزاروه وعايشوا عهده ، وعاينوا تطور حركة الاخوان ، وصفوهم بنعوت قاسية كالتعصب والفظاظة وغلاظة القلب ، واتهموهم بالفتك بالرجال والنساء والاطفال المسلمين ، الذين ليسوا على عقيدتهم الوهابية . ولقبوا زعماءهم فيصل الدويش وسلطان بن بجاد وضيدان بن حثلين بسفاحين قتلة .

وقد قال في ذلك عبد الله فيلبي احد مؤرخي آل سعود : «ان الدولة السعودية الاولى التي انتهت بتدمير الدرعية (١٧٤٤ـ ١٨١٨) قامت على اساس الحماس الديني ، تلاها عهد الامامين تركي وفيصل ، الذي قام على اساس التفاهم السياسي مع المصريين والعثمانيين . اما في بناء الدولة السعودية الثالثة (عهد الامام عبد العزيز) فقد عاد آل سعود الى استخدام الدافع الديني كما جرى في الدولة السعودية الاولى .

الا ان آل سعود اصطدموا بحدود لاستغلال الدين يفرضها الواقع المعاصر ، فاضطر الامام عبد العزيز وخلفاؤه سعود وفيصل وخالد وفهد الى التخلي عن المفاهيم المتزمتة السابقة في التعامل مع الاقوام الاخرى من مسلمة وغير مسلمة ، والى الانسجام مع المجتمع الدولي ، والقبول بمفاهيمه في العلاقات بين الامم » .

لعل من أبرز التطورات التي تميز المرحلة اللاحقة ، دعوة الملك فيصل الى مبدأ «التضامن الاسلامي» شاملا مختلف المذاهب السنية والشيعية . وهكذا لم يعد غير الوهابيين من السنة ، كفرة في عصرنا هذا ، ولم يعد الشيعة اصحاب دين «باطل» يجب ردهم بالقوة الى دين الاسلام ، واصبح المسلمون جميعاً متساوين في نظر الخالق .

من تطورات هذه المرحلة ايضا ازدياد التعاون بين الدولة السعودية والدول الغربية الاجنبية واتخاذه مظهرا علنيا واضحا ، وهو ما كانت تستنكره الدعوة الوهابية وتعتبره كفراً .

اجتماع الملكين

اثناء وجود ابن سعود قريبا من العراق لاستلام زعماء ثورة الاخوان ، رتب الانكليز لقاء بينه وبين الملك فيصل بن الحسين . اجتمع الملكان على ظهر الطراد الانكليزي لوبين يوم ٢٢ مارس ١٩٣٠ وكان اجتماع تصافي ومجاملة ، الا

ان مغزاه تجاوز المجاملات الى اعادة وتأكيد واقع ثابت وراسخ ، بدأ في مؤتمر العقير عام ١٩٢٢ ، وجاء اجتماع الملكين يكرسه . فقد كان الاجتماع اقرارا واضحا علنياً بتخلي آل سعود عن مطامعهم في البلاد العربية الشمالية التي يسيطر عليها الهاشميون .

حرب اليمن (٥ ابريل ١٩٣٤)

بعد اجتماعه بالملك فيصل بن الحسين تفحص الملك عبد العزيز حدود مملكته فادرك انه وصل في الشمال بحدوده مع الاردن والعراق الى اقصى امتداد ممكن . وكذلك كان الحال بالنسبة لحدوده الشرقية مع مشيخات الشاطيء المتصالح ، ومع القوس الجنوبي الممتد من سلطنة مسقط الى عدن . ولم يبق الا تصحيح الحدود مع اليمن .

بدأ النزاع بين السعوديين واليمنيين بعد استيلاء الملك عبد العزيز على الحجاز وعسير . ويعود ذلك جزئياً الى النفور الديني بين الوهابيين وبين اليمنيين من المذهب الزيدي الشيعي .[٦٨]

استقل الامام يحيى حميد الدين باليمن بعد ما انسحب منها الاتراك بنهاية الحرب العالمية الاولى .

وكانت تفصل بين البلدين امارتان صغيرتان هما امارة آل عائض وامارة آل ادريس . وكان الامام عبد العزيز قد احتل امارة آل عائض عام ١٩٢٢ ، ووضع الادارسة تحت حمايته عام ١٩٢٦ ثم ضم منطقتهم عام ١٩٣٠ فاستاء الامام يحيى من ذلك وكان يطمع بضمهم الى اليمن .

كانت حدود المنطقتين مع كل من السعودية واليمن غير محددة . فطالب الامام يحيى بنجران . وعقدت اجتماعات غير مثمرة بين وفود الطرفين لتخطيط الحدود وعندها ساند الامام يحيى دعواه بارسال فصائل من قواته الى نجران . فهاجمتها قوة سعودية سنة ١٩٣٢ بقيادة خالد بن لؤي وطردتها وضمت المنطقة رسمياً الى ابن سعود .[٦٩] وتدهورت العلاقات بين البلدين .

ثم تقدم جيش الامام يحيى سنة ١٩٣٣ الى جبال جيزان حيث كانت تقوم في السابق امارة الادارسة وتجاوزها الى نجران على البحر . ووجه الملك عبد العزيز انذارا للامام يحيى للانسحاب فتجاهله .[٧٠]

في هذه الاثناء (١٩٣١) تأسس في مصر «حزب الاحرار الحجازي» وغايته

تحرير الحجاز من الحكم الوهابي . (٧١) وذهب مندوب من الحزب الى مصوع ومنها دخل اليمن ، فاتصل بالامير الحسن الادريسي اللاجىء الى صنعاء وزين له القيام على عبد العزيز بالاتفاق مع الشيخ ابن رفادة في شمال الحجاز الذي زحف جنوباً بتحريض من الامير عبد الله بن الحسين في شرق الاردن .

احتل حسن الادريسي جيزان فاتصل به الطليان ورست مدرعة ايطالية قبالة الساحل في ١٧ نوفمبر ١٩٣٢ ونزل منها مندوب بحث مع الحسن دخوله تحت الحماية الايطالية ، ووعده بالمساعدة والذخائر . كما وجدت بعد ذلك وثائق مخابرة بين ا لحسن واليمن من اجل ارسال قوة الى الادريسي على ان يدخل تحت حماية الامام يحيى . (٧٢)

في هذه الاثناء لم يكن الملك عبد العزيز مطمئنا لبعض سكان الحجاز الذين انشأوا احزاباً خارج الحجاز ، في مصر والاردن(٧٣) ومع ذلك لم يستطع الا ان يرسل النجدات السعودية لاستعادة عسير . وقد تثبتت القوات الادريسية من تاريخ ٤ نوفمبر ١٩٣٢ الى ٢٤ فبراير ١٩٣٣ لكن المعارك انتهت بانتصار القوات السعودية وفرار الادارسة الى اليمن . وبعد الحرب السعودية ـ اليمنية كان تسليم الادارسة لعبد العزيز شرطاً من شروط الصلح .

بعد ذلك ارسل الملك عبد العزيز انذارا للامام يحيى كما رأينا فتجاهله ، فتقدم الجيش السعودي في ٥ ابريل ١٩٣٤ على شعبتين : احدهما بقيادة الامير سعود ولي العهد انطلقت من نجران واستهدفت احتلال الجبال في منطقة القبائل الزيدية ، والشعبة الثانية بقيادة الامير فيصل سارت على الشاطيء عبر تهامة ، واستهدفت ميناء الحديدة في منطقة سكانها من الشوافع .

لم يكن الامير سعود قائدا حربيا بارعاً ، وكانت المنطقة المكلف باحتلالها من اوعر المناطق ، وسكانها من اشد المقاتلين ، يقودهم الامير احمد بن الامام يحيى الذي جعل مركز قيادته مدينة صعدة . وقد شنت القوات اليمنية هجوماً على السعوديين فكسرتهم ونهبت معسكر الامير سعود وقضت على ذخيرته ومؤنه واحرقت خيامه واجبرتهم على التراجع نحو السهل . نتيجة لهذه الهزيمة ارسل سعود ابني عمه فيصل وفهد ابناء سعد جنوباً ليهاجما السفوح الشرقية للمنطقة الجبلية . لكن هجومهما فشل . (٧٤)

اما حملة الامير فيصل على الساحل فحققت نجاحا باهرا . فقد انطلق من جيزان واكتسح سهل تهامة حتى واجه قوة كبيرة مرابطة في مدينة حرض استطاعت ان توقف تقدمه مدة . لكنه انتصر عليها في ا لنهاية وتكبد اليمنيون خسارة كبيرة . بعد ذلك تقدم السعوديون الى الحديدة من دون مقاومة .

وكانت بعض سفن حربية ايطالية راسية امام المرفأ . ووصلت انباء تقول انهم ينوون انزال جنود لمساعدة الامام يحيى لكن السفن انسحبت من دون اشتباك .

وضع احتلال الحديدة نهاية للحرب وسارعت الهيئات العربية والاسلامية للتوسط ، فتألف وفد للوساطة بين الملكين من الامير شكيب ارسلان ، من لبنان ، والحاج امين الحسيني مفتي القدس ، ورئيس الهيئة العربية العليا ، وهاشم الاتاسي من زعماء الوطنيين في سوريا ، ومحمد علي باشا علوية من مصر .

ارسل الامام يحيى عبد الله ابن الوزير مفاوضا وتوقفت الحرب في ٢٧ ابريل ١٩٣٤ ، وجرت مفاوضات الصلح في الطائف وتم توقيع المعاهدة في جدة بتاريخ ٢١ مايو ١٩٣٤ . فكانت مدة الحرب اثنين وعشرين يوماً من ٥ الى ٢٧ ابريل .

تضمنت المعاهدة الحاق جيزان ونجران ومناطقهما بالمملكة السعودية ، وتسليم الامير حسن وعبد العزيز ابن محمد الادريسي الى السعوديين ، ودفع غرامة حربية مقدارها مائة الف جنيه الى ابن سعود تعويضا عن نفقات حملته . (٧٥)

كانت حملة اليمن اخر حرب خاضها آل سعود في الجزيرة العربية .

بعد سنة من ذلك حاول يمنيان اغتيال الملك عبد العزيز في الحرم فحجب الامير سعود الملك عنهما واصيب هو بطعنة خنجر في كتفه ونجا الملك وقتل اليمنيان .

عبد العزيز ، الاخوان ، وفتح الحجاز

١ ـ أبو علية ، عبد الفتاح ، الاصلاح الاجتماعي في عهد الملك عبد العزيز ، ص ١٤٧ .
٢ ـ Dickson, H.R.P., Notes on Akhwan, Foreign Office, 686, Vol. 18, p. 107
٣ ـ ابو علية ، عبد الفتاح ، الاصلاح الاجتماعي في عهد عبد العزيز ، ص ١٤٦ .
٤ ـ الزركلي ، خير الدين ، شبه الجزيرة في عهد عبد العزيز ، ج ١ ، ص ٢٦١ ،
٥ ـ المصدر السابق ، ص ٢٦١ ، والريحاني ، ص ٢٦٠-٢٦٣ ، وفؤاد حمزة ، ص ٣٧٩ .
٦ ـ ابو علية ، عبد الفتاح ، سبق ذكره ، ص ١٤٤ .
٧ ـ المصدر السابق ، ص ١٤١ .
٨ ـ كشك ، محمد جلال ، السعوديون والحل الاسلامي ، ص ٥٧٥ .
٩ ـ المصدر السابق ، ص ٥٧٩ .
١٠ـ ابو علية ، عبد الفتاح ، سبق ذكره ، ص ١٦٩ و١٧٠ .
١١ـ المصدر السابق ، ص ١٥٣ و١٥٥ .
١٢ـ المصدر السابق ، ص ١٤٥ .
١٣ـ الزركلي ، خير الدين ، سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٢٦٠ .
١٤ـ ابو علية ، عبد الفتاح ، سبق ذكره ، ص ١٤٦ .
١٥ـ وهبة ، حافظ ، الجزيرة العربية في القرن العشرين ، ص ٢٩٤ .
١٦ـ العطار ، احمد عبد الغفور ، صقر الجزيرة ، كما ورد في كتاب محمد جلال كشك ، ص ٦١٠ ـ ٦١١ .
١٧ـ المصانع ، محمد ، توحيد المملكة العربية السعودية ، ص ١١١ و١١٢ و١١٥ و١٢٤ و١٢٥ .
١٨ـ كشك ، محمد جلال ، سبق ذكره ، ص ٥٨٦ .
١٩ـ الريحاني ، امين ، سبق ذكره ، ص ٢٦٥ .
٢٠ـ وهبة ، حافظ ، سبق ذكره ، ص ٢٩٩ .
٢١ـ ابو علية ، عبد الفتاح ، سبق ذكره ، ص ١٦٠ .

٢٢ـ المصدر السابق ، ص ١٤٨ .
٢٣ـ السعدون ، خالد ، العلاقات بين نجد والكويت ، ص ١٧٣ ، نقلا عن برقية من الوكيل السياسي البريطاني في البحرين الى المقيم السياسي في الخليج بتاريخ ١٩١٥/٨/٦ .
٢٤ـ المصدر السابق ، ص ١٨٨ـ ١٩١ .
٢٥ـ المصدر السابق ، ص ٢٥٠ و٢٦٣ و٢٧٥ و٢٧٨ .
٢٦ـ الريحاني ، امين ، سبق ذكره ، ص ٢٧٧ .
٢٧ـ الرشيد ، عبد العزيز ، تاريخ الكويت ، ص ٢٨١ .
٢٨ـ وهبة ، حافظ ، خمسون عاما في جزيرة العرب ، ص ٥١ .
٢٩ـ الريحاني ، أمين ، سبق ذكره ، ص ٢٧٤ .
٣٠ـ المصدر السابق ، ص ٣٠٢ ، وفؤاد حمزة ، البلاد العربية السعودية ، ص ٦١ .
٣١ـ Bell, Gertrude, Letters, edited and selected by Lady Bell, vol. II (Ernest Benn- London, 1927), pp. 660-1
٣٢ـ وهبة ، حافظ ، خمسون عاما في جزيرة العرب ، ص ٥١ .
٣٣ـ الريحاني ، أمين ، سبق ذكره ، ص ٣٣٣ .
٣٤ـ موضى بنت منصور آل سعود ، عبد العزيز ومؤتمر الكويت ، ص ١٥٦ .
٣٥ـ وهبة ، حافظ ، سبق ذكره .
٣٦ـ موضى بنت منصور آل سعود ، سبق ذكرها ، ص ١٥٧ .
٣٧ـ الريحاني ، أمين ، سبق ذكره ، ص ٤٤١ .
٣٨ـ المصدر السابق ، ص ٤٣٧ ، والزركلي ج١ ، ص ٢٩٤ .
٣٩ـ Lacy, Robert-The Kingdom p. 199
٤٠ـ حمزة ، فؤاد ، البلاد العربية السعودية ، ص ٨٥ .
٤١ـ الزركلي ، خير الدين ، سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٣٥٤ .
٤٢ـ حمزة ، فؤاد ، البلاد العربية السعودية ، ص ٨٧ .
٤٣ـ المصدر السابق ، ص ٨٧ـ ٩٠ .
٤٤ـ الزركلي ، سبق ذكره ، ج ا ، ص ٣٥٤ .
٤٥ـ حمزة ، فؤاد ، قلب الجزيرة العربية ، ص ٧٣ .
٤٦ـ الريحاني ، أمين ، سبق ذكره ، ص ٤٤٧ .
٤٧ـ الزركلي ، خير الدين ، سبق ذكره ، ص ٢٩٨ .
٤٨ـ المصدر السابق ، ص ٣٠٠ .
٤٩ـ المانع ، محمد ، توحيد المملكة العربية السعودية ، ص ٢٢٥ـ ٢٣٣ .
٥٠ـ المصدر السابق ، ص ٢٣٤ـ ٢٣٨ .
٥١ـ الزركلي ، خير الدين ، سبق ذكره ، ص ٤٧١ .
٥٢ـ كشك ، محمد جلال ، سبق ذكره ، ص ٦٢٣ .
٥٣ـ المانع ، محمد ، سبق ذكره ، ص ١١٨ ، ١١٩ـ ١٢٣ .

الزركلي ، خير الدين ، سبق ذكره ، ص ٤٧٨ .
٥٤- الزركلي ، عبد الله ، اصدق البنود في تاريخ عبد العزيز آل سعود ، ص ٣٦٧
٥٥- الزامل ، عبد الفتاح ، الاصلاح الاجتماعي ، ص ١٦٨ .
٥٦- ابو علية ، خير الدين ، سبق ذكره ، ص ٤٨٤ و٤٨٥ .
٥٧- الزركلي ، محمد ، سبق ذكره ، ص ١٢٣ .
٥٨- المانع ، المصدر السابق ، ص ١٢٣ .
٥٩- المصدر السابق ، ص ١٢٣ .
٦٠- Lacy, Robert, op. cit., p. 215-216
٦١- المانع ، محمد ، سبق ذكره ص ١٢٦ .
٦٢- كشك ، محمد جلال ، سبق ذكره ، ص ٦٥٢ و٦٩٧ .
٦٣- الزركلي ، خير الدين ، سبق ذكره ، ص ٤٩٥ و٤٩٦ .
٦٤- المصدر السابق ، ٥٠٢ .
٦٥- المصدر السابق ، ص ٥٠٣ .
٦٦- المانع ، محمد ، سبق ذكره ، ص ١٧٨ .
٦٧- الزركلي ، خير الدين ، سبق ذكره ، ص ٥٠٧ .
٦٨- المانع ، محمد ، سبق ذكره ، ص ١٩٧ .
٦٩- المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .
٧٠- الزركلي ، خير الدين ، سبق ذكره ، ٦٠٢ .
٧١- المصدر السابق ، ص ٥٣٧ .
٧٢- المصدر السابق ، ص ٥٣٨ .
٧٣- المانع ، محمد ، سبق ذكره ، ص ٢٠٥ .
٧٤- المصدر السابق ، ص ٢٠٧ .
٧٥- المصدر السابق ، ص ٢١٠ .



الوضع المالي للملك عبد العزيز

يقول محمد المانع إنه حينما استولى ابن سعود على الرياض سنة ١٩٠٢ كانت خزينة الدولة برمتها تحمل في اخراج ، على ظهر ابله ، ولم تتحسن احواله المالية كثيرا طيلة العشرين سنة التالية . فكان دائما في حاجة الى المال . وزاد ضيقه المالي لما قطعت بريطانيا عنه معونتها المالية السنوية في نهاية ١٩٢٣ ، وكانت تشكل المورد الرئيسي له .

وحين استولى على الحجاز سنة ١٩٢٦ سافر معه عبد الله السليمان ليرتب له الادارة المالية . ولم يكن يعرف شيئا عن مسك الدفاتر او المحاسبة . وبقي مقر ابن سليمان الدائم في الحجاز لأن مواردها كانت اكبر من موارد نجد بكثير ، من الجمارك والبريد والرسوم التي يدفعها الحجاج عند دخول البلاد . ومع ذلك ظل الملك يعاني صعوبات مالية مستمرة .

وكان اذا قصرت الموارد عن حاجات الملك ، وغالبا ما كانت تنقص ، يذهب عبد الله السليمان الى كبار التجار يقترض منهم . [(١)]

زاد في ضيق عبد العزيز الازمة المالية الحادة التي عمت العالم ما بين ١٩٢٩-١٩٣٣ ، فتناقص عدد الحجاج ، وبلغ الضيق حدا ان الدولة السعودية عجزت عام ١٩٣٥ عن دفع مرتبات موظفيها . [(٢)]

وقد رأينا ان عبد العزيز اقترض من التجار المحليين حتى عجزوا عن تلبيته . فذهب يلتمس القروض من الخارج . ولم يستطع الحصول على شيء من الدول الغربية بسبب الازمة المالية ، فلجأ سنة ١٩٣٢ الى الاتحاد السوفياتي طالبا المساعدة والقروض .

عبد العزيز والسوفيات

كان السوفيات اول دولة اجنبية اعترفت بعبد العزيز ملكاً على الحجاز سنة ١٩٢٦ ، وأقامت لها بعثة دبلوماسية في جدة . وارسل عبد العزيز ابنه فيصل حاكم الحجاز ووزير الخارجية في جولة على الدول الاوروبية سنة ١٩٣٢ للحصول على قروض فلم يوفق . وتابع فيصل سفره الى موسكو بدعوة من حكومتها حيث قابل زعماء الشيوعية كلينين ومولوتوف ، ثم زار القوقاس واشاد امام سكانها المسلمين بصداقة بلاده ، حامية الأماكن الاسلامية المقدسة ، لحكومة الاتحاد السوفياتي .

بنهاية الزيارة ارسلت موسكو شحنة من البترول الى جدة بقيمة ثلاثين الف جنيه وتحدثت عن قرض بمبلغ مليون جنيه لقاء اتفاقية تجارية طويلة الامد واتفاقية صداقة وتعاون . وطالت المفاوضات وتعثرت ولم يحصل عبد العزيز على القرض المرتجى .

امتياز البترول

عاد الحظ فابتسم لعبد العزيز . فقد تنافست شركات بريطانية واميركية على التنقيب عن البترول في الاحساء ، وعرض الاميركيون شروطاً افضل فحصلت شركة سوكال الاميركية على امتياز يشمل مساحة واسعة من المنطقة الشرقية في ٩ مايو (ايار) ١٩٣٣ لقاء دفع ٣٥ الف جنيه فورا و٢٠ الف جنيه بعد ثمانية عشر شهرا ، وخمسة الاف جنيه كايجار سنوي وخمسين الف جنيه عند ظهور البترول ، وخمسين الف جنيه بعد اكتشافه بسنة على ان تحسب كل هذه المبالغ كدفعات مسبقة على حساب العائدات السعودية المقبلة .

لم يكن عبد العزيز يعتقد بوجود البترول ، فاعتبر ما دفعته الشركة كسباً وغنيمة سهلة . وليس لهذه المبالغ قيمة بالنسبة لايراد السعودية من البترول في الوقت الحاضر . لكنها كانت موردا مهما بالنظر لوضع عبد العزيز المالي في تلك الايام .

حفرت الشركة ست آبار ما بين ١٩٣٣ و١٩٣٨ من دون ان تعثر على كميات تجارية ، الى ان ظهر البترول في البئر السابعة بتاريخ ٤ مارس (اذار) ١٩٣٨ وكان ذلك بداية العهد الجديد في السعودية .

لكن ذلك لم يفرج ضائقة عبد العزيز فورا لأن الحرب العالمية الثانية اعلنت في اول سبتمبر (ايلول) وتعطلت المواصلات البحرية ، فتقلص انتاج البترول

الى ثلاثين الف برميل يومياً واستمرت الى نهاية الحرب . وترافق ذلك مع تناقص عدد الحجاج بسبب الحرب ايضا .

لكن الحرب التي قلصت موارد البترول درت على عبد العزيز اموالا اخرى . فقد عادت بريطانيا تدفع مساعدة سنوية بلغت ثلاثة ملايين جنيه سنوياً . اما الولايات المتحدة التي لم تعترف بالحكومة السعودية الا في مايو (ايار) ١٩٣١ اي بعد خمس سنوات من اعتراف بريطانيا والسوفيات ، ولم تفتح سفارة في جدة الا سنة ١٩٤٢ ، فقد شعرت بحاجتها الى البترول السعودي ، عندما تعرضت الى «نقص استراتيجي» في احتياطيها الذي كانت الحرب تستنزفه بسرعة ، فأعلنت حكومتها «ان استثمار موارد البترول السعودي يجب ان ينظر اليه في ضوء المصلحة الوطنية الاميركية» . وهكذا دخلت السعودية في نطاق الاهتمام الامني الاميركي وما تزال حتى الآن .

في ١٨ فبراير (شباط) ١٩٤٣ اصدر الرئيس روزفلت قرارا يعتبر المملكة السعودية عنصرا حيويا للدفاع عن الولايات المتحدة ، وانها بهذه الصفة تدخل في عداد الدول التي يحق لها الاستفادة من برنامج «الاعارة والتأجير» ، فحصل عبد العزيز بمدة سنتين على ٣٣ مليون دولار من المال والبضائع . وقبل اجتماع عبد العزيز بروزفلت في البحيرات المالحة في مصر يوم ١٤ فبراير ١٩٤٥ منحته الولايات المتحدة مساعدات بقيمة ٥٧ مليون دولار وسجل اجتماع الزعيمين ابتداء عهد الصداقة بين البلدين .

في الوقت ذاته ، وبسبب انتهاء الحرب ارتفعت ايرادات البترول من ١٠ ملايين دولار سنة ١٩٤٦ الى ٥٦ مليوناً سنة ١٩٥٠ ثم الى ١١٠ ملايين سنة ١٩٥١ والى ٣٣٥ مليوناً سنة ١٩٥٤ واستمرت بالارتفاع على هذه الوتيرة .

في مدة ثماني سنوات من نهاية الحرب العالمية الثانية ، حتى وفاة الملك عبد العزيز ، دخل الدولة ستمائة مليون دولار ، منها اربعمائة مليون واردات الدولة ومائتا مليونا من الديون . لقاء هذه المبالغ الضخمة في ذلك الزمن انشأ الملك من المرافق العامة سكة حديد الرياض ـ الظهران ورصيفا بحريا في ميناء جدة ، وابارا متفرقة في الصحراء ، وبعض الطرق المرصوفة .

خلال هذه المدة ، تغيرت وضعية الشركتين صاحبتي امتياز البترول سوكال وتكساكو اللتين عملتا تحت اسم كالتكس . فقد اتفقتا سنة ١٩٤٧ مع شركتي ستاندرد اويل اوف نيوجيرسي ، التي عرفت بعدئذ باسم (اكسون) وشركة سوكوني التي اصبحت (موبيل اويل) على الاشتراك باستثمار البترول السعودي بنسبة ثلاثين بالماية لاكسون وعشرة بالماية لموبيل ، وثلاثين بالماية لكل من

سوكال وتكساكو ، وصارت الشركة الجديدة تعرف باسم (اراب اميركان كومباني) او ارامكو اختصارا .

نهاية عهد

بدأت تظهر على عبد العزيز منذ سنة ١٩٤٧ اعراض الشيخوخة والانحلال . وازداد الالم في ركبتيه فلم يعد يقوى على المشي ولجأ الى كرسي متحرك يتنقل به . وضعف بصره بحلول عام ١٩٤٩ حتى لم يعد يميز الاشياء رغم النظارات السميكة . وصار عاجزا عن تركيز ذهنه . وانعكس ذلك على مستوى الدولة لأن جميع مصالح الناس والحكم كانت مركزة في شخصه ، ولم يكن للحكومة عمل الا بارادته ومن خلاله .

واستعان عبد العزيز خلال عهده بوزراء ومستشارين مسؤ ولين تجاهه شخصيا لكنه لم يشكل مجلس وزراء له شيء من الصلاحيات ، الا قبيل وفاته سنة ١٩٥٣ . وكان قد عهد الى ابنه سعود بكثير من امور الدولة نظرا لاعتلال صحته .

قضية الوراثة

قضى عبد العزيز ان ينتقل الملك تسلسلا من الاخ الاكبر الى من يليه سنا . وجرت العادة ان تتم البيعة في وقت واحد للملك وللاخ الذي يليه كولي للعهد .

فلما توفي عبد العزيز في ٩ نوفمبر ١٩٥٣ عن سبعة وسبعين عاما نودي بسعود ملكا وبفيصل وليا للعهد . وبعد عزل سعود جرت البيعة لفيصل ملكا ولخالد وليا للعهد ، ثم لخالد وفهد ، والان لفهد ولعبد الله .

لم يكن هذا التسلسل في الوراثة دقيقا ، فقد تجاوز محمداً الابن الثالث لعبد العزيز ، كما تجاوز ناصرا الابن الخامس الذي يلي خالد ، وسعدا الابن السادس الذي يسبق فهد .

أهم انجازات الملك عبد العزيز

عقد الزعيم الهندي «جواهر لال نهرو» فصلا خاصة عن نهضة الملك عبد

العـزيـز ، في كتـابـه «لمحـات من تاريخ العـالم» لخص فيه ـ من وجهة تاريخية وسياسية ـ معالم هذه النهضة .

وتحت عنـوان «الجـزيـرة العـربية . . قفزة من الماضي» كتب «نهرو» يقول ، «مع ان الجزيرة العربية كانت منبع المدنية العربية ، الا انها بقيت متأخرة تعيش بعقليـة القـرون الـوسطى ، وسبقتهـا الى التمـدن جاراتها العربيات مثل مصر وسوريا وفلسطين والعراق . وبقيت الجزيرة في معزل عن العالم ، ولا توجد فيها سكك حديد ولا تلفونات ولا تلغرافات .

كانت الجزيرة العربية قبل الحرب العالمية الاولى خاضعة للحكم التركي ، ولكن ظهر ابن سعود في نجد ، واخذ يوطد اركان حكمه ، ويوسع مملكته حتى استكملت حدودها الحاضرة » .

وقد عاصر الملك عبد العزيز ظروفا واحداثا مهمة :

- الحربين العالميتين الاولى والثانية .
- سقوط الدولة العثمانية .
- موجات الاستعمار التي اجتاحت العالم العربي والاسلامي .
- الثورة البلشفية في روسيا .
- الانجـازات العلميـة التي كانت بمثـابـة «فتوحات» علمية مهدت الطريق ووسعتـه من أجـل تحقيق انجـازات علمية هائلة لا تزال البشرية تتحرك بدفعها القوي الممتد .
- بوادر الانفتاح العربي على الحضارة الغربية .
- ظاهرة التفتت والتجزئة في الوطن العربي .
- وواجـه ـ على المستـوى المحـلي ـ مجمـوعـة مشكـلات وازمـات يمكن ان نحصرها في الظواهر الآتية :
- التخلف التعليمي والعلمي .
- طغيان الخرافات والأوهام .
- الموقف المتشنج من منجزات الحضارة الغربية .
- التمزق القبلي والاقليمي والمذهبي .
- الفوضى الادارية ، والسياسية ، والأمنية .
- ضعف الوعي القومي أو غيابه .

فماذا كان موقف الملك عبد العزيز من هذه الامور كلها ؟

ان الملك عبد العزيز ـ كأي زعيم يريد ان يخدم قومه وبلاده ـ تقدم بمشروع متكامل للنهضة في مجتمع لا توحي ظروفه العامة بأنه مستعد للنهوض .

وخلال السنوات التي قضاها في الحكم حقق الملك عبد العزيز كثيرا من اهدافه وهي : تطهير العقيدة من الشوائب ، وتثبيت الحكم ، وتوفير الأمن ، وايجاد قاعدة للانتاج والبناء ، وتحقيق مشروع الوحدة . . وهذه كلها اعمال انجزها قبل موته .

وبأي مقياس قيست نهضته ، فان بعدها العربي واضح ومعمق ومؤكد . وكان مفهوم العروبة ـ انتماء وقضية ـ واضحا تماما في تفكيره وفلسفته . وقد تجسد هذا المفهوم في قوله : «اننا عرب ، لا ننكر ذلك . ان بلاد الجزيرة العربية ، هي بلد كل عربي مسلم ، وهم عندما يفدون الينا ، انما يفدون الى بلادهم ، وقلوبنا مفتحة للجميع ، ونحب لجميع جاراتنا العربيات ما نحبه لأنفسنا . ان العرب هم العرب حيث كانوا ، لا يمكن ان يفرق بينهم اختلاف الاديان والأوطان» . واذا كانت العروبة قد برزت في التعريف الدستوري لدول عربية معينة ، كالجمورية العربية السورية ، وجمهورية مصر العربية ، والجمهورية العربية اليمنية ، فان الرصد التاريخي لهذه التعاريف يوضح ان الملك عبد العزيز كان سباقا الى ذلك حيث سمى مملكته : «المملكة العربية السعودية»[٣]

بالاضافة الى الانتساب العربي وهوبديهي لأهل نجد والجزيرة ، يجب ان لا نتجاهل العناصر الأساسية الاخرى وهي العقيدة الدينية ، والتدين الشخصي للملك عبد العزيز ، والسياسة الشرعية المستمدة من الشرع ، ومن السوابق التاريخية الاجتهادية للحكم الاسلامي .

كما يجب الاحتراس من التورط في المفاهيم الشعوبية التي تلغي دور «العنصر العربي» في نهضة الملك عبد العزيز ، استخفافا بالعروبة ، لا حباً في الاسلام .

تميزت مسيرة الملك عبد العزيز بخصائص مهمة هي العصرية والانفتاح على العالم الخارجي والاصالة ، والوحدة .

ونعني بالعصرية وضع الاساس لانشاء دولة حديثة في الادارة والتنظيم ، والاتصالات ، وطرق المعيشة ، والأمن والدفاع ، والتعليم ، والعلاقات الدولية ، ونمط الحياة العام .

وفي هذا المجال قال نهرو : «بعد ان نجح ابن سعود كجندي ، وكمحارب ، كرس كل جهوده للقفز ببلاده من حياتها القبلية الى حياة العصر الحديث ، ويظهر ان ابن سعود قد نجح الى حد كبير في هذا المضمار ، وأثبت بذلك أنه رجل سياسي قدير بعيد النظر» . كان أول عمل ناجح قام به هو: اقرار

الأمن داخل البلاد ، فأصبحت وقت قصير ، قوافل الحجاج تسير بطمأنينة كبيرة ، وكان هذا انتصاراً عظيماً سُرّ له الناس كثيراً ، لأن الحجاج كانوا في السابق ، معرضين للنهب والسلب اثناء سفرهم .

اما ثاني نجاح احرزه فهو ادخال الطائرات والسيارات والتلفونات وغيرها من مظاهر الحياة الحديثة الى الحجاز ونجد . وهذا التحديث يتقدم بخطوات ثابتة راسخة ، لأن من اصعب الامور القفز بالشعب من القرون الوسطى الى العصر الحاضر ، اذ يحتاج ذلك الى تغيير عقلية الناس وافكارهم ، وقد لاقى هذا التقدم وهذه الآلات الحديثة التي ادخلها ابن سعود معارضة بعض الناس بحجة انها من صنع الشيطان ، فاحتجوا عليها ، وبلغت احتجاجاتهم قمتها عندما ثاروا في سنة ١٩٢٩ ، ولكن ابن سعود تغلب عليهم .[٤] وترافق كل ذلك مع الانفتاح على العالم الخارجي وفتح جسور اتصال تجارية وعلمية وسياسية معه .

وتجلت اصالة عبد العزيز بالمواءمة الواعية والمحسوبة بين التشبث بالجذور من جهة ، والاخذ بأسباب التقدم الجديدة من جهة أخرى .

وقد لاحظ نهرو ايضا ان الملك عبد العزيز حافظ على هذا التوازن الواعي بين الأصالة والحداثة .

يقول نهرو : «صار ابن سعود سيد الجزيرة العربية ، واتخذ له لقب ملك الحجاز ونجد ، واعترفت الدول الاجنبية باستقلاله ، وفي الوقت نفسه لم يسمح للاجانب بأية امتيازات خاصة كالتي في مصر ، كما لم يسمح لهم أبدا بادخال أي نوع من أنواع الخمور .[٥]

ومن اعظم انجازات الملك عبد العزيز تحقيقه لوحدة الارض في الجزيرة العربية . فكانت الوحدة الوحيدة الراسخة الثابتة منذ ١٩٢٠ الى هذا اليوم وكان كل ما عداها هباءً .

ومهما دار الجدل واستمر بين حملة الفكر القومي ، حول الصبغة الدينية البارزة في مشروع الملك عبد العزيز ، فان قضية الوحدة التي انجزها ليست موضع جدل ، فهي أول وحدة عربية تتحقق فوق ارض عربية ـ وبسواعد عربية ـ في العصر الحديث .

١ـ المانع ، محمد ، توحيد المملكة العربية السعودية ، ص ٢٥٨ و٢٥٩ .
٢ـ المصدر السابق ، ص ٢٦٢ .
٣ـ الغلامي ، عبد المنعم ، الملك الراشد ، ص ٣٨٥ .
٤ـ نهرو ، جواهر لال ، لمحات من تاريخ العالم ، ص ٣٢٦ـ ٣٢٧ .
٥ـ المصدر السابق ، ص ٣٢٦ .

٩

عهد الملك سعود (١٩٥٣ - ١٩٦٤)

يعتبر عهد الملك سعود بداية انتقال البلاد السعودية من حالة البداوة ومحاولة التوافق مع واقع المدنية الحديثة وهي محاولة لا تزال مستمرة الى يومنا هذا .

شخصية الملك سعود

ولد الملك سعود سنة ١٩٠٢ وتولى الملك في ٩ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥٣ ، وعزل في ٢ نوفمبر ١٩٦٤ وتوفي منفياً في اليونان في ٢٣ فبراير (شباط) ١٩٦٩ .

كان والده مصمما على تثبيت مركزه كولي للعهد غير منازع ، فعينه حاكما على نجد سنة ١٩٢٦ ، وأعلنه وليا للعهد سنة ١٩٣٣ ، وكلفه بتنظيم الادارة الحكومية في الحجاز سنة ١٩٥٣ ، وجعله قائدا عاما للجيش في اغسطس (اب) ١٩٥٣ ، وكلفه بتحديد صلاحيات ومسؤ وليات مجلس الوزراء الذي تشكل في ١٠ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٥٣ ، وبتنظيم الوزارات القائمة في ذلك التاريخ .

وكان من المقرر ان يجتمع مجلس الوزراء مرة في الشهر ويتخذ قراراته بالاكثرية الا انه لم يبدأ عمله الا في ربيع ١٩٥٤ بعد وفاة الملك عبد العزيز .

كان سعود قليل الصلة بالعالم الخارجي ، يرتاح الى الصحراء وعشرة القبائل ، حيث كان يمضي قسما كبيرا من وقته بينها .

كان بشوشا وكريما ، قريبا من شعبه ، متساهلا مع من حوله ، خصوصا اولاده وبطانته التي تسرب اليها المنتفعون ، سخياً بالانفاق حتى الاسراف .

وازداد نفوذ اولاده وبطانته عليه مع تقدمه بالسن واعتلال صحته .

لكن سعود كان من ناحية أخرى يحب الاصلاح والاعمار ، فأنشأ الابنية الحكومية ، ومئات المدارس ، وجامعتين في الرياض والمدينة ، ومستشفيات ومستوصفات ، وباشر بانشاء شبكة كبيرة من الطرقات ، ودشن مشاريع مياه وكهرباء في المدن ، ومنح الطلاب المتفوقين مساعدات مالية ، لمتابعة تحصيلهم في الخارج ، والغى رسوم الحج ، ورسوم الكمرك على استيراد المنتوجات الغذائية ، وأدوات البناء والآلات الصناعية تنشيطا للاقتصاد . كما ألغى الضرائب البلدية على العقارات ، وانشأ مدرسة للبنات ضمن أسوار الناصرية ، وخصص يوما من كل اسبوع للنساء يستمع فيه الى مطالبهن ومظالمهن .

الخلاف الداخلي

حاول سعود عند استلامه الحكم سنة ١٩٥٣ ان ينظم أوضاع العائلة ، وكان عبد العزيز قد منع الامراء من تعاطي الاعمال التجارية ، وأوصاهم بأن شيئين لا يتفقان هما : ادارة الدولة ، وكسب المال . وقال لهم : لا تنافسوا التجار حتى لا ينافسونكم على الحكم .

من ناحية الحكم ، ابقى سعود على الوزراء الذين عينهم والده ، واضاف اليهم الامير طلال وزيرا للمواصلات ، والدكتور رشاد فرعون وزيرا للصحة ، ومحمد علي رضا وزيرا للتجارة . وفي عام ١٩٥٧ تولى ابنه فهد وزارة الدفاع ، وعين ابنه مساعداً ، قائداً للحرس الملكي ، وخالداً قائداً للحرس الوطني الذي تنظم حديثاً ، وسعداً قائداً للحرس الخاص .

لم يرض أخوة سعود عن هذه التعيينات ، التي سلمت مراكز مهمة لاحداث ، وتجاوزت الاخوة الاكثر خبرة .

بالاضافة الى ذلك ساءت احوال الدولة المالية ، بسبب مصاريف آل سعود من جهة ، وما كلفته ابنية الوزارات الجديدة في الرياض ، ونقل الوزارات من جدة اليها ، بسبب كل ذلك سقط سعر الريال مقابل الدولار من ٣,٧٥ الى ٦,٤ ، وتأخر دفع الرواتب عدة أشهر للموظفين ولأفراد القوات المسلحة .

بدأت تظهر على سعود عوارض صحية سيئة منذ سنة ١٩٥٥ تشكلت من امراض المعدة ، وارتفاع الضغط ، وارتخاء الركبتين ، بسبب ضعف الدورة الدموية حتى عجزتا عن حمله ، بالاضافة الى ضعف بصره .

ولاية فيصل الأولى

(٢٤ مارس ١٩٥٨- ١٩ ديسمبر ١٩٦٠)

وجد فيصل في خزينة الدولة ٣٤٧ ريالا فقط حسب الرواية الشائعة ، كما اكتشف ان غطاء العملة تدنى الى ١٢٪ فسارع الى تعديل قانون مجلس الوزراء الذي صدر عام ١٩٥٣ والذي جعل من المجلس ملحقا للديوان الملكي ، واصبح من الواجب قانونا ان تدخل جميع واردات الدولة الى وزارة المالية والاقتصاد ولا يتم صرفها الا بقرار من مجلس الوزراء .

عمل فيصل على اصلاح الوضع المالي ، فخفض اعتمادات المشاريع ، واوقف بعضها ، واستعان بخبرة صندوق النقد الدولي لتنظيم الادارة المالية ، ووضع قيودا على الاستيراد ، وسن قانونا للتقاعد للتخلص من الموظفين المسنين ، ووضع ميزانية متعادلة لسنة ١٩٥٩ بلغت ٣٥٧ مليون دولار ، وحدد الميزانية الخاصة للملك بمبلغ ٦٩ مليون دولار منها ٥٥ مليونا للقبائل .

في سنة ١٩٦٠ ألغى القيود على الاستيراد واصدر العملة الورقية ، والغى الرقابة على الصحف ، وادت سياسته المالية والاقتصادية الى زوال الدين العام ، وعودة التغطية النقدية بمعدل ماية بالماية في ظرف سنتين .

لكن سياسة التقشف التي اتبعها فيصل لانقاذ وضع البلاد الاقتصادي والمالي ، لم ترض القبائل والتجار ، الذين تقلصت عطاءاتهم وارباحهم .

واستمر بعض الامراء بالدعوة الى الاصلاح والتغيير . فتخلى الامير نواف عن بعض ايراده وأملاكه للمحتاجين . وتبرع الامير طلال بمستشفى وبعيادة متنقلة لمدينة الرياض فأشادت الصحف بها . وبعد ما ألغى فيصل الرقابة على الصحف سنة ١٩٦٠ صارت تظهر مقالات تدعو الى الاصلاح الدستوري ، وتكلم نواف في القاهرة في مايو (ايار) ١٩٦٠ عن «اتجاه لانشاء مجلس شورى لتحضير أول دستور للبلاد» .

وظن الدستوريون من جهتهم انه من الافضل لهم التعاون مع ملك ضعيف على التعاون مع شخصية قوية ذات اتجاهات تقليدية كالامير فيصل .

وشعر سعود في نهاية ١٩٦٠ بقدرته على استعادة السلطة ، فرفض الميزانية التي قدمها له فيصل في ١٩ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٦٠ . فاعتكف فيصل وعاد سعود الى ممارسة كامل صلاحياته كملك .

شكل سعود وزارة جديدة اشرك فيها عددا من العامة المطالبين بالاصلاح . وتولى فيها طلال وزارة المالية خلفا لفيصل . كما تعين بدر وزيرا للمواصلات ، وعبد المحسن وزيرا للداخلية ، وترفع عبد الله الطريقي الى رتبه وزير البترول فتعززت بذلك سلطة الامراء الدستوريين ومكانتهم . وتولى محمد ابن الملك سعود وزارة الدفاع . وفي الليلة نفسها عبر طلال لجريدة «الحياة» البيروتية «عن آماله بأن المستقبل سيبرهن ان هذه الوزارة ستحقق الاصلاحات الموعودة» .

توترت العلاقات بين سعود وطلال الذي عاد في فبراير (شباط) ١٩٦١ يطالب الملك بتنفيذ ما اتفق عليه . فأحاله هذا الى العلماء الذين رفضوا بحث الموضوع ، قائلين بأن القرآن هو دستور البلاد . نتيجة لذلك استقال الامير طلال من وزارة المالية احتجاجا . وهكذا فشلت تجربة الملك سعود التحررية وعاد بعد خمسة عشر شهرا (١٩٦١) الى العزلة القاتلة التي كان فيها سنة ١٩٥٨ ، فلا هو بخير مع الامراء التقليديين ولا مع الامراء الدستوريين .

ولاية فيصل الثانية

(١٨ اغسطس ١٩٦١ـ ٧ مارس ١٩٦٢)

ضغطت العزلة على سعود ، فزار فيصل في الطائف في ٨ اغسطس (آب) ١٩٦١ طالبا عودة التعاون بينهما . فوضع فيصل شروطا لم يقبل بها سعود . لكن الظروف الخارجية حتمت عليهما الاتفاق صيانة لمصير العائلة . ففي اوائل ١٩٦١ ابلغ سعود الولايات المتحدة انه لن يجدد ايجار قاعدة الطيران في الظهران . وفي يوليو (تموز) ارسل قوة رمزية الى الكويت لما انتهت اتفاقية الحماية مع بريطانيا ، وعندما هدد عبد الكريم قاسم بابتلاعها .

يوم ١٨ سبتمبر (ايلول) جرى انقلاب عسكري في دمشق فرط الوحدة مع مصر واستعادت سوريا استقلالها وحريتها ، فأحدث ذلك دويا في المنطقة العربية ، واوقع سعود في الحيرة والارتباك ، ولم يدر كيف يتصرف . لكنه بعد اجتماع مع فيصل يوم ١٠ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٦١ ، اعترفت السعودية بالنظام السوري الجديد .

غادر سعود البلاد الى مستشفى الارامكو في الظهران ، ثم الى بوسطن للاستشفاء من آلام شديدة في المعدة واختلاطات اخرى .

ولاية فيصل الثالثة

(٧ مارس ١٩٦٢ - ٣ نوفمبر ١٩٦٤)

عاد سعود الى البلاد في ٧ مارس (اذار) مصمما على استعادة صلاحياته من فيصل . لكن الامراء التقليديين عارضوه ومرت فترة من التجاذب الداخلي حسمتها احداث خارجية . فيوم ٢٦ سبتمبر (ايلول) ١٩٦٢ قام الضابط عبد الله السلال بانقلاب عسكري في ا ليمن ضد الامام البدر آل حميد الدين ، واستولى على السلطة بتدبير من القاهرة . وبعد ايام قليلة وصلت قوات مصرية كبيرة الى الحديدة . وهرب فورا ثلاثة طيارين سعوديين مع طياراتهم الى القاهرة ، حيث كان يقيم الامير طلال واخوانه . وكانت القاهرة قد اعلنت بتاريخ ٢٣ يناير ١٩٦٢ انشاء «جبهة تحرير شبه الجزيرة العربية» .

أدرك آل سعود ان الخطر الثوري انتقل الى جوارهم المباشر ، وهو يستهدفهم بالدرجة الأولى . وتطلعوا حولهم فلم يجدوا لهم حليفا الا الاردن . كما كانوا يدركون ان سعودا ليس أهلا لمعالجة هذا الظرف . فضغطوا عليه حتى وافق على اطلاق يد فيصل بتأليف حكومة جديدة .

عودة الحلف التقليدي

شكل فيصل وزارته في ٣١ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٦٢ واخرج منها اولاد الملك سعود والوزراء الذين عرفوا بميولهم الناصرية .

ادخل فيصل في الوزارة اخوته ، خالد نائبا لرئيس الوزراء ، وفهد وزيرا للداخلية ، وسلطان وزيرا للدفاع ، وبقي عمه مساعد بن عبد الرحمن وزيرا للمالية والاقتصاد الوطني ، واحمد زكي يماني وزيرا للبترول والثروة المعدنية ، كما عين اخاه عبد الله قائدا للحرس الوطني .

غادر سعود البلاد في ٦ مارس (اذار) ١٩٦٣ الى سويسرا للمعالجة ، . ثم ذهب ا لى نيس وباريس وفيينا حيث بقي الى الخريف .

البرنامج الاصلاحي لفيصل (٦ نوفمبر ١٩٦٢)

كان فيصل يحضر اجتماعات الامم المتحدة ، لما حصل انقلاب اليمن ، واعتبرت سياسة جون كنيدي الليبرالية ، المؤيدة للتغيير في بلاد العالم ، ان ثورة عبد الناصر واتجاهاته هي موجة المستقبل فأيدتها سياسيا وساندتها ماليا بمبالغ كبيرة .

اجتمع فيصل بكنيدي على اثر انقلاب اليمن وسعى الى استمالة مضيفه الداعي الى التحرر والديمقراطية ، فأعلن أنه ينوي تنفيذ اصلاحات دستورية في بلاده . ولما عاد الى الرياض نشر برنامجاً من عشر نقاط للاصلاح ، وعد فيه بوضع قانون اساسي (وهو تعبير عن الدستور) وتوسيع صلاحيات مجلس الشورى ، وزيادة مشاركة المواطنين بتقرير سياسة الدولة ، ووضع نظام لادارة المناطق ، والغاء الرق .

وصدر مرسوم ملكي لتنظيم الادارة المحلية في المقاطعات في ٣ اكتوبر ١٩٦٣ ، نشر في الجريدة الرسمية يبين صلاحية حكام المناطق ، وطريقة انتخاب المجالس المحلية ، والقصد منه اعطاء الاهالي على المستوى المحلي حق الاشتراك .

عزل سعود وتولية فيصل

خشي آل سعود من تجدد الخلاف ، بين سعود وفيصل ، عند عودة الاول الى الرياض ، فذهب وفد منهم الى فيينا في شهر سبتمبر (ايلول) ١٩٦٣ يطلبون منه عدم التدخل بشؤون الحكم والالتزام بالميزانية في مصاريفه الخاصة ، وأخذوا منه بياناً موقعاً .

لكن سعود ما كاد يستقر في الرياض ، حتى رفض توقيع الميزانية التي قدمها اليه فيصل ، ثم بدأ بشهر نوفمبر جولة على القبائل في مختلف المناطق ، وزع فيها اموالا كثيرة بأمل ان يحصل على تأييد شعبي ، يتغلب بواسطته على المعارضين من اخوته فيستعيد سلطته المطلقة .

واعتبر هؤلاء الحريصون على ظهور العائلة بمظهر التضامن ، ان تصرف سعود يشكل خروجا على تقاليد العائلة ، فأوعزوا الى السلطات في جدة ومكة والمدينة ، بالاقلال من مظاهر الحفاوة حين استقبال الملك . وكان سعود في الطائف ، فعاد غاضبا الى الرياض ، واعتصم في قصره في الناصرية ، محاطا بالحرس الملكي . وبالمقابل وضع فيصل الجيش والحرس الوطني بحالة تأهب .

دام التوتر طوال شهر ديسمبر وخشي الناس من حرب اهلية . ثم ذهب

سعود لتمثيل البلاد في مؤتمر القمة العربي الاول الذي عقد في القاهرة في يناير ١٩٦٤ مظهرا للعالم الخارجي تضامن آل سعود .

لكنه ما كاد يعود حتى ارسل الى فيصل رسالة بتاريخ ١٣ مارس (اذار) ١٩٦٤ يطلب فيها رسميا استعادة جميع صلاحياته الملكية . ولم يستجب فيصل هذه المرة للطلب وبقي يمارس عمله كرئيس للوزراء .

وتوتر الوضع . وبعد محاولات عديدة غير ناجحة للتوفيق ، قرر آل سعود يوم ٢٩ اكتوبر ١٩٦٤ عزل الملك سعود ، وتولية فيصل مكانه . ووافق العلماء على القرار ، وبلغوه لسعود الذي غادر البلاد يوم ٣ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٦٤ الى اثينا .

جرت البيعة لفيصل ملك ، ولخالد وليا للعهد . وقد تجاوز خالد اخاه محمدا الاكبر منه سنا .

بقي سعود ناقما فجرت اتصالات بينه وبين عبد الناصر خلال اقامته في اثينا ، لحاجة الاثنين الى بعضهما البعض . فقد كان سعود يأمل ان يساعده عبد الناصر على استعادة ملكه ويعيد اليه املاكه المصادرة في مصر التي تزيد قيمتها على عشرة ملايين جنيه . في حين كان الرئيس المصري قد يئس من الانتصار في اليمن ، رغم الخمسة والستين الف جندي هناك ، وظن ان عودة سعود الى الملك تسهل وضعه .

وهكذا انتقل سعود وحاشيته من اثينا الى القاهرة ، في ديسمبر (كانون الاول) ١٩٦٦ . وصرح سعود بعد اجتماع مع عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وانور السادات انه لم يتنازل عن العرش ، وان العلماء تصرفوا بطريقة غير شرعية .

وفي مايو قام سعود بعمل غير لائق اذ ارسله عبد الناصر الى صنعاء وهو يكاد لا يبصر ولا يرى . وهناك في ظل آلات التلفزيون ايد الانقلاب الجمهوري واعترف بالسلال رئيسا على اليمن ، فبادله هذا بالاعتراف به ملكا شرعيا على السعودية . ونعت اخاه فيصل بالامبريالية ، ودعا الى قيام ثورة في الجزيرة العربية . واعلن ان عبد الناصر اعز اصدقائه واخلصهم .

لم يتسع الوقت لسعود للاستمرار بتهديم عائلته ، فقد داهمت حرب يونيو (حزيران) ١٩٦٧ العرب وقضت على اوهام كثيرة . واضطر عبد الناصر بعدها الى استرضاء فيصل حتى يتمكن من الانسحاب من اليمن بطريقة تحفظ ماء الوجه فطلب من سعود مغادرة مصر .

وعاد سعود الى الترحال ثم استقر بنهاية ١٩٦٧ في اثينا الى ان توفي في فبراير (شباط) ١٩٦٩ .

لم يعمر عبد الناصر طويلا بعده ، اذ توفي يوم ٢٨ سبتمبر (ايلول) ١٩٧٠ فانتهت بالنسبة للعالم العربي حقبة زمنية مليئة بالتطورات وبدأت حقبة جديدة برجال جدد .

ويمكن اختصار عهد سعود بهذه الجملة لاحد الكتاب الأجانب : «ما من رجل في التاريخ استطاع ان يبذر هذه الاموال في مثل هذا الوقت القصير وبهذه النتائج الضئيلة كسعود» .

السياسة العربية والخارجية
في عهد سعود

من سوء حظ الملك سعود ان عهده تزامن مع عهد الرئيس عبد الناصر (١٩٥٢- ١٩٧٠) والمد القومي الذي مثله والاضطراب الاقليمي والدولي الذي اثاره . ولم يكن سعود ولا البلاد السعودية ، مهيأة فكريا وسياسيا ، واجتماعيا ، للتعامل مع هذا البركان الذي قذف حممه من مصر ، والذي امتدت ناره فشملت المنطقة العربية بكاملها .

لم يكن في السعودية تقليد تتبعه في السياسة الخارجية . فالملك عبد العزيز انهمك بتوحيد البلاد وتثبيت سلطته داخليا ، وحرص على التعامل بأقل قدر ممكن مع الخارج .

وكان على سعود ان يضع اسس سياسة خارجية تصون مصالح عائلته ومصالح البلاد .

ولم يكن سعود كفؤا للقيام بهذا العمل ، فانتهج سياسات متضاربة تقلبت ما بين الانحياز للاشتراكية الناصرية ، ونقيضها ، المتمثل باعتناق «مبدأ ايزنهاور» .

مر سعود ما بين ١٩٥٣ الى حين عزله سنة ١٩٦٤ بمرحلتين : مرحلة التعاون مع الرئيس عبد الناصر والدول الثورية ، ثم مرحلة الانضمام الى مبدأ ايزنهاور والخصومة مع عبد الناصر .

لسنا في وارد تاريخ هذه الحقبة المضطربة الممتدة من ١٩٥٤ الى ١٩٦٧ . وسنكتفي بايراد عناوين الاحداث الخطيرة التي توالت لتذكير القارىء بها ،

وايضاح مواقف السعودية المتأرجحة منها . لكن ما يمكن قوله لوصف هذه الفترة ، ان السياسة السعودية انصرفت خلالها بصورة شبه كاملة ، الى محاولة معالجة الموجة الناصرية ، واتقاء هجماتها الدعائية ، ثم الى درء اخطار وجودها العسكري في اليمن ، بالتحالف معها أولا ، ثم بالاتجاه الى الولايات المتحدة .

المرحلة الأولى

التقارب مع الثوريين

زار الرئيس عبد الناصر مكة في ربيع ١٩٥٤ للحج ، وللحصول على مشاركة سعودية لمشاريعه الهادفة ظاهريا الى توحيد البلاد العربية ضد الاستعمار ، المتمثل في ذلك الوقت ببريطانيا وفرنسا ، وعمليا الى تصدير مبادىء الثورة الاشتراكية بحيث تقوم في البلاد العربية حكومات موالية خاضعة للنفوذ المصري فتتوطد زعامته على البلاد المشرقية .

لم يكن عبد الناصر جاهلا وزن آل سعود في حسابات المنطقة . فقد كانوا يملكون المال . والمال ذو شأن كبير في الصراعات السياسية .

فرح سعود لأن عبد الناصر اتجه اليه ، وليس الى خصومه الهاشميين ، وغفل عن ان الثورة الاشتراكية المصرية بمبادئها المعلنة ، عدو مميت لآل سعود ، ولما يمثلون . وهكذا عقد حلف غريب ، على اساس مبدأ عدم الانحياز ، بين مملكة محافظة ، وبين نظام ثوري انقلابي توسعي .

تدليلا على اخلاصه لمبادىء عدم الانحياز طرد سعود بعثة «النقطة الرابعة» الاميركية . وارسل عبد الناصر عوضا عنها في يناير (كانون الثاني) ١٩٥٥ بعثة عسكرية مصرية من مايتي ضابط لتدريب الجيش السعودي ، ولنشر مبادىء الثورة بين افراده . واتبع ذلك بارسال المئات من المعلمين للمدارس الجديدة التي انشأها سعود ، فعملوا بين الطلاب ما كانت البعثة العسكرية تعمله بين الضباط . وجاءت بعثة مصرية اخرى لتنظيم الادارة ، فعقدتها بشكل لم تتخلص منه البلاد الى الآن .

اثمر عمل هذه البعثات ، فاكتشفت مؤامرة بين ضباط الجيش في الطائف ، في صيف ١٩٥٥ اتهم بتدبيرها الملحق العسكري المصري في جدة .

رغم ذلـك استمرت الاموال السعودية تمول الدعاية المصرية واعمال التهديم في البلاد العربية ، فقامت مظاهرات واضرابات في عدن والاردن والعراق ولبنان .

وحفلت سنـة ١٩٥٥ باحـداث مهمـة اخـرى . فقد فشلت المفاوضات بين السعـوديـة وبـريطـانيا ، حول واحة البريمي . فمول سعود ثورة الامام غالب واخيـه طالب ، ضد سلطـان عمان لازعـاج الانكليـز . وفشلت الثـورة وقضي عليها عام ١٩٥٩ .

وقاوم عبد الناصر وسعود حلف بغداد الذي اقامته بريطانيا بالتعاون مع تركيا والعراق لصد توسع سوفياتي محتمل .

واشـترى عبـد ا لناصر سلاحا سوفياتيا من تشيكوسلوفاكيا ، احاطه بدعاية كبيرة سنة ١٩٥٥ ، موله سعود جزئيا من مدفوعات شركة الارامكو الاميركية ، فكـانت المفـارقة طريفة : شركة اميركية تمول مشتري اسلحة سوفياتية لمصلحة بلد معـادي لسيـاسـة الولايات المتحدة . وبدأسعود نفسه يتقرب من موسكو ، فارسـل امـيرين الى براغ في ديسمـبر ١٩٥٥ ، للتفـاوض حول صفقـة سلاح للسعودية مماثلة للصفقة المصرية . واستقبل وفدا صينيا شيوعيا في الرياض .

في السنـــة ذاتهـا (١٩٥٥) ارسـل عبـد النـاصـر فدائيـين الى غزة يهاجمـون المستـوطنـات الاسـرائيليـة القـريبة ، وضخمت الدعاية اعمالهم ، فأوحى الى العرب ان القضاء على اسرائيل بات قريبا .

وعقـد مؤتمـر بانـدونـغ لدول عدم الانحيـاز في ربيع ١٩٥٥ فشارك فيه عبد الناصر نداً لتيتو ونهرو وسوكارنو وشو آن لاي فتعززت مكانته الدولية .

وفي صيف ١٩٥٥ انضمت سوريـا بزعـامـة شكـري القـوتـلي الى المحـور المصـري ـ السعـودي فصـار حلفا ثلاثيا وزادت الاعباء المالية على السعودية ، كممول للمشاريع الناصرية .

وفي السنـة التـالية (١٩٥٦) دخل عبد الناصر وسعود والامام احمد في حلف دفاعي يستهدف الانكليز في عدن . وبواسطة هذه العلاقة الجديدة مع اليمن ، استمال عبـد النـاصـر ولي العهـد الامام بدر الذي تشرب المبادىء الناصرية ، وسـافـر تحت هذا التأثير الى روسيا والصين سنة ١٩٥٨ واشترى اسلحة بمبلغ ثلاثة ملايين دولار مولتها السعودية .

وبما ان السـلاح الجـديـد يحتـاج الى مدربـين فقـد ارسل عبد الناصر بعثة عسكـريـة الى اليمن ، وفتـح ابـواب الكليـة العسكـريـة المصـريـة للضبـاط

اليمنيين ، حيث تلقوا التدريب العسكري الى جانب المبادىء الاشتراكية الثورية واصبحوا مهيئين للقيام بالانقلاب .

في ربيع ١٩٥٦ اضرب عمال الارامكو بدوافع سياسية وتظاهروا ضد النظام السعودي بقيادة ناصر السعيد الذي غادر البلاد بعدئذ واسس «الاتحاد الشعبي للجزيرة العربية» . ونكلت الحكومة بالمضربين ، فاعتقلت مائتين ، ومات ثلاثة تحت الضرب المبرح . واصدر سعود قرارا منع فيه الاضراب وأخضع المضربين للعقوبة . وجاء هذا الاضراب فوق المؤامرة المكتشفة في الطائف يثير هواجس العائلة المالكة خصوصا وان الدعاية الناصرية كانت تهاجم من وقت الى آخر تصرفاتها الشخصية ، وتؤكد ان البترول ملك للعرب وليس ملكا خاصا لآل سعود .

زار سعود القاهرة في ربيع ١٩٥٦ واستمع الى مشروع اعده عبد الناصر لاقامة اتحاد بين مصر وسوريا والسعودية ويصبح القوة المسيطرة في المشرق العربي . ورأى سعود أن تأييد الاتحاد المقترح ، من دون الانضمام اليه ، افضل لمصالح آل سعود فوافق عليه وعلى تمويله .

بعد بضعة اشهر من الزيارة اعلن عبد الناصر تأميم قناة السويس في يوليو ١٩٥٦ ، من دون ان يستشير حليفه سعود اويطلعه على ذلك مسبقاً ، رغم ان هذا العمل يمس بالمصالح السعودية في الصميم لان اربعين بالماية من شحنات البترول ، وخمسة وسبعين بالماية من البضائع المستوردة الى السعودية تمر بالقنال . ومن شأن التأميم ان يزيد من احتمالات الحرب مع الغرب ويهدد باغلاق القنال ، لأنه موجه مباشرة ضد مصالح بريطانيا وفرنسا . وبالفعل هاجمت الدولتان مصر في اكتوبر لاستعادة السيطرة على القنال . وشاركت اسرائيل بالهجوم فاحتلت جزءا كبيرا من سيناء وشرم الشيخ المشرف على مضيق تيران . لكن هجوم بريطانيا وفرنسا فشل بسبب الضغط الاميركي والتهديد السوفياتي ، فانسحب الانكليز والفرنسيون في ٢٢ ديسمبر ١٩٥٦ وانسحب الاسرائيليون في مارس تحت ضغط شديد من الرئيس ايزنهاور . واهتز العالم العربي فرحا واعتزازا بالتأميم ، ووصلت شعبية الرئيس عبد الناصر الى الأوج . لكن قنال السويس بقيت معطلة لمدة طويلة .

زيارة عبد الناصر

في هذا الجو الحماسي زار الرئيس عبد الناصر الدمام ثم الرياض بشهر

سبتمبر ١٩٥٦ لاقناع سعود بأن الوقت حان لاستعمال البترول كسلاح ضد الغرب ، كما طلب مساعدات مالية اكبر لتعزيز الجيش المصري ومشترى اسلحة سوفياتية . وفي الوقت نفسه تابعت الدعاية الناصرية حملتها على فساد آل سعود .

خرجت الجماهير السعودية تستقبل عبد الناصر بحماس لم تشهد له البلاد مثيلاً ، واكتشف السعوديون بعد الزيارة انه اصبحت لعبد الناصر قوة ذاتية شعبية لا تعتمد على المال . وادركوا ان الصحف والراديو ووسائل الاعلام الناصرية الاخرى التي مولوها ، اصبحت أشد أثرا في تشكيل رأي عام عربي وفي اثارة حماس الجماهير من أي عامل آخر ، وانها استعملت ضدهم .

ودلت المظاهرات الشعبية على معاني أشد خطورة . فعبد الناصر يقود تياراً عربياً قومياً اشتراكياً ثورياً يعادي الانظمة الملكية ويعمل على تقويضها . ولم تخف الدعاية الناصرية ، انها تعتبر نظام السعودية في مصاف هذه الأنظمة . كما أنها اعتبرت البترول ثروة قومية ، يجب ان تصرف لمصلحة الامة العربية ، كيفما يرتأى الزعيم او النظام الاكثر تمثيلا للمصلحة القومية . أي النظام المصري .

والاكثر دلالة على ذلك ان الدعوة الناصرية كادت تكون علمانية لا دينية . وقد اضطهد عبد الناصر حركة الاخوان المسلمين وسجن زعماءها واعدم مفكرّها ، الشيخ سيد قطب . والاخوان المسلمون سلفيون قريبون من الوهابية من حيث الدعوة للرجوع الى اصول الدين .

لكن جميع هذه الاعتبارات المناقضة ، للنظام السعودي وللمذهب الوهابي ، لم تمنع المواطنين من اظهار عواطف الحب لعبد الناصر .

شمل الحماس لعبد الناصر سكان الاردن ، فاضطر الملك حسين الى الاستغناء عن خدمات غلوب باشا ، قائد الجيش الاردني في مارس (اذار) ١٩٥٦ ، وعين سليمان النابلسي ، وهو فلسطيني ناصري ، رئيساً للوزراء . وفي صيف ١٩٥٧ الغى الاتفاقية البريطانية ـ الأردنية التي كانت تشكل نوعاً من الحماية لنظامه ، تحت ضغط مصر وسوريا والشعب الاردني لقاء تعهد بالتعويض عن المنحة السنوية الانكليزية ، فأصبح سعود يمول اعداءه الهاشميين .

خلال تلك السنة جاء خالد العظم رئيسا للوزراء في دمشق ، وكان يسمى «المليونير الاحمر» بسبب ميله الى السوفيات ، وهاجم الملكين سعودا وحسين لأنه اعتبرهما عملاء للاميركان . فسحبت السعودية سفيرها من دمشق بشهر

مايو (ايار) ١٩٥٦ . وفي اغسطس (اب) وقع خالد العظم اتفاقا اقتصاديا وفنيا مع السوفيات ، بمباركة عبد الناصر ، فاصبح عضوان في الحلف الثلاثي ، هما مصر وسوريا ، يدوران في الفلك السوفياتي بينما لا يدري الحليف الثالث السعودي في اي فلك يدور .

قطع السوريون خط انابيب البترول العائد لشركة بترول العراق الانكليزية والممتد من كركوك الى طرابلس انتقاما من بريطانيا لغزوها السويس ، واضرارا بالعراق الهاشمي . ونسف ناصريون معامل الاسلحة الفرنسية في الخرج (السعودي) انتقاما من فرنسا . وقطع سعود العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا وفرنسا واوقف شحن البترول السعودي اليهما ، فنقص ايراده من البترول اربعين بالمائة في الوقت الذي كان يرزح تحت ديون ثقيلة . ووافق على تزويد مصر بالبترول بالعملة المصرية اي بثلث قيمته الحقيقية .

بعد الهزيمة الانكليزية - الفرنسية التي نسب فيها الفضل الى موسكو ، اتفق عبد الناصر والسوفيات سنة ١٩٥٧ على بناء سد أسوان وزيادة التعاون العسكري ، فتدفق الخبراء والاسلحة السوفياتية على مصر وسوريا . وبشر البلدان العالم العربي باستعادة فلسطين والقضاء على اسرائيل .

في فبراير ١٩٥٨ حقق عبد الناصر حلمه ووعده للعرب فقامت الوحدة المصرية - السورية ، ودعا الدول العربية الى الانضمام اليها ، فلم يستجب الا الامام احمد حميد الدين ، فكانت نكسة للقوميين العرب .

وفي السنة نفسها قام الاتحاد العراقي - الاردني مقابل الوحدة المصرية - السورية لمقاومة المد الاشتراكي الثوري ، فلم يفلح وانهار العرش العراقي في ١٤ يوليو ١٩٥٨ على يد الانقلابيين الثوريين .

وحققت الوحدة المصرية - السورية نصراً آخر في لبنان في تلك السنة عندما اثارت معارضة مسلحة لرئيس الجمهورية كميل شمعون موجهة ضد قبوله بمبدأ ايزنهاور اتخذت طابع المطالبة بحقوق سياسية للمسلمين . وانتهت بتنصيب مرشح عبد الناصر رئيسا للجمهورية وهو الجنرال فؤاد شهاب قائد الجيش . وتم ذلك بمباركة الولايات المتحدة .

لكن الوحدة المصرية - السورية انهارت بدورها بعد ثلاث سنوات في ١٨ سبتمبر (ايلول) ١٩٦١ بانقلاب عسكري سببه سوء تصرف الحكم تجاه السوريين . واعترفت الرياض بالانقلاب الدمشقي فثارت عليها القاهرة .

لا شك ان الناصرية ، وما تمثله ، عاشت أبهى أيامها ما بين تأميم قنال

السويس سنة ١٩٥٦ وانهيار الوحدة مع سوريا . فقد تغلغلت في نفوس الشباب والكهول عدا قلة منهم . وحققت جزئيا الامل القومي بالوحدة .

المرحلة الثانية

الخصومة مع عبد الناصر ـ مبدأ ايزنهاور

فجأة ومن دون مقدمات ، انقلب سعود من مؤيد وممول للاشتراكية الثورية ، الى عدولها ، فتخلى عن «الحياد الايجابي» والتحق بالسياسة الاميركية . وساعد على ذلك ان الرئيس دوايت ايزنهاور الجمهوري اجبر اسرائيل في شتاء ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ على الانسحاب من غزة وشرم الشيخ فارتفعت مكانة الولايات المتحدة عند العرب .

في ٣٠ يناير ١٩٥٧ زار سعود واشنطن واستقبله ايزنهاور بحفاوة ، وان كان عمدة نيويورك رفض استقباله وهاجمه لأنه يمنع المسيحيين في السعودية من اقامة الصلاة حتى في بيوتهم ، ولأنه يمنع بعثة التدريب العسكري الاميركية من استخدام اليهود الاميركان . وكان العمدة يتقرب بذلك الى الناخبين اليهود .

وكان الرئيس ايزنهاور قد اعلن مبدأه الشهير يوم ٥ يناير (كانون الثاني) ١٩٥٧ في رسالة بعث بها الى الكونغرس تتضمن «تعهدا اميركيا رسميا بتقديم دعم عسكري ومالي لأية دولة في الشرق الأوسط ، تطلب هذا العون ضد اعتداء مكشوف من أية دولة أخرى تخضع للسيطرة الشيوعية» .

وكتب ايزنهار في مذكراته[1] «في سبيل (ايقاف امتداد النفوذ الناصري) اردنا استكشاف احتمالات تعزيز مقام الملك سعود كوزن مقابل لعبد الناصر . وكان اختيارنا للملك لهذا الدور عملا منطقيا ، فقد كان على الاقل يعلن انه ضد الشيوعية ويتمتع على الصعيد الديني بمقام رفيع في سائر الدول العربية» .

في اجتماع سعود بايزنهاور تعهدت اميركا بتقوية الجيش السعودي وبيعه السلاح الذي يستطيع استيعابه وتوسيع مرفأ الدمام . وحصل سعود على زيادة في المعونة الاميركية الاقتصادية والعسكرية بلغت ١٨٠ مليون دولار .

في واشنطن اجتمع سعود بالامير عبد الاله (العراق) وشارل مالك وزير خارجية لبنان في عهد الرئيس كميل شمعون ووضعوا أسس التعاون بينهم .

وفي ربيع ١٩٥٧ زار سعود بغداد ، فكانت أول زيارة رسمية قام بها عاهل

سعودي للهاشميين . وألف العراق والاردن والسعودية ولبنان جبهة مقابلة لمصر وسوريا .

لكن البلدين الثوريين لم يستكينا امام الهجوم الدبلوماسي الاميركي ، فاثارا اضطرابات ومظاهرات في الظهران والرياض في ابريل (نيسان) ١٩٥٧ اخمدتها السلطات وطردت بسببها اعدادا كبيرة من المصريين والفلسطينيين .

في الاردن عزل الملك حسين حكومة سليمان النابلسي ، بتأييد اميركي وسعودي في ربيع ١٩٥٧ . وتحولت الاموال السعودية من تمويل الجبهة الناصرية الى تمويل الحركات المعادية لها .

سقط مبدأ ايزنهاور غير مأسوف عليه بالثورة على حكم الرئيس شمعون في لبنان ، وباغتيال العائلة المالكة العراقية .

حرب اليمن

انتقلت المبادرة بعد فشل مبدأ ايزنهاور الى عبد الناصر ، فقام باجرأ عملياته لمد نفوذه والسيطرة على الثروة البترولية عن طريق اليمن . ونجحت سياسة النفس الطويل التي اتبعها منذ اتفاق ١٩٥٦ ، ودرب بموجبه اعدادا كبيرة من الضباط اليمنيين في مصر .

يوم ٢٦ سبتمبر (ايلول) ١٩٦٢ قام احد هؤلاء الضباط عبد الله السلال بانقلاب ضد الامام البدر فاستولى على السلطة واعلن حكماً جمهورياً في البلاد . وبعد اربعة ايام وصلت قوات مصرية محمولة جواً لتعزيز الانقلاب يرافقها سياسيون يمنيون يعيشون في القاهرة موالون للنظام المصري ، منهم عبد الرحمن البيضاني ومحمد محمود الزبيري ومحسن العيني . وفي ١٦ اكتوبر وصلت قوات مصرية كبيرة منقولة بحرا . واستمر ارسال القوات الجوية والبرية المصرية حتى بلغ عددها ستين الف جندي سنة ١٩٦٦ .

في تلك الفترة (١٩٦٢) انتخب جون كنيدي رئيساً للولايات المتحدة . وجاء بنظرية تحررية سطحية على عادة السياسة الاميركية التي تريد تبديل العالم على صورتها . وبموجب هذه النظرية سعت الادارة الاميركية الى الابتعاد عن الانظمة «التقليدية» ، والى انشاء أفضل العلاقات مع الانظمة التحررية الموالية لموسكو كمصر وسوريا ، متغاضية عن الارهاب الذي يمارسه النظام الناصري ضد مواطنيه ، والاضطراب الذي ينشره في العالم العربي . وأصبح

النظام الناصري في عهد كنيدي اكبر منتفع من المساعدات المالية الاميركية بين جميع دول العالم العربي .

سارع الرئيس كنيدي للاعتراف بنظام السلام رغم معارضة فيصل الذي اجتمع به في واشنطن يوم ١٦ اكتوبر ، بينما رفضت بريطانيا ذلك ، وكانت اكثر فهما للخطر الذي يمثله الوجود المصري في ا ليمن على استراتيجية الغرب في البحر الاحمر والبحر الهندي وفي الجزيرة العربية .

دعت سياسة كنيدي السعودية الى الاعتراف بالنظام الجمهوري وايقاف المساعدة للملكيين ، مقابل انسحاب القوات المصرية من اليمن . وقد دامت هذه السياسة عدة سنوات وفشلت كبقية السياسات الاميركية الطائشة .

تحاشى فيصل اثارة عبد الناصر طيلة حرب اليمن ، والتزم موقفا لم يحد عنه ، يتمثل بتأييد حق اليمنيين باختيار نظام الحكم الذي يريدون من دون تدخل اجنبي .

لكن ذلك لم يحل دون مد القبائل المقاومة للغزو المصري بالاموال والاسلحة بقدر يسمح لها بالقتال . وتولى الامر اليمني مباشرة الامير سلطان وزير الدفاع وكمال ادهم المسؤول عن المخابرات .

عندما تولى فيصل الملك في ٢ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٦٤ كان الوضع اجمالا مؤاتيا . فقد امكن احتواء القوات ا لمصرية ومنعها من تحقيق انتصار عسكري في اليمن ، واغتيل الرئيس جون كنيدي فتبدلت سياسة استرضاء عبد الناصر الذي اصبح يسعى للتخلص من المأزق الذي وقع فيه .

زار عبد الناصر جدة في ٢٤ اغسطس (اب) ١٩٦٥ لايجاد صيغة يتخلص بها من مغامرة اليمن وتحفظ له ماء وجهه ، في حين كان فيصل يخشى من هجوم مصري على الاراضي السعودية يطوق معاقل اليمنيين الجبلية ويقطع الامدادات عنهم ، ولم يلق عبد الناصر في زيارته هذه الحفاوة التي لقيها في زيارته الاولى عام ١٩٥٤ .

وتوصل الفريقان الى اتفاقية جدة التي تعهد فيها عبد ا لناصر بسحب قواته بمدة اقصاها نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٦٦ ، وتعهد فيصل بايقاف المساعدة للملكيين .

اليمن الجنوبي

بعد اتفاقية جدة بستة أشهر أي في فبراير (شباط) ١٩٦٦ أعلنت الحكومة العمالية البريطانية انها ستنسحب من قاعدة عدن قبل عام ١٩٦٨ . ووجد عبد

الناصر في ذلك فرصة لمد نفوذه على نقطة استراتيجية ذات اهمية عالمية تتحكم بمنفذ البحر الاحمر وبالبحر الهندي ، فأعلن أنه سيبقى في اليمن ، خلافا لأي اتفاق سابق ، لمساعدة الثوار في عدن فسقطت بذلك اتفاقية جدة .

وقام صراع في عدن بين الاحزاب الماركسية وبين الحكومة الاتحادية المؤلفة من زعماء المقاطعات الذين كانوا ينتظرون من السعودية دعما سياسيا واضحا ، ومساعدات مالية سخية لم يحصلوا عليها .

انهت حكومة العمال الانسحاب من عدن بتاريخ ٢٩ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٦٧ وسلمت البلاد للحزب اليساري الاكثر تطرفاً . ولم يفهم هل فعلت ذلك تنفيذا لمبادئها الاشتراكية ، وقد كان حزب العمال في الحكم ، أم لخلق مشاكل مقبلة للسعودية وللولايات المتحدة رداً على ما فعلته هذه بها اثناء حرب السويس .

نهاية المد الثوري العربي

جاءت نهاية مشاكل اليمن على يد اسرائيل . فبعد ان اغلق عبد الناصر مضيق تيران بوجه الملاحة الاسرائيلية ، وطرد القوات الدولية التي كانت تفصل بينه وبين اسرائيل في سيناء ، واستعرض جيشه الذاهب الى الجبهة في شوارع القاهرة ، اعتبرت اسرائيل هذه الاعمال العدائية سبباً كافياً للحرب فشنت هجومها صباح ٦ اكتوبر ١٩٦٧ وحققت انتصاراً كاملاً بظرف ستة ايام . فخسرت مصر سيناء وغزة ، وخسر الاردن القدس الشرقية والضفة الغربية ، وخسرت سوريا الجولان وخسر عبد الناصر وهجه وزعامته العربية .

انعقد مؤتمر القمة العربية في الخرطوم في أواخر اغسطس (آب) ١٩٦٧ لبحث الهزيمة ، فأصدر الرؤساء العرب اللاءات الثلاث الشهيرة : لا اعتراف ، ولا مفاوضة ، لا صلح مع اسرائيل ، وظنوا ان الرفض يمحي واقع الهزيمة . وقرروا مساعدة مصر وسوريا والاردن لاستعادة قوتها العسكرية وخصصوا للدول الثلاث ١٤٠ مليون جنيه سنويا .

اجتمع فيصل وعبد الناصر على هامش المؤتمر ، فتعهد عبد الناصر ، من دون استشارة حليفه السلال ، بسحب جيوشه من اليمن قبل نهاية السنة ، وتعهد فيصل بانهاء المساعدة للملكيين ، وعاد فيصل منتصرا بعد خمس سنين من المقاومة الهادئة الصامتة ، وكانت العوامل الفاصلة في انتصاره تهور عبد الناصر وحرب الايام الستة ،

وسجل مؤتمر الخرطوم انكفاء المد الثوري العربي ونهاية الحقبة الناصرية في تاريخ المنطقة .

مراجع الفصل التاسع

١ـ Eisenhower, Dwight, The White House Years Vol. II Waging Peace, pp. 115, 116



عهد الملك فيصل (١٩٦٤-١٩٧٥)

تولى فيصل الملك ولم يكن دخيلا على الحكم ، فقد مارس المسؤولية العليا في ثلاث فترات ما بين ١٩٥٨ و١٩٦٤ ، كما مر معنا . كما ان وزارة الخارجية كانت في عهدته منذ سنة ١٩٣٠ .

تحلى فيصل بالجد والدأب على العمل ، والابتعاد عن المآخذ المحرمة ، ففرض هيبته على من حوله ، وحدّ من استهتارهم العلني ، واعاد لآل سعود الاحترام في الاوساط العربية والدولية .

وكان فيصل من السعوديين النافذين القلائل ، الذين عرفوا العالم الغربي ، في بعض وجوهه الحضارية ، فقد كان ممثلا لوالده في المؤتمرات الدولية . وكان في اغلب السنين يرأس وفد بلاده الى اجتماعات الامم المتحدة في نيويورك ، حيث يتصل بزعماء العالم ، ويطلع على مواقفهم ، ويتباحث معهم ، وقد اخبرني ممثل سوريا ، في مجلس الامن ، العلامة فارس الخوري ، ان فيصل كان يترأس اجتماعات الوفود العربية في نيويورك ، لا لكونه اميرا ، بل لحنكته وحكمته .

ويعود الى فيصل الفضل ، بدفع المملكة نحو الحياة العصرية . فقد نشر اللاسلكي والراديو والتلفزيون متغلبا باللين والاقناع على معارضة العلماء .

ونشر فيصل مدارس البنات في وجه مقاومة شديدة ، وسار بخطوات ثابتة وبطيئة باتجاه الاصلاح الاجتماعي . فأصدر عام ١٩٦٩ قانون عمل متطورا يحفظ حقوق العمال ، وان كان لا يعترف لهم بحق الاضراب ، وانشأ ما بين ١٩٧٠ الى حين وفاته الهيئة العامة للضمان الاجتماعي ، ومركز الدراسات والانماء الصناعي ، ومؤسسة الحبوب والمطاحن ، ووضع اول خطة انمائية

خمسية (١٩٧٠ ـ ١٩٧٥) ، ووسع مشاريع الطرقات ، وانشأ محطات تحلية المياه وتوليد الكهرباء ، وأقام عدة مؤسسات مالية لتنشيط القطاع الخاص في مجالات الصناعة والبناء والتعهدات والتجارة ، وثبّت اسعار المواد الغذائية الاساسية ، وتحملت الدولة فروق الاسعار ، وانشأ مؤسسات حكومية كثيرة لمساعدة الطبقات المحتاجة وتيسير المنازل والمعيشة لها .

السياسة الخارجية

ركز فيصل ايضا اسس السياسة الخارجية على خط واضح ، فلم يتقلب بين موالاة الانظمة الثورية ثم معاداتها كما فعل سلفه . واقتنع ان هذه الانظمة لا تجلب الخير للبلاد فقاومها بصمت وعناد وردّها عن بلاده حتى اتضح هزالها بحرب ١٩٦٧ . ولم يقبل فيصل بالهزيمة العربية فعمل مع الرئيسين انور السادات وحافظ الاسد على التهيئة لحرب ١٩٧٣ وامد البلدين بما احتاجاه من اموال فكانت حرب ١٩٧٣ اقرب ما وصل اليه العرب من امكانية الانتصار على اسرائيل .

وكان لهذه الحرب نتيجة اقتصادية غير متوقعة . فقد ارتفع سعر البترول اضعافا بسبب المقاطعة العربية لبعض الدول الغربية ، وتهافت الدول الصناعية عليه فدخلت السعودية في عصر رخاء ووفرة اموال لا مثيل لها ، استمرت الى عام ١٩٨٢ . مما مكنها من التوسع بمشاريع الاعمال والانماء ، في الخطة الاقتصادية الثانية (١٩٧٥ ـ ١٩٨٠) والخطة الثالثة (١٩٨٠ ـ ١٩٨٥) حتى عام ١٩٨٢ حين بدأت ايرادات البترول بالتناقص .

في هذه الظروف الاقتصادية المواتية تعززت مكانة المملكة السعودية الدولية ، فتهافت زعماء العالم على زيارتها لتأمين حاجتهم من البترول ، وسعياً وراء حصول بلادهم على حصة من مشاريع الاعمار والانماء القائمة على قدم وساق في مختلف ارجاء المملكة وفي جميع الميادين ، فصار رأي الحكومة السعودية يحظى بالاهتمام في المحافل الدولية .

في السياسة الخارجية استعان فيصل بالدين لدعم قضيته ، في حين استدعى عبد الناصر القوى الثورية لاسقاط آل سعود .

يسجل لفيصل احتواءه للخطر الثوري الاشتراكي وتغلبه عليه . ومساندته للرئيس السادات في التحضير سراً لحرب تشرين ١٩٧٣ ثم استعماله للبترول كسلاح يضغط به على الدول الغربية لمساندة القضايا العربية .

التضامن الاسلامي

فيصل هو الداعية الاول للتضامن الاسلامي ، والداعم لمؤسساته ، ليس فقط كوسيلة سياسية لاحتواء المد القومي العربي ومقاومته بعقيدة أخرى ، بل لأنه كان مسلماً متديناً يؤمن بما يدعو اليه . وقد كرست دعوته التعاون مع كل المسلمين . من سنة وشيعة على اختلاف مذاهبهم .

وكان احراق المسجد الاقصى في اغسطس ١٩٦٩ المناسبة لعقد اول قمة اسلامية في الرباط لبحث مستقبل القدس . وقاطعت سوريا والعراق الاجتماع . وتبع ذلك اجتماع وزراء الخارجية المسلمين في جدة بشهر مارس (اذار) ١٩٧٠ ، حيث قرروا تأسيس سكرتارية عامة لمنظمة المؤتمر الاسلامي مقرها جدة . وتعين تنكو عبد الرحمن اول سكرتير للمنظمة ، خلال اجتماع كراتشي في ديسمبر من السنة نفسها . وبعد سنتين انعقد مؤتمر وزراء الخارجية الثالث في جدة وتمثلت فيه تسع وعشرون دولة وافقت على مشروع الميثاق الاسلامي وقررت تأسيس وكالة انباء اسلامية . وعقدت قمة اسلامية في لاهور سنة ١٩٧٤ ضمت اربعا وثلاثين دولة ، قررت انشاء بنك اسلامي للتنمية . وتلا ذلك اجتماع وزراء خارجية ثماني وثلاثين دولة ، في كوالا لامبور .

بالاضافة الى المؤتمرات زار فيصل دولا اسلامية عديدة في آسيا وافريقيا ، سبقتها مساعدات مالية سخية ، حملت هذه الدول على قطع علاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل .

الى جانب هذه المنجزات ، كان فيصل مثال الحاكم الذي يتولى السلطة والمسؤولية الكاملة ، في وضع سياسة الدولة الداخلية والخارجية وتنفيذها ، لا يشارك بسلطته احد . وفي عهده لم يكن هناك أدنى شك لدى جميع الفرقاء من مواطنين ودول عربية واجنبية في من يتولى قيادة البلاد وفي أي اتجاه تسير .

واعاد فيصل الى الامامة هيبتها وحرمتها ، بتصرفه الشخصي ومسلكه العام ، وقد قال في مناسبة لمؤلف هذا الكتاب : انه يعتبر نفسه اماما قبل ان يكون ملكا . وقد اعطى الامامة حقها من التقوى والمهابة .

من الاحداث الخارجية التي دقت ناقوس الخطر ، سقوط الملك ادريس السنوسي ، وتولي العقيد معمر القذافي الحكم في ليبيا في اول سبتمبر (ايلول) ١٩٦٩ ، وانتهاجه سياسة متطرفة معادية للنظام السعودي ، فلم يبق للسعودية اصدقاء في البلاد العربية الا المغرب وتونس والاردن .

انتهزت اليمن الجنوبية فرصة الارتباك الداخلي في السعودية بسبب المؤامرات المكتشفة ، فهاجمت مركز الحدود السعودي في الوديعة واحتلته ، في

٢٦ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٦٩ وغايتها زيادة اقلاق الحكم وزعزعته . لكن القوات السعودية استعادت المركز بعد فترة قصيرة بمساعدة الطيران .

وقرر مؤتمر القمة العربية في الرباط (٢٣ ديسمبر) قبول منظمة التحرير الفلسطينية ، كعضو كامل في المؤتمرات العربية ، فأصبحت عنصراً سياسياً رئيسياً في المنطقة . وتحرشت سوريا البعثية بالسعودية فقطعت خط التابلاين الذي ينقل البترول من رأس تنورة الى الزهراني على شاطيء لبنان في مايو (ايار) ١٩٧٠ ورفضت تصليحه ، فأضرت السعودية بمايتي الف دولار يوميا . لكن البترول عاد الى التدفق سنة ١٩٧١ بعدما استولى الفريق حافظ الاسد على السلطة في دمشق وسمح باصلاح الانابيب .

وتمادت بعض المنظمات الفلسطينية باعمال الارهاب ، اذ استولت على اربع طيارات مدنية احضرتها الى مطار ناءٍ في الاردن ، ثم نسفتها يوم ١٢ سبتمبر (ايلول) ١٩٧٠ فحمل ذلك الملك حسين على تصفية الوجود الفلسطيني المسلح في الاردن ، بعد معارك شديدة بين الجانبين . واجتمع مؤتمر قمة عربي لبحث وضع الفلسطينيين في ٢٨ سبتمبر (ايلول) ١٩٧٠ سادته خلافات حادة ، ومناقشات عقيمة ، خصوصاً مع العقيد القذافي ، حملت الملك فيصل على القول في اجتماع مغلق لرؤساء الوفود : بما أننا جميعا نبدو مجانين ، فقد يكون من المناسب استدعاء طبيب نفساني .

توفي الرئيس عبد الناصر يوم اختتام المؤتمر ٢٨ سبتمبر (ايلول) ١٩٧٠ فانقضت بذلك حقبة مهمة من التاريخ العربي المعاصر طبعها بطابعه .

ولعل هذه المصاعب الداخلية والخارجية ازالت من نفس فيصل اية رغبة بتوسيع قاعدة الحكم ومشاركة المواطنين به .

من ناحية اخرى ، فان المطالبين بالاصلاح الدستوري سواء كانوا من الامراء او من الشعب ، لم يخفوا ميولهم ، لسياسة الرئيس عبد الناصر الاقتصادية والمالية والخارجية ، واعتزامهم تطبيقها في بلادهم ، واغمضوا اعينهم عن مساوىء الضغط والارهاب الذي مارسته دولة المخابرات وعن تدهور مصر الاقتصادي .

وكانت فلسفة الملك فيصل الاجتماعية والسياسية على طرف نقيض مع النظرية الناصرية ، فكان من الطبيعي ان لا يثق الملك فيصل بالسعوديين الذين يريدون تطبيق تلك النظرية في بلادهم .

من مآثر فيصل انه كان مقدرا لامكانات بلده ، عارفا بمواطن الضعف الدائمة فيها ، من قلة السكان وتخلفهم ، واتساع المساحة والضعف

العسكري ، وصعوبة الدفاع عن البلاد ، والعزلة الجغرافية ، وشح الموارد والثروات الطبيعية عدا البترول ، والمال النفطي السهل الكثير الذي يغري الطامعين .

لذلك لم يتنطح فيصل لزعامة عربية ، لا تملك بلاده مؤهلاتها ، فمارس دورا معتدلا مهدئا .

كان صادقاً مع نفسه ومع غيره . ومن سوء حظ السعودية ، أنه اغتيل ، وأمامه الكثير مما يجب انجازه داخلياً للتخلص من حالة التخلف . ففي صباح ٢٥ مارس (اذار) دخل عليه في غرفة الاستقبال ابن اخيه فيصل بن مساعد مندسا مع وفد كويتي . ولما اقترب للسلام على عمه اطلق عليه ثلاث رصاصات اصابته احداها في حلقه وكانت القاضية .

وجرى تحقيق طويل مع القاتل ثم اعدم . وبموت فيصل بن عبد العزيز انتهت حقبة مهمة من التاريخ السعودي ، تميزت بالانضباط الاخلاقي ووضوح الهدف .

وخلاصة القول ، ان الملك فيصل ، ببعد نظره واتساع افقه ، نقل الدولة السعودية من حالة بدائية الى بداية دولة مدنية . لكنه لم ينشىء لهذه الدولة مؤسسات سياسية ذات ديمومة . ولعل الموت فاجأه قبل ان يتم عمله .

خلف الملك خالد اخاه الملك فيصل ، وحكم من ٢٥ مارس ١٩٧٥ الى حين وفاته بنوبة قلبية يوم ١٣ يونيو ١٩٨٢ وتولى الحكم بعده ولي العهد الأمير فهد .

لم نفرد للملك خالد فصلا خاصا لأنه اختار ان يترك اكثر امور الحكم خلال ولايته ، لولي عهده الامير فهد ، بحيث اندمجت ولاية الملك خالد عمليا مع ولاية الملك فهد .

١١

المجتمع السعودي ونظام الحكم

يجدر بنا قبل ان ندخل في تفاصيل اسلوب الحكم في العهد الحالي ، ان نطلع على طبيعة المجتمع السعودي في المرحلة التي وصلها ، بعد تطور دام نحو ثلاثين عاماً ، منذ وفاة الملك عبد العزيز ، سار فيها هذا المجتمع بتطور بطيء الى حالة شبه مدنية .

الارض والسكان

تمتد المملكة السعودية على مساحات شاسعة تبلغ مليونين وثلاثمائة الف كيلومتر مربع ، أي ما يزيد على مساحة مجموع دول اوروبا الغربية ، او اربعة اضعاف مساحة فرنسا ، لكن سكانها لا يزيدون على عشرة ملايين ونصف ، في حين يزيد عدد سكان أوروبا الغربية على ثلاثماية مليون ، والسعودية بلاد قاحلة يقل معدل سقوط الامطار فيها عنماية ميلمتر سنويا عدا منطقة عسير . وهذه الامطار لا تكفي لنمو المزروعات . وتغطي مساحات كبيرة من البلاد ، صحاري شاسعة منها ، الربع الخالي ، الذي في مجمله مجهولا ، وصحراء النفود المتصلة ببادية الشام وصحراء الدهناء .

شكلت هذه الصحاري مع الاراضي القاحلة حواجز جغرافية ونفسية بين السكان . فالمسافة بين الرياض وجدة تزيد على الف كيلومتر من الاراضي

الخالية . وهي اقل قليلا ما بين الرياض والخليج . واكثر من ذلك بين الرياض والاردن .

انقسمت البلاد بسبب ذلك الى مناطق طبيعية ، لأهلها خصائص مختلفة ، اهمها الاحساء المجاورة للخليج ، ونجد ، والحجاز ، وعسير ، وتهامة على البحر الاحمر .

وفي السعودية ظاهرة طبيعية غريبة ، فهي تنفرد بين بلاد العالم ذات المساحة الكبيرة ، بأن ليس فيها نهر جاري على مدار السنة عدا بعض جداول صغيرة في عسير .

عدد السكان

ليس في السعودية احصاءات واضحة عن عدد سكان البلاد ، أوعدد الغرباء الذين يعملون فيها ، ولا يستطيع اي باحث ان يحصل من أي مصدر حكومي على رقم حقيقي . لذلك نضطر الى التقدير والتخمين .

قامت الحكومة باحصاء في أواخر ١٩٧٤ اذاعت دائرة الاحصاء نتائجه في مارس (اذار) ١٩٨٠ . وخلاصته ان عدد الذكور يبلغ ثلاثة ملايين ومايتين واثنين وسبعين الفا (٣,٢٧٢,٤٥٨) وعدد الاناث مليونين وثمانماية وثمان واربعين الفا (٢,٨٤٨,٦٧٨) والمجموع ستة ملايين وماية وواحد وعشرون الفا (٦,١٢١,١٣٦) .

وهناك دراسة لليد العاملة قامت بها وزارة التخطيط ، فوجدت ان العمالة الاجنبية بلغت مليونا وثلاثماية الف في نهاية سنة ١٩٧٨ ، في حين بلغت العمالة السعودية مليونا واحدا . لكن الخطة الخمسية الثالثة (١٩٨٠ ـ ١٩٨٥) قلبت هذه الارقام فجاء فيها ان مجموع العمال السعوديين بلغ سنة ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠ مليونا واربعماية الف في حين بلغ عدد العمال غير السعوديين مليونا وستين الفا . وتتوقع الخطة الانمائية الثالثة ارتفاع العدد سنة ١٩٨٥ الى مليون ونصف مليون سعودي والى مليون وتسعة وستين الف غير سعودي .

جاءت هذه التوقعات قبل هبوط الطلب على البترول وانخفاض سعره منذ ١٩٨١ ، مما أدى الى تباطؤ مشاريع الانماء وخفض الطلب على العمالة الاجنبية .

شرائح المجتمع السعودي

يقسم سكان السعودية الى ثلاثة اقسام هم ، السكان الحضر في المدن والارياف ، والبدو الرحل الذين يشكلون ٢٥ ـ ٣٠ بالماية من السكان ، والغرباء من عرب واجانب . وتبلغ الامية بين السعوديين نساءً ورجالاً نسبة متوسطة وهي اكثر من ذلك بين النساء .

وقد حصلت هجرة واسعة للسكان من الريف والبادية الى المدن ، طلبا للعمل وانتفاعا من المنح والتسهيلات الحكومية ما بين ١٩٧٤ ويومنا هذا .

لكن التقسيم بين بدو وحضر لا يعطي صورة صحيحة عن الواقع ، لأن سكان المدن والواحات يشتركون مع البدو بقيمهم الاجتماعية والاخلاقية وبعاداتهم . وبنظرتهم الى الحياة . وكثيرون منهم يعودون بنسبهم الى قبائل بدوية ، ويفتخرون بذلك ، ومنهم آل سعود . وحسب بعض المعلومات فان نحو خمسة وسبعين بالماية من السعوديين ، سواء الذين يسكنون المدن أو القرى ، يدينون بالولاء للقبيلة التي ينتسبون اليها ، ويتقيدون بالعادات القبلية .

ويحتقر السعوديون اجمالاً المهن التي تتطلب عملاً يدوياً ، ويعتبرونها محطة بكرامتهم وتمس كبرياءهم . فالسعودي لا يشتغل نجارا او حدادا ، او ميكانيكيا او ضاربا على الآلة الكاتبة او عاملا في مصنع او في ورشة بناء ، ولا يرضى بالقيام بأعمال الصيانة على اختلافها . لكنه قد يشتغل مزارعا على مضض . فاذا جاء الى المدينة فانه يفتش عن وظيفة في مكتب خاص او حكومي شرط ان لا تستدعي منه عملا يدويا .

العنصر البشري ونوعية التعليم

تؤكد الحكومة السعودية ان الثروة الاولى في البلاد هي الطاقة البشرية لان استثمار اية ثروة طبيعية اخرى كالبترول والمعادن والزراعة والتجارة والصناعة يعتمد اساسا على العنصر البشري . وتبذل الحكومة جهودا كبيرة في مجال التعليم والتدريب . لكن جهودها تبقى ناقصة لثلاثة اسباب : الاول استبعاد الاناث كلياً عن المشاركة في العمل ، الا في مجال التدريس والتمريض ،

والثاني ، الفشل في التغلب على العادات الاجتماعية التي تمنع السعودي عن تعاطي العمل اليدوي حتى في أوساط الذين يتخرجون من معاهد التدريب المهنية . والثالث نوعية التعليم ، اي ان جهود التربية يعترضها عقم التعليم التقليدي ، والتفريط بالطاقة النسائية ، وابتعاد السعوديين عن التعليم المهني .

بانتظار التخلص من هذه الاوضاع التربوية يبقى المجتمع السعودي محروماً من الفائدة المتوخاة من النظام التربوي رغم مليارات الدولارات التي تنفق عليه .

لقد نقل نظام التعليم السعودي ـ الابتدائي والاعدادي والثانوي والجامعي ـ بحذافيره من التجربة المصرية ، وهوعلى الغالب ليس متوافقاً مع حاجة البلاد السعودية .

مشكلة العمالة

ان المدنية الصناعية المعاصرة ، التي تحاول السعودية اللحاق بها ، تقوم كليا على عمال وفنيين يشتغلون بعقولهم وبأيديهم لتخطيط المعامل وبنائها ، وتركيب الماكينات وتشغيلها وصيانتها . لكن التقاليد الاجتماعية تحول دون قبول السعودي بهذه الاعمال . وليس من المعقول نقل مجتمع من البداوة الى المدنية الصناعية والالكترونية في جيل او جيلين . ولا يتم هذا الانتقال الصعب بمنح شهادات بالكفاءة من معاهد التدريب او من الجامعات بل هي عقلية وقيم مجتمع بكامله تحتاج الى التطور البطيء على مدى أجيال . ومعنى ذلك استمرار اعتماد البلاد بصورة كبيرة على العمالة الاجنبية . وكمثال على ذلك ، فان نسبة الغرباء في مدينة جدة ، المركز التجاري للبلاد ، تبلغ ستين بالماية من مجموع السكان ، حسب تقدير البعض .

بالاضافة الى المصريين توجد اعداد كبيرة من اليمنيين . ويأتي بعد ذلك سودانيون وسوريون ولبنانيون وفلسطينيون واردنيون وباكستانيون وهنود وكوريون وفيليبيون يقارب مجموعهم مليونا ونصف الى مليونين .

وتسعى الحكومة جهدها لاستبدال العمال الاجانب بعمال سعوديين على مختلف المستويات ، كما تنشر الادارات الحكومية المختلفة احصاءات عن هذا الاتجاه . من ذلك احصاء نشرته مؤسسة بترومين الحكومية يوم ٢٣ فبراير

١٩٨٥ قالت فيه : ان عدد السعوديين العاملين في مصفاة بترومين - موبيل في ينبع بلغ هذه السنة ٤٠,٢٣ بالماية من مجموع العمال واعتبرت ذلك انجازا بارزا .

وتحاول الدولة ايجاد عمل لجمهور الشباب المتخرج من الثانويات والجامعات ، الذي يتضخم سنة بعد سنة ، فلا يجد عملا الا في الوظائف الحكومية ، بصرف النظر عن حاجة الدولة الى الوظيفة المحدثة ، وعن كفاءة المعين لها . والمهم ان لا يبقى خريج من دون راتب .

وبهذا نرى الجهاز الاداري يتضخم سنويا بنسبة كبيرة ليستوعب جيوش الخريجين .

واذا كان عدد الموظفين الغرباء قد نقص في السنوات القليلة الماضية في القطاع الخاص ، فذلك عائد الى الركود الاقتصادي .

تحدثت جريدة «اراب نيوز» السعودية الصادرة باللغة الانكليزية في جدة بتاريخ ١٨ اغسطس (آب) ١٩٨٥ عن الموضوع فنقلت تقريرا وضعته مؤسسة اميركية في نيويورك قالت عنها الجريدة ان لها شهرة عالمية في دراسة المواضيع المتعلقة بالادارة ، والعلاقات الانسانية ، واستخدام الطاقة البشرية .

وقد اجرت هذه المؤسسة دراسة على عشرين شركة سعودية ترغب باحلال موظفين سعوديين محل الغرباء الذين تستخدمهم . وقالت الدراسة : انه يلاحظ استنكاف واضح لدى السعوديين عن تعاطي الاعمال التي تتطلب مهارة يدوية .

تجاه هذا النقص في اليد العاملة السعودية المدربة تضطر الشركة ، التي ترغب باستخدام سعوديين الى أن تدربهم بعد توظيفهم . وهذا يعني دفع معاش للموظف ا لسعودي ومعاش للذي يدربه ، ومعاش ثالث للموظف الغريب الذي يشغل وظيفته ، حتى ينتهي تدريب الموظف السعودي . واختتمت الدراسة قائلة : انه لما كانت الشركات تنشد الربح فمن الاسهل عليها ان تبقي الموظف الغريب رغم اجوره المرتفعة على ان تدرب موظفا سعوديا .

وتبقى القضية المركزية في العمالة السعودية : كيف تستطيع الحكومة ان تستميل الى المهن اليدوية شبابا تغذيهم برامجها التعليمية ، في المراحل الابتدائية والوسطى ، بقيم وعادات اجتماعية مناهضة للعمل اليدوي ، تضاف الى نفور هؤلاء الشباب من تلك الأعمال ، بتأثير محيطهم المشبع بقيم الصحراء . وتتضخم المشكلة حين يشعر الشاب انه يستطيع الحصول على

دخل اوفر من اعمال اخرى تريحه من ممارسة اعمال مهنية ، ومن الخضوع لنظام عمل صارم .

ثروة البترول

ذكرنا ان الثروة الأولى في البلاد هي العنصر البشري .
اما الثروة الثانية فهي البترول . ومنذ ١٩٨٢ بدأت هذه الثروة تفقد اهميتها العالمية ، فانخفض انتاج البترول السعودي من نحو عشرة ملايين برميل يوميا الى نحو مليونين وربع مليون برميل في منتصف ١٩٨٥ ، كما انخفض سعر البرميل من ٣٤ دولاراً الى ١٥ دولاراً في فبراير (شباط) ١٩٨٦ .
ان الاقتصاد السعودي رغم وفرة أموال البترول في السابق يبقى اقتصادا مزعزعا لأنه يستند على مورد واحد . فاذا اصاب هذا المورد الوحيد خلل ، يتأثر الوضع برمته . وهذا ما حصل في السنوات الماضية . فارتفاع اسعار البترول بسبب الحرب العربية - الاسرائيلية سنة ١٩٧٣ ثم بعد سقوط شاه ايران سنة ١٩٧٩ حمل الدول الصناعية في اليابان واوروبا واميركا الشمالية على تحسين ماكناتها الصناعية والنقلية ، بحيث قل استهلاكها للبترول . وفي البرازيل استخرجوا الكحول من قصب السكر ومزجوه بنسبة ثمانية بالماية من البترول . وتحولت صناعات اخرى الى استعمال الفحم . وتجري دراسات عن استعمال اشعة الشمس والهواء وموج البحر لاستخراج الطاقة بالاضافة الى الطاقة النووية . كما تكثف البحث عن البترول في العالم فاكتشفت حقول غنية في المكسيك وكندا ، ويجري الآن البحث عن حقول في الصين تكفي حاجة تلك البلاد واليابان ، وهي من اكبر مستوردي البترول السعودي .
اثرت هذه التطورات على وضع دول الاوبيك ، فانخفض الانتاج والسعر منذ ١٩٨٢ وما يزال . وانعكس ذلك على احوال السعودية فجاءت ميزانيتا ١٩٨٣ - ١٩٨٤ و١٩٨٤ - ١٩٨٥ انقص من ميزانية ١٩٨٢ - ١٩٨٣ . وبدأت الحكومة تأخذ من مال الاحتياط ، لتسديد عجز الموازنة . كما اجلت والغت بعض المشاريع ، وبما ان حيزا كبيرا من الاقتصاد الوطني ، مرتبط بالمشاريع الحكومية فان تقلص النفقات الحكومية انعكس سلبا على نشاط القطاع الخاص .

خلال عام ١٩٨٥ اجتمع اعضاء منظمة الاوبيك (الدول المصدرة للنفط) عدة اجتماعات واتخذوا قرارات للمحافظة على اسعار البترول تقضي بتحديد كمية الانتاج لكل عضو ، على ان يلتزم بسعر المنظمة المعلن وهو٢٨ دولارا للبرميل الواحد ، وعلى ان لا يزيد انتاج الاعضاء العام عن ١٦ مليون برميل يوميا .

لكن بعض الاعضاء لم يتقيدوا بالقرارات المتخذة ، فصاروا ينتجون اكثر من حصتهم المقررة ، ويبيعون البترول باقل من السعر المحدد . فكانت السعودية تنقص من انتاجها ومن ايراداتها ، حتى تضمن ان لا يزيد الانتاج العام للاوبيك على ١٦ مليون برميل فتتدهور الاسعار .

بقيت السعودية تتحمل هذا العبء طيلة عام تقريبا تأكدت خلاله ان تضحيتها لم تقنع بعض الاعضاء بالالتزام بتعهداتهم ، فاتخذت قراراً في شهر سبتمبر (ايلول) ١٩٨٥ بالتخلي عن السعر الرسمي الذي حددته اوبيك وهو ٢٨ دولاراً للبرميل ، وبزيادة انتاجها الى ٤,٥ مليون برميل يوميا ، وهي الكمية المحددة لها في قرار الاوبيك .

واتفقت السعودية مع شركات اكسون وموبيل وتكساكووشل على بيعها البترول بموجب اسعار جديدة تقارب سعر السوق الحر .

اجتمعت منظمة اوبيك في فيينا يوم ٤ اكتوبر ١٩٨٥ ولم يستطيع اعضاؤها الاتفاق على حصص الانتاج لكل دولة ، او على تحديد سعر موحد . وانفض الاجتماع من دون نتيجة واعلنت دولة الاكوادور تعليق عضويتها في المنظمة نظراً لعدم جدواها . وشهد العالم في نهاية عام ١٩٨٥ بداية انهيار المنظمة التي تحكمت باقتصاديات العالم منذ عام ١٩٧٣ ، وحل التنافس والتزاحم بين المنتجين . واستبشرت الدول الصناعية بانخفاض اسعار هذه المادة الحيوية وتفاءلت بمزيد من الانتعاش في الاقتصاد العالمي .

نظام الحكم والادارة

اصدر الملك سعود بتاريخ ١٧ مايو (ايار) ١٩٥٨ مرسوما ملكيا نظم العلاقات في دوائر الحكم العليا وحدد مسؤوليات واعمال مجلس الوزراء ودوائر الحكومة الاخرى ، فاصبح مجلس الوزراء هيئة تعمل تحت اشراف الملك لكنها

مستقلة عنـــه . والملك هو في الــوقت ذاتــه رئيس لمجلس الــوزراء ، ويتمتـع بصـلاحيـات رئيس الـوزارة بالاضافة لصلاحياته الملكية ، يعاونه نائب اول في المجلس هو حاليا ولي العهد الامير عبد الله ، ونائب ثان هو الامير سلطان وزير الدفاع .

يتمتع مجلس الـوزراء بصلاحيات واسعة تتضمن «تحديد وتقرير السياسات الـداخليـة والخـارجيـة والمالية والاقتصادية والتعليمية والدفاعية للمملكة ، كما تشمل جميع الشؤون العامة الخاصة بالبلاد» .

ويـمارس مجلس الـوزراء كل الصـلاحيـات التنفيـذية والادارية ، وله الرأي النهائي في المسائل المالية . لكن قراراته لا تصبح نافذة الا بعد موافقة الملك عليها .

وتعـرض على مجلس الـوزراء المعـاهـدات والاتفـاقات الدولية والامتيازات وهي تحتاج الى موافقته قبل ان تصدر بمرسوم ملكي ، وتكون قرارات المجلس نهائية ونافذة في كل الامور التي لا تحتاج الى الصدور بمرسوم ملكي .

يمارس رئيس الوزراء (الملك) السلطة التي تضع السياسة العامة للمملكة . وهـو مسـؤول عن حسن ادارة الجهاز الحكومي ، وتحقيق التعاون والتنسيق بين الوزارات والادارات الحكومية المختلفة .

ويراقب رئيس الوزراء تنفيذ قرارات المجلس في دوائر الدولة .

تعمل اربع دوائر تحت امرة المجلس مباشرة هي سكرتارية المجلس ، ومجلس المراقبة ، ومجلس المظالم ، ودائرة الخبراء .

ديوان الملك

بالاضـافـة الى سلطته الواسعة كملك وكرئيس للوزارة يشرف الملك مباشرة وشخصيا على الادارات التالية :

اولاً : هيئة مستشاري الملك .

ثانياً : غرفة الملك الخاصة .

ثالثاً : دائرة المراسم .

رابعاً : مديرية الامر بالمعروف والنهي عن المنكر التي تنتشر فروعها في جميع المدن والقرى للاشراف على اخلاق المواطنين وتقيدهم بتعاليم الدين .

خامساً : مديرية شؤون البدو .

سادساً : مديرية الافتاء
سابعاً : المؤسسات والكليات الدينية وهي مرتبطة مباشرة بالملك .

الوزارة الحالية

تتشكل الوزارة الحالية بداية (١٩٨٦) من :
الامير عبد الله بن عبد العزيز ولي العهد والنائب الاول لرئيس الوزراء ورئيس الحرس الوطني .
الامير سلطان بن عبد العزيز وزير الدفاع والطيران والنائب الثاني لرئيس الوزراء .
الامير نايف بن عبد العزيز وزير الداخلية .
الامير متعب بن عبد العزيز وزير الاشغال العامة والاسكان .
الامير سعود الفيصل وزير الخارجية .
الدكتور عبد الرحمن آل الشيخ وزير الزراعة والموارد المائية .
الشيخ ابراهيم آل الشيخ وزير العدلية .
الشيخ حسن عبد الله آل الشيخ وزير التعليم العالي .
السيد سليمان عبد العزيز السليم وزير التجارة .
السيد حسين المنصوري وزير المواصلات .
السيد عبد العزيز الخويطر وزير التعليم .
السيد ابراهيم العنقري وزير الشؤون البلدية والقروية .
السيد محمد ابا الخيل وزير المالية والاقتصاد .
الدكتور غازي القصيبي وزير الصحة (الى حين اقالته في ١٨ ابريل ١٩٨٣ فخلفه في الوزارة السيد فيصل حجيلان) .
السيد علي الشاعر وزير الاعلام .
السيد محمد علي الفايز وزير العمل والشؤون الاجتماعية .
السيد عبد العزيز الزامل وزير الصناعة والكهرباء .
السيد احمد زكي يماني وزير البترول والثروة المعدنية .
الشيخ عبد الوهاب عبد الواسع وزير الحج الاوقاف .
السيد علي درويش الكيال وزير البرق والبريد والهاتف .

الامير ماجد بن عبد العزيز وزير الشؤون البلدية والقروية وقد نقل منها الى امارة الحجاز .

السادة محمد ابراهيم مسعود ، وعبد الله العمران ومحمد الملحم وزراء دولة .

قسمت الدولة البلاد الى اربع مناطق جغرافية هي :

اولاً : المنطقة الوسطى (نجد) عاصمتها الرياض وتضم المقاطعات التالية :

١ ـ مقاطعة الرياض ويتبعها وادي الدواسر ، والافلاج ، والحريق ، والخرج والعريض ، والوشم ، وسدير .

٢ ـ مقاطعة القصيم وعاصمتها بريدة وتضم : عنيزة وبريدة والرس والمذنب وقرى اخرى .

٣ ـ مقاطعة حايل عاصمتها حايل وتضم قبائل شمر ، والظفير ، ومطير .

٤ ـ مقاطعة الحدود الشمالية عاصمتها طريف .

٥ ـ مقاطعة الجوف عاصمتها الجوف .

ثانياً : المنطقة الغربية (الحجاز) عاصمتها مكة وتضم :

١ ـ مقاطعة المدينة ، عاصمتها المدينة .

٢ ـ المقاطعة الشمالية عاصمتها تبوك .

٣ ـ القريات .

٤ ـ مقاطعة مكة التي تضم مدن جدة والطايف .

ثالثاً : منطقة عسير ، عاصمتها ابها ، وتضم :

الباحة وجيزان ونجران .

رابعاً : المنطقة الشرقية ، عاصمتها الدمام ، وتضم :

الهفوف ، والظهران ، وجبيل ، والقطيف والخبر ومناطق آبار البترول .

وقد اصدر مجلس الوزراء قراراً بتاريخ ٣ اكتوبر ١٩٦٣ نظم ادارة المناطق والمقاطعات فوضع على رأس كل منطقة حاكما يعينه مجلس الوزراء بناء على اقتراح وزير الداخلية ، ووضع على رأس المقاطعات موظفا اداريا يعينه وزير الداخلية لكنه مسؤول امام حاكم المنطقة ، واقام القرار الى جانب الحاكم مجلسا محليا من ثلاثين عضوا يعينهم وزير الداخلية لمساعدة الحاكم والاهتمام بشؤون المنطقة .

وفيما يلي اسماء بعض امراء المناطق :

١ ـ المنطقة الوسطى (نجد) عاصمتها الرياض :
الامير سلمان بن عبد العزيز ، امير منطقة الرياض .
الامير سطام بن عبد العزيز ، نائب امير الرياض .
الامير عبد الاله بن عبد العزيز ، امير مقاطعة القصيم .
الامير مقرن بن عبد العزيز ، امير مقاطعة حايل .
الامير عبد الرحمن احمد السديري ، امير مقاطعة الجوف .
الامير عبد الله بن عبد العزيز بن مساعد ، امير مقاطعة منطقة الحدود الشمالية .

٢ ـ المنطقة الغربية (الحجاز) عاصمتها مكة :
الامير ماجد بن عبد العزيز ، امير المنطقة الغربية .
الامير سعود بن عبد المحسن ، نائب امير المنطقة الغربية .
الامير عبد المحسن ، امير المدينة (توفي في ١٠ مايو ١٩٨٥) .
الامير سلمان بن تركي السديري ، حاكم منطقة تبوك .
الامير سلطان بن عبد العزيز السديري ، حاكم منطقة القريات .
الامير ناصر بن عبد الله السديري ، حاكم منطقة الوجه .
الامير سعد بن ناصر السديري ، نائب حاكم المدينة المنورة .
الامير نايف بن مساعد السديري ، حاكم منطقة ينبع .
الامير احمد عبد المحسن السديري ، حاكم منطقة العلا .

٣ ـ منطقة عسير عاصمتها : ابها :
الامير خالد بن الملك فيصل ، حاكم عسير .
الامير فيصل بن بندر ، نائب حاكم عسير .
الامير فهد بن خالد السديري ، حاكم منطقة نجران .
الامير محمد بن تركي السديري ، حاكم منطقة جيزان .

٤ ـ المنطقة الشرقية : عاصمتها : الدمام :
الامير محمد بن الملك فهد ، حاكم المنطقة الشرقية .
الامير محمد بن فهد ابن جلوي ، حاكم منطقة الاحساء .

شكل الحكم في الدول الاسلامية

وحكم آل سعود

لم يستقر الفكر السياسي الاسلامي حتى اليوم ، على شكل محدد للدولة او النظام ، ولم يحدد بطريقة قاطعة طريقة انتخاب الحاكم ، ولم يبين بصورة حاسمة اساليب تطبيق الشورى :

هل هي شبيهة او مماثلة لاساليب الديمقراطية الغربية ؟

هل هي شبيهة او مماثلة لأساليب الديمقراطية الموجهة في الاتحاد السوفياتي ، والدول المماثلة له ؟

هل هي نمط مستقل متميز ؟ ما هي كيفية هذا النمط ؟

ان الحكم الاسلامي مر في سياق تطوره كما يقول مجيد خدوري [١] بأشكال عديدة هي :

نمط الدولة	التاريخ
١ ـ الدولة المدنية (نسبة الى مدينة يثرب)	٦٣٢ ـ ٦٦٢
٢ ـ الامبراطورية	٦٦٢ ـ ٧٥٠
٣ ـ الدولة العالمية الشاملة	٧٥٠ ـ ٩٠٠
٤ ـ عصر اللامركزية	٩٠٠ ـ ١٥٠٠
٥ ـ عصر التجزء الى وحدات سياسية	١٥٠٠ ـ ١٩١٨
٦ ـ نشوء الدولة القومية	١٩١٨

فهل كان شكل الحكم ، ونمط النظام ، وأساليب الشورى ، شيئاً واحداً في هذه الاطوار جميعاً ؟ ان الواقع التاريخي ينفي هذا ، ويثبت عكسه .

مثلا «كان كبار الفقهاء من علماء الدين ينكرون نظرية تعدد الخلفاء ، ولكن طرأ على النظرية التي تقول بوحدة السلطة الاسلامية (في العالم كله) تعديل من شأنه ان يسمح بقيام وحدات سياسية صغيرة ، وهذا التفسير الجديد كان يمثل اصحاب مذهب يبتغون التسوية في ضوء الواقع ، وأحسن من عبر عن هذا الرأي كان الماوردي ، الفقيه الشافعي الذي حاول أن يعدل نظرية الخلافة الموحدة ، وأن يجعلها تلائم حقائق الحياة في الظروف السياسية ، التي كانت سائدة في ذلك الحين» . [٢]

ومن هنـا ، ولعـدم وجود نصوص قاطعة تحدد شكل الدولة ونمطها ، ونظرا لتغير الظروف في الميدان السياسي اتسع مفهوم الحكم في الاسلام لكافة اشكال الحكم .

اتسـع لشكـل الخـلافـة والامامة ، واتسع للشكل العالمي والمحلي ، واتسع للنمط الاميري ، والملكي ، والجمهوري .

وقد اصطبغ حكم آل سعود ، بثلاثة اشكال من صور الحكم الاسلامي :

١ ـ الشكل الاول هو : الأميري ، وكان ذلك قبل قيام دولة محمد بن سعود ، فقد كان حكام آل سعود يلقبون قبل هذا التاريخ بلقب الأمير .

٢ ـ الشكـل الثـاني هو : الامامي . وكانت بدايته بمحمد بن سعود ، فهو أول من لقب بالامام من آل سعود ، واستمر هذا اللقب الى عبد الرحمن آل سعود ، حيث كان يلقب بالامام .

٣ ـ الشكـل الثـالث هو : الملكي الـذي بدأ بالملك عبـد العـزيـز واستمر حتى فهد ، وان كانوا يطلقون على انفسهم أئمة ، كما مر مع الملك فيصل .

وأيـا كان شكـل الحكم في الاسـلام ، فان القضيـة او القضـايا المركزية لهذا الحكم كما تتضح في كتب الفقهاء هي :

أ ـ استمرار رسالة القضاء الشرعي ، سواء استعان هذا القضاء بقوانين محددة ، او اختار طريق النظر والاجتهاد في الاصول والسوابق .

ب ـ تطبيق مبدأ الشورى (من دون الالتزام بصورة واحدة لهذا التطبيق) .

ج ـ ضبط الحياة الاجتماعية بقيم معينة ترعاها الدولة وتحميها .

فيـما عدا ذلـك ، فان النظم الاداريـة والفنيـة التي تختـارهـا الدولة لتحقيق المصلحة العامة ، لا يقيدها اي قيد سوى مقتضيات هذه المصلحة العامة .

ويبـدو ان النظـام السعـودي يحاول الجمـع بين المبـادىء الثابتة وبين دواعي التجدد والحداثة .

بيد أن لنا ملاحظات على هذا الاطمئنان للنهج السعودي :

المـلاحظـة الاولى : ان الضـوابط والكوابح الدينية ، لم تقلل من الاندفاع نحو التصنيع ، وتحديث الزراعة والمدن ، والتوسع في التعليم .

المـلاحظـة الثانية : ان تعميم هذه الظاهرة على الجوانب الاجتماعية ، ينطوي على عدم الـدقـة ، فالمـرأة السعـوديـة ، وان كانت قد حصلت على حظوظ تعليميـة لا بأس بها ، الا انهـا ما تزال في الغـالـب حبيسة تقاليد اجتماعية ليست محل اقتناع كامل ، ولا موضع اجماع شامل .

على ان هذه الملاحظات لا تحول دون شرح الانجازات التي تحققت خلال

السنوات العشر الماضية . وسنقتصر على بحث الناحيتين : العمرانية والسياسية ، العربية والخارجية .

الانماء والعمران

ازدادت ايرادات الدولة من البترول بعد حرب ١٩٧٣ ، ثم تضاعفت مرة اخرى بعد سقوط شاه ايران ، فاصبح بالامكان التوسع في مشاريع الانماء والاعمار .

ظهر في الحكم وفي البلاد رأيان يتعلقان بسياسة انتاج البترول .

الرأي الاول يقول : انه من الافضل ان لا تنتج البلاد الا الحد الادنى الذي يكفي حاجاتها العادية ، لان خزن البترول داخل الارض افضل من صرفه بسرعة على المشاريع . وحجتهم في ذلك ان الانفاق السريع يغير من طبيعة المجتمع . كما ان اسعار البترول برأيهم ستستمّر بالتصاعد الى ما لا نهاية .

اما الرأي الثاني ، الذي ايده الامير فهد ، فقال : ان البلاد في حالة تأخر ، وتحتاج الى نهضة عمرانية وانمائية سريعة لتجاري الدول العربية الاخرى على الاقل . ثم ان البترول اذا تحول الى مشاريع اقتصادية وخدمات اجتماعية تلبي حاجات الناس افضل من ابقائه مخزونا في بطن الارض . وبعد ، فمن يضمن ان لا تكتشف الدول المتقدمة بديلا للبترول ، اذا بقيت اسعاره مرتفعة سواء لاستعماله كمصدر طاقة او لاستخدام مشتقاته في الصناعات التي تدعى بتروكيماويات .

وتغلب رأي الامير فهد ، فصارت السعودية تنتج نحو عشرة ملايين برميل ونصف مليون يوميا ، فتضاعفت القدرة على الانفاق . ومؤخرا انخفض الطلب العالمي على البترول ، وسقطت اسعاره الى نحو ثلث ما كان يباع به ، فصحت توقعات الامير فهد .

في فترة الوفر المالي انجزت الدولة معظم مشاريع البنية التحتية . التي تشكل الاساس لأي نمو اقتصادي وعمراني . فبنت المدارس والمستشفيات ، ومعاهد التدريب المهني ، والمساكن الميسرة للمواطنين الضعفاء ، وانشأت الطرق المعبدة التي ربطت اجزاء البلاد بشبكة ممتازة رغم بعد المسافات ، ومدت شبكة مواصلات سلكية ولاسلكية تتفوق على اية شبكة عربية اخرى ، وتضاهي افضل ما في الدول المتقدمة . وقد تابعت هذه الشبكة احدث التطورات الفنية الالكترونية ، اذ حققت الدولة مؤخرا مشروع القمر الصناعي العربي (ارابسات) بالاشتراك مع دول عربية اخرى ، لكن السعودية تحملت الجزء

الوافي من نفقاته . وانهت الدولة ، اوتكاد ، مشاريع شبكات المجاري في المدن والبلدات ، ومشاريع جر مياه الشرب الى التجمعات السكنية من الآبار الارتوازية ، ومن مشاريع تحلية مياه البحر ، حتى اصبحت السعودية تعتبر سباقة في هذا المضمار .

واوصلت الدولة الكهرباء الى جميع المدن والقرى . ومن المعروف ما يحدثه استعمال الكهرباء من تطور اساسي في حياة العائلة وفي البنيان الاجتماعي ، بالاضافة الى ان الكهرباء عماد اية نهضة صناعية .

وحققت البلاد قدرا كبيرا من الاكتفاء الذاتي في انتاج مواد البناء على اختلافها ، وعلى رأسها انتاج «السيمنتو» الذي يشكل الركن الاساسي في النهضة العمرانية التي شهدتها البلاد في العقد الذي نعيشه .

خلال هذه الفترة ايضا ، حققت الحكومة مشاريع ضخمة في مد انابيب البترول والغاز من المنطقة الشرقية الى مدن المملكة الرئيسية ، والى ينبع على شاطيء البحر الاحمر للتصدير ، واقامت احدث المصافي المنتشرة في انحاء البلاد ، لانتاج مختلف مشتقات النفط كالبنزين ، والكاز والفيول اويل ، والشحوم وغيرها ، للاستهلاك المحلي وللتصدير . ثم امتد النشاط الصناعي الى التعدين ، فقامت معامل لاستخراج الحديد وتصنيعه ، لسد جزء من حاجة السوق المحلي ، وتجري دراسات جيولوجية وفنية لاستخراج الذهب ، وعدة معادن اخرى .

هذا جزء من الانجازات التي تحققت ، ولا ندعي اننا ألممنا بها كلها . وهي انجازات ينظر اليها المواطن السعودي كعمل عادي من اعمال الدولة ، وينسى احيانا ان التطور العمراني الذي شهده في السنوات القليلة الماضية ، والمنافع الاجتماعية التي حصل عليها ، يفوقان ، بأي مقياس ، اي انماء جرى في اية دولة عربية اخرى او في دولة من العالم الثالث مماثلة للسعودية بالمساحة اوبعدد السكان . مع ان دولا عربية كثيرة كانت اقرب من السعودية الى الاتصال بالحضارة الحديثة ومعرفة اساليب البناء والعمران ، ولكنها ضيعت جهودها في خلافات داخلية عقيمة . ومما يجب ان يستوقفنا هو ان الانماء السعودي يتبع النظرية الاقتصادية المعتمدة على النشاط الخاص والمبادرة الفردية . فالدولة تقف وراء كل مجهود اقتصادي خاص ، تدعمه معنويا وماليا . وتشجعه وتحميه ، ولا تتدخل الا في المشاريع والاعمال الضخمة ، التي يعجز رأس المال الخاص عن القيام بها ، اويبتعد عنها نظرا لمسؤوليتها .

وتسير الدولة خطوات أبعد في مساعدة القطاع الخاص . فهي بعد أن تقوم

بالمشاريع الكبيرة وتتأكد من نجاحها ، تعود فتعرض اسهمها على المواطنين ، لنقل ملكية المشروع وادارته اليهم . وهي بذلك قد سبقت بعض الدول الغربية الديمقراطية التي اقامت بعض الصناعات والخدمات على حسابها . او اممت مشاريع قائمة ، تنفيذا لسياسة بعض الاحزاب الاشتراكية ، التي توصلت الى الحكم لفترة ما ، ثم ما لبث ان اتضح للدولة سوء الادارة والتبذير وكسل الموظفين والعمال ، الذي يلازم الادارات الحكومية المعنية بالاقتصاد ، فعادت هذه الحكومات تبيع مصانعها وتسلم خدماتها للقطاع الخاص ، كما يحدث حاليا في الولايات المتحدة وكندا وانكلترا وفرنسا وغيرها ، فكان حكام السعودية ابعد نظرا واكثر معرفة بمصلحة شعوبهم من حكام بعض الدول المتقدمة .

وقد يتساءل البعض ، كيف التقى اتجاه بعض الحكام الغربيين ، الذين ارتكبوا اخطاء نراهم الآن يعودون عنها . مع مسيرة حكام السعودية ، مع ان تصرف الفريقين ينبع من مصادر فكرية وفلسفية مختلفة .

يقول بعض المراقبين ان للنموذج السعودي نظرية خاصة في التطور والانماء يمكن ان يطلق عليها مصطلح «التكيف العصري مع مبادىء الاسلام في مجال الانماء الاقتصادي والتطور الاجتماعي» . ويعتبرون الملك فهد ، ممثلا ومنفذا لهذا التفكير ، ومقتنعا بمبدأ «الدستور المرن» الذي يرتكز على قواعد فقهية عامة تترك اوسع المجالات للاجتهاد التفصيلي لمواجهة المتغيرات ، يساعده على ذلك القناعة الشعبية العامة ، بأن الاسلام دين يخاطب العقل ويناهض التخلف ويستوعب منجزات العصر ويحض على متابعتها . وبين يدي الملك وسائل تكوين الرأي العام ، وقيادته ، وتوجيهه الوجهة الصالحة عن طريق المدرسة والاعلام والمسجد والوعظ والارشاد ، وهي كبيرة الاثر في كل مجتمع .

من ناحية اخرى ، لا بد من مقارنة الازدهار السعودي ، وما حققه خلال حكم الملكين خالد وفهد ، وما حل بدول عربية غير بعيدة عن السعودية من انهيار اقتصادي وفقر عام ، مع ان بعضها لا يقل ثروة بترولية عن السعودية ، وبعضها اغنى من السعودية بثرواته الزراعية ، وصناعته المتأصلة منذ القدم ، وبشعبه الاكثر تقدما . ويعود سبب ذلك بالدرجة الاولى الى اسلوب الحكم المختلف .

لقد بحثنا حتى الآن المبادىء الاقتصادية التي يسير عليها الحكم السعودي . وقد اثبتت التجارب صحتها في الداخل وفي الدول المتقدمة ، كما سردنا بعض انجازات الحكم في اقامة البنية التحتية . وقد نقل الحكم السعودي

البلاد في السنين الماضية ، نقلة نوعية ضخمة ، من الاهتمام بمشاريع البنية التحتية التي كادت تستكمل ، الى مشاريع الاستفادة من ثروات البلاد البترولية والغازية في الصناعة البتروكيماوية المعقدة .

وقد اكدت الدولة انفتاحها على العالم وعلى العلم لما استدعت كبرى الشركات العالمية واقامت بالاشتراك معها المصانع الضخمة ضمن شروط ، من غايتها الاساسية ، نقل التكنولوجيا الحديثة الى السعوديين بالاضافة الى بيع الانتاج الوطني في الاسواق الخارجية . وقد وصلت اولى شحنات البتروكيماويات السعودية الى اوروبا في اواخر ١٩٨٥ وصار يحسب لها حساب في تلك الاسواق .

وقد تعرض الاقتصاد السعودي مؤخرا الى ضغط بسبب انخفاض اسعار البترول لعدم التزام بعض اعضاء منظمة الدول المصدرة للنفط (اوبيك) بالأسعار وكميات الانتاج المتفق عليها ، فكان بعضها يزيد من انتاجه عن الكمية المخصصة له ، كما كان يعرض بتروله باسعار ادنى من الاسعار المتفق عليها .

وقد حاولت السعودية تلافي اخطاء غيرها ، للمحافظة على الاسعار ، فكانت تخفض من حصتها ما اعتقدت انه يوازي الزيادة غير القانونية عند الآخرين حتى نزل انتاجها الى نحو مليون برميل ونصف مليون يومياً ، مع ان المخصص لها هو اربعة ملايين ونصف . ولما تأكدت ان جهودها تذهب هباء عادت تنتج حصتها كاملة ، فاغرق المنتجون الآخرون سوق البترول ، وتدهور سعره من ٢٨ دولاراً للبرميل الى ما دون خمسة عشر دولاراً في شهر مارس ١٩٨٦ . ولا شك ان هذا النقص في ايراد السعودية خفف الانفاق الحكومي فتأثر بالتالي القطاع الخاص . لكن الخبراء يجمعون على ان الوضع السعودي يستطيع ان ينمو بصورة عادية ، فالايرادات المتاحة دون التعرض لضائقة . وتعمل الحكومة حاليا على حصر النفقات وممارسة التوفير في النواحي غير الحيوية بحيث يستمر النمو الاقتصادي بخطى متزنة .

ومن الطبيعي ان يشعر المواطن السعودي بالقرق ، وان يشكو ، فقد اعتمد على وفرة المشاريع العامة ، وعلى الارباح الكبيرة التي يحققها . وقد قلّت هذه المشاريع الان وربما نقص دخله بعض الشيء . لكن دخل هذا المواطن ما يزال يفوق اضعاف دخل اي مواطن عربي اخر في البلاد الممتدة من حدود ايران الى المحيط الاطلسي ، بالاضافة الى ان السعودي يتمتع بخدمات اجتماعية مجانية

غير متاحة لغيره . ولعل الانسان السعودي يجد بعض العزاء النفسي اذا قاس اوضاعه باوضاع غيره من اخوانه العرب .

السياسة العربية للدولة السعودية

تبعت الدولة السعودية سياسة متزنة تقوم على مبادىء ثابتة . فهي تؤمن بالتضامن العربي رغم اختلاف الانظمة . وتعتقد ان ما يجمع العرب اكثر بكثير مما يفرقهم ، وان الخلافات القائمة بينهم امور عارضة يمكن التغلب عليها . وقد حافظت السعودية على هذه القناعة رغم التبعثر العربي الحالي . وقد اثمرت فكرة التضامن في محيط الخليج فقام مجلس التضامن الخليجي ، الذي يتطور باستمرار نحو مزيد من التعاون والتنسيق بين اعضائه في جميع المجالات ، عسى ان يصبح مثالا تحتذيه الدول العربية الاخرى ، فتعود جامعة الدول العربية الى لعب دورها بفعالية اكبر .

ومن مبادىء السياسة السعودية انها تبتعد عن الخصومات العربية حتى عندما يهاجمها الغير بالدعاية والتجريح ، فتجيب على ذلك بالدعوة الى التضامن والمحبة . وكثيرا ما كال رؤساء دول عربية التهم للسعودية ثم رأيناهم يزورون الرياض فيستقبلون بالمودة والصفاء .

ومن مبادىء السياسة السعودية بذل العون المالي للدول العربية الاقل ثراء ، او التي تتحمل مسؤولية قومية . وقد اتضح ان السعودية مولت سرا المجهود الحربي المصري والسوري بمبالغ ضخمة استعدادا لحرب تشرين ١٩٧٣ ، وهي سباقة الى دفع الاعانات التي تقرها مؤتمرات القمة العربية لدول المواجهة ، اي سوريا والاردن ومنظمة التحرير الفلسطينية . ومع ان اوضاع البترول الحالية حملت بعض الدول العربية على تقليص التزاماتها او الغائها ، فقد بقيت السعودية ، ربما وحدها ، تدفع كامل ما التزمت به .

ومن مبادىء السياسة العربية للدولة السعودية ايضا المبادرة الى التوسط لرأب الصدع بين الدول العربية ، وتطويق الاختلافات بينها ، وما اكثرها ، وتقبل الدول العربية ، على اختلاف انظمتها ، الوساطة السعودية لان حكامها ، كما ذكرنا ، ليست لهم خصومة مع احد ولا يحملون ضغينة ، مهما اشتدت الحملات عليهم ، ولا ينحازون الى طرف عربي ضد الآخر . وليست جميع الوساطات السعودية ناجحة بطبيعة الحال ، والا لانتهى الخصام بين الانظمة العربية ، لكن مجرد اجراء الوساطة يساعد على تهدئة العواطف ، ويرطب الاجواء ويؤجل الازمة ان لم يحلها .

وقـد نجحت السعـودية في المجـال العـربي الاكثـر حسـاسيـة وهو موضوع فلسطين . فقد وضع الامير فهد مشروعا لحل قضية فلسطين بعد مشاورات مع منظمة التحرير ومع سوريا والدول العربية المعنية ، عرف باسم «مشروع الامير فهـد» . وعـرض المشروع على مؤتمر القمة العربي في فاس ، المنعقد بتاريخ ٨ سبتمـبر (ايلول) ١٩٨٢ فتبنـاه المـؤتمـر . ومـا يزال مشـروع الامير فهد يشكل الاساس الوحيد المقبول الذي تجمع عليه الدول العربية لحل القضية الفلسطينية .

مراجع الفصل الحادي عشر

١ ـ خدوري مجيد ، كتاب السير ، للشيباني ص ٣١
٢ ـ المصدر السابق ص ٣٣ .

مصادر الكتاب

ابن بشر ، عثمان ، عنوان المجد في تاريخ نجد ، جزءان ، الناشر : مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض .
ابن تيمية ، تقي الدين ، السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية ، دار الكتاب العربي بمصر ، الطبعة الرابعة ١٩٦٩ .
ابن خلدون ، شمس الدين ، ابو العباس احمد بن ابراهيم ، مقدمة ابن خلدون في كتاب «العبر» تحقيق وتعليق علي عبد الواحد وافي ، لجنة البيان العربي ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٦٥ .
ابن خميس ، عبد الله ، بلادنا والزيت ، النادي الأدبي في الرياض ، ابريل ١٩٧٩ ، مطابع الفرزدق التجارية ، شارع جرير ، الرياض .
ابن عثيمين (ديوان) ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ، الرياض .
ابو حاكمة ، احمد ، تاريخ الكويت ، حزيران ، باشراف لجنة تاريخ الكويت ، مطبعة حكومة الكويت ، الجزء الاول ١٩٦٧ ، الجزء الثاني ١٩٧٣ .
ابو حاكمة تاريخ شرقي الجزيرة العربية ١٧٥٠-١٨٠٠ ، نشأة وتطور الكويت والبحرين (بالانكليزية) ترجمة محمد امين عبد الله ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت (من دون تاريخ) ، طبع شركة الطباعة والتجليد الفني ، بيروت .
ابو علية ، عبد الفتاح حسن ، دراسة في مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، دار المريخ ، الرياض ١٩٧٩ .
ابو علية ، عبد الفتاح حسن ، الدولة السعودية الثانية ١٨٤٠- ١٨٩١ ، مؤسسة الانوار للنشر والتوزيع ، الرياض ١٩٦٩ .
ابو علية ، عبد الفتاح حسن ، محاضرات في تاريخ الدولة السعودية الاولى ، دار المريخ الرياض ١٩٨٣ .
الجبرتي ، عبد الرحمن ، عجائب الاثار في التراجم والاخبار ، من اخبار نجد في تاريخ

الجبرتي لمحمد أديب غالب ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، جدة الطبعة الاولى ١٩٧٥ .
حمزة ، فؤاد ، البلاد العربية السعودية ، مكتبة النصر الحديثة ، الرياض ، الطبعة الثانية ١٩٦٨ .
حمزة ، فؤاد ، قلب جزيرة العرب ، مكتبة النصر الحديثة ، الرياض ، الطبعة الثانية ١٩٦٨ . (صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٣٣) .
الخطة الخمسية الثالثة للانماء الاقتصادي ١٩٨٠- ١٩٨٥ ، منشورات وزارة التخطيط ، الرياض .
الرشيد ، عبد العزيز ، تاريخ الكويت ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٧٨ .
الريحاني ، امين ، تاريخ نجد الحديث ، سيرة عبد العزيز بن عبد الرحمن ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٠ .
الريحاني ، امين ، ملوك العرب ، الطبعة الرابعة ، دار الريحاني للطباعة والنشر ، بيروت .
الزامل ، عبد الله علي المنصور - اصدق البنود في تاريخ آل سعود ، المؤسسة التجارية للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٧٢ .
الزركلي ، خير الدين ، شبه الجزيرة في عهد عبد العزيز ، ٤ اجزاء ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٧ .
السعدون ، خالد محمود ، العلاقات بين نجد والكويت ١٩٠٢- ١٩٢٢ ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ، الرياض ١٩٨٣ .
السعودية مملكة ونفط (اسم المؤلف غير مذكور) المركز العربي للنشر والتوزيع والدراسات ، باريس ابريل ١٩٨٢ .
سعيد ، امين ، تاريخ الدولة السعودية ٣ اجزاء في مجلد واحد مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ، الرياض .
سعيد ، محمد علي ، بريطانيا وابن سعود ، دار الجزيرة للنشر ١٩٨٢ (ليس لها عنوان) .
سلامة ، غسان ، السياسة الخارجية السعودية منذ عام ١٩٤٥ ، معهد الانماء العربي ١٩٨٠ ، دار الريحاني للطباعة والنشر ، بيروت .
عبد الرازق ، علي ، الاسلام واصول الحكم ١٩٢٥ ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت .
عزي ، بهاء ، الملاحة والانماء في المملكة العربية السعودية ، (بالانكليزية) منشورات تهامة ، جدة .
عسه ، احمد ، معجزة فوق الرمال ، المطابع الاهلية اللبنانية ١٩٦٥ .
العطار ، احمد عبد الغفور ، صقر الجزيرة ، مطابع المؤسسة العربية ، جدة ١٩٦٤ .
كشك ، محمد جلال ، السعوديون والحل الاسلامي ، مصدر الشرعية للنظام السعودي ١٩٨١ ، طبع في لندن .
المانع ، محمد ، توحيد المملكة العربية السعودية (مترجم عن الانكليزية Unified Arabia طبع شركة مطابع المطوع ، الدمام ، المملكة العربية السعودية .

المختـار ، صلاح الـدين ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، جزءان ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت (دون تاريخ) .
المنجد (قاموس) - دار الشرق (المطبعة الكاثوليكية) الطبعة الثانية ، ص. ب ٩٥٦ بيروت .
موضى بنت منصـور بن عبـد العـزيـز آل سعود ، الملك عبد العزيز ومؤتمر الكويت ١٩٢٣ - ١٩٢٤ (رسائل جامعية) ١٩٨٢ ، مؤسسة تهامة ، جدة ، ص. ب ٥٤٥٥ .

قوانين وتقارير ونشرات رسمية

- احصاءات الخدمة المدنية ، منشورات ديوان الخدمة المدنية ١٩٨٣ .
- تقرير مديرية الاحصاءات المركزية ١٩٨٣ ، منشورات وزارة المالية والاقتصاد الوطني .
- تقرير مؤسسة النقد العربي السعودي ١٩٨٣ .
- قانون تنظيم استثمار الاموال الاجنبية ، مرسوم ملكي رقم م/٤ تاريخ ١٣٩٩/٢/٢ (يناير ١٩٧٩) .
- قانون تنظيم الخدمة المدنية ، مرسوم ملكي رقم م/٤٨ تاريخ ١٣٩٧/٧/١٠ (١٩٧٧) .
- قانـون تنظيم العـلاقـة بين المتعهد الاجنبي ووكيله السعودي مرسوم ملكي رقم م/٢ تاريخ ١٣٩٨/١/٢١ (١٩٧٨) .
- قانون الضمان الاجتماعي ، مرسوم ملكي رقم م/٢٢ تاريخ ١٣٨٩/٩/٦ (١٩٦٩) .
- قانون العمل والعمال ١٩٦٩ ، مرسوم ملكي رقم م/٢١ تاريخ ١٣٨٩/٩/٦ (١٩٦٩) .
- قانون مراقبة المصارف ، مرسوم ملكي رقم م/٥ بتاريخ ١٣٨٦/٢/٢٢ (١٩٦٦) .
- قانون المقاطعات ، مرسوم ملكي رقم ١٢ تاريخ ١٣٨٣/٥/٢١ (١٩٦٣) .
- النشرة الاحصائية ١٩٨٣ ، مؤسسة النقد العربي ، الرياض .

Chamieh; Jebran;
1- Record of the Arab World, 1966-1977.
2- Saudi Arabia Yearbooks: 1979-80, 1980-81.
3- Saudi Arabia, The Third Five - Year Economic Development Plan 1980-1985.
4- Saudi Arabia, Record, of Economic Development 1983.
All published by the Research and Publishing House, P.O. Box 55025, Sin el Fil, Lebanon.
De Gaury, Gerald, Faisal of Saudi Arabia, Arthur Barker Ltd., 5 Winselsy St., London WL.
Dickson, H.R.P., Kuwait and Her Neighbours, Allen and Unwin, London, 1956.
Encyclopedia Brittanica, 1965 edition.
David Holden and Richard Johns, The House of Saud, Pan Books, London 1981.
Eisenhower, Dwight, The White House Years, vol.2. Waging Peach, Heinemann, London 1965.
The Financial Times, London, December 21, 1984 and January 3, 1985.

Lacey, Robert, The Kingdom, Harcourt Brace Jovanovich, Publisher New York, London.
LIDD, Local Industrial Development Department, Aramco Publications, Dhahran, Saudi Arabia.
The Military Balance 1983-84, The International Institute for Strategic Studies, IISS, 23 Tavistock St., London SW2E 7NQ.
Philby, Harry St. John. Arabia, C, Scribner's Sons 1930.
Revel, Jean Francois, Comment les Démocratires finissent. Collection Pluriel, Editions Grosset-Fasquelles 1983.
Saudi Arabia, Achievements of the Development Plans 1970-85 Ministry of Planning, Riyadh.
Saudi Arabia's Search for Security, By Adeeb Dawisha, Adelphi papers no. 158, The International Institute for Strategic Studies, IISS 23 Tavistock St. London SW2E 7NQ.
United Press International (UPI) Jan 31, 1985.
Winder, R. Bayly, Saudi Arabia in the Nineteenth Century, Macmillan Co. Ltd., 1965.